

الجمهورية العربية السورية
وزارة الثقافة

ناتج معرّة النعمان

تأليف
محمد سليم الجبدي

الجزء الأول

حقّقه وعلّق عليه ووضع فهرسه

عمر رضا كحّالة

الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ

الطبعة الثانية



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٤

تاريخ معرة النعمان / تأليف محمد سليم الجندي؛ حققه وعلق عليه
ووضع فهرسه عمر رضا كحالة. ط٢. - دمشق: وزارة الثقافة،
١٩٩٤. - ٣ مج في ٢؛ ٢٤ سم. - (سلسلة بلادنا؛ ٥).

صدرت الطبعة الأولى ١٩٦٣

١- ٩٥٦١٣١	ج ن د ت	٢ - ٩٢٠	ج ن د ت
٣- العنوان	٤ - الجندي	٥ - كحالة	٦ السلسلة
مكتبة الأسد			

الايداع القانوني : ع - ١٢٥١ / ١١ / ١٩٩٤

تاريخ معرفة النعمان
الجزء الأول

سلسلة بلادنا

« ٥ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المحقق

عهدت اليّ وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية ، في ٩ كانون الأول ١٩٦٢ م ، بمراجعة مخطوطة تاريخ معرة النعمان للاستاذ المرحوم محمد سليم الجندي ، واستدراك ما فيها من نقص ، وتكملة المعلومات والاحصاءات التي ذكرها المؤلف ، وقد تجاوزها الزمن ، وحذف ما ينبغي الاستغناء عنه .

وقبل أن أشرع في تحقيق التاريخ المذكور ، رأيت من الواجب علي أن أرحل الى معرة النعمان للتعرف على معالمها ، واستطلاع أحوالها ، فقدمت اليها ، ورغبت الى مدير منطقتها الدكتور أكرم الحساني ، أن يمد اليّ يد العون في تقديم المعلومات والاحصاءات اللازمة للمؤلف المذكور ، فلبى طلبي ، وكتب الى الدوائر ذات العلاقة بجمع المعلومات المقترحة وارسلها اليه .

وقد رافقني في هذه الرحلة السيد فائز السراج ، احد موظفي المركز الثقافي بحماة ، لتصوير بعض معالم المعرة ، وكان مرشدنا في تلك الجولة السيد ناصر الجندي احد مساعدي المرحوم المؤلف في بحثه عن المعرة .

ولما عدت الى دمشق بحثت في العمل الموكل اليّ ، وشرعت افكر في ترتيب الكتاب وتنسيقه ، وظللت مدة افكر في تغيير ترتيب المؤلف وتعديله وحذف مواد واثبات مواد اخرى ، وبعد البحث الدقيق والتفكير العميق رجحت أن اترك التاريخ المذكور على حاله ، وان اضيف اليه ما استجد من معلومات واحصاءات ، وعلق عليه تعليقات توضح الغامض منه ، وتعين القارئ على فهم مضمونه ، فضبطت كثيراً من الأعلام التاريخية والجغرافية ، وفسرت بعض الألفاظ والمصطلحات التاريخية ، المستعملة في بعض الأزمنة الغابرة ، وقد أشرت برمز (ج) الى تعليقات المؤلف ، وسأتبع ان شاء الله بهذا التاريخ فهرساً مفصلاً يكشف للباحث ما يبتغيه بدون عناء ونصب .

أما المؤلف رحمه الله فقد عرفته في سنة ١٩٣٠ م ، حيث قدمني اليه الاستاذ المرحوم محمد كرد علي رئيس الجمع العلمي

العربي بدمشق ، على طريقته في تشجيع الشادين ، فرد عليه المؤلف بكلمات تكشف عن نفس لا تؤمن بما يقال لها الا بعد التأكد من صحة القول .

وتلك ظاهرة لمستها في تأليفه ، حيث ينقل أقوالاً كثيرة في الموضوع الذي يعالجه ، ثم ينتهي به المطاف الى الشك بكل ما قيل فيه .

ومن أبرز صفات المؤلف انه شديد التمسك بدينه وقوميته بما جعله أحياناً يقسو على بعض الجماعات أو الأفراد ، فينعتهم بنعوت غير مستحبة ، وهي لا تزال بحاجة الى مزيد من البحث والتمحيص .

وأما مؤلفه تاريخ معرة النعمان، فيضم بين جانبيه ابحاثاً متعددة ومتنوعة ، .يمكنني أن اوجزها بما يأتي : تعريف معنى المعرة اللغوي والعرفي ، ذكر المعرة في شعر ابنائها وفي نثرهم ، المعرة في القديم ، المعرة بعد جلاء الترك عنها ، لغة المعرة وحياتها الدينية والاجتماعية ، خصائص المعريين ، سورية والفرنسيون ، طول المعرة وعرضها وارتفاعها عن سطح البحر

والطرق المارة بها ، عدد نفوس المدينة وما الحق بها ، حكومة
المعرة ومقرها ، المكاتب والمدارس والزوايا والمساجد في المعرة ،
بناء ضريح أبي العلاء الجديد والمهرجان الألفي لأبي العلاء ،
الخانات والحمامات والمقاهي والأسواق والدكاكين والدور والمساكن
والمعاصر في المعرة ، المياه التي هي خارج المعرة ، أودية المعرة
وتلاها ، القباب ومحلات مدينة المعرة وأماكنها المشهورة ،
الحصون بالمعرة وضواحيها ، عادات أهل المعرة في الولادة
والزواج والوفاة وغير ذلك ، القرى والمزارع التابعة للمعرة
ومقدار ما في كل منها من النفوس مرتبة على حروف المعجم ،
وبيوت المعرة وأسرها المعروفة في القديم والحديث وأعلامها
المشهورين من علماء وقراء ومحدثين وشعراء وكتّاب وأدباء وأمراء
ووزراء وعمال في الحكومة وتجار وغيرهم .

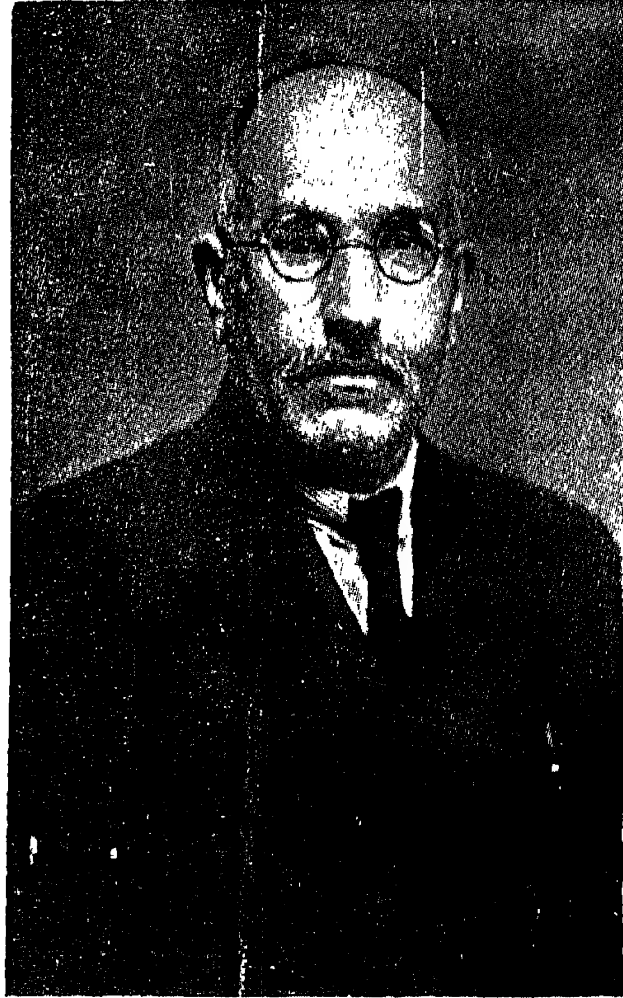
هذا مجمل ما في الكتاب من أبحاث قيمة ، تحتاج إلى جهد
كبير وعمل متواصل لمغرفة مصادرها ، وهي غالباً متفرقة ومشتة
في عدة كتب مختلفة المواضيع والمباحث ، لا يقوى على جمعها
وتنسيقها إلا من أوتي صبر المؤلف وسعة اطلاعه وتضلعه في
العلوم العربية والإسلامية .

اضف الى ذلك حبه العظيم لبلده المعرة واعلامها الأفاضل
وعلى رأسهم أبو العلاء ، كل ذلك ذلل له العقبات الكأداء التي
كانت تعترضه ، ومهد له السبيل لأن يؤلف هذا التاريخ القيم
الذي سيبقى خير شاهد بفضله وسعة علمه ودقة بحثه ، تغمده
الله برحمته وجازاه خير جزاء ، على ما قدم للعرب والاسلام
من خدمات جلى في التعليم والتأليف ، وعوض الله امته رجالاً
يسرون على هديه ويقتفون اثره .

ولا بد لي قبل ان اختتم كلمتي هذه من أن اتقدم بالشكر
للجزيل لوزارة الثقافة والارشاد القومي السورية ، على ما بذلت
من جهد لنشر هذا المؤلف الجليل ، كما أخص بالشكر
الاستاذ عدنان الدرويش أحد موظفيها على مساعدتي بتصحيح
شطر وافر من الجزء الأول من الكتاب ، والدكتور اكرم الخاني
على ما قدمه لي من معلومات واحصاءات ، والسيد عبد العزيز
دقاق وناصر الجندي على ما بذلا من جهد لمساعدتي في مهمتي
وسدد الله خطانا وهدانا سواء السبيل .

دمشق في { ١٣ ربيع الأول ١٣٨٣ هـ
٣ آب ١٩٦٣ م

عمر رضا كحالة



المؤلف

ترجمة المؤلف بهتله

ولدت في معرة النعمان في دارنا ، وهي أول دار تقع شمالي السوق والجامع الكبير ، وذلك في ليلة الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هـ . وكان والدي رحمه الله يتدارس القرآن مع شيخه الشيخ صالح بن رمضان ، وجماعة من رفاقه في غرفة الجامع الكبير ، الملاصقة للمنارة من الشرق ، بعد صلاة التراويح ، فيقرءون جزءاً في كل ليلة من رمضان في كل سنة . وكانت نوبته في القراءة تلك الليلة ، فبينا هو يقرأ قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سَاحِرٌ مِينٌ ^(١)) . دخل عليه ابن عمنا سعد بن أحمد الجندي ، فقال له : ابشرك بغلام ولد لك الآن ، يعني اياي ، فأشار عليه الحاضرون أن يسميني أحمد لهذا الاتفاق ، فقال لهم : إني

(١) سورة الصف الآية ٦ .

قطعت على نفسي عهداً إذا ولد لي غلام أن أسميه باسم أبي ،
والقبه بلقبه ، فسماني محمداً ، ولقبني بسليم كإبيه .

وأما نسي من قبل أبي فأنا محمد سليم بن محمد تقي الدين
ابن محمد سليم الجندي مفتي معرة النعمان ابن محمد الجندي مفتي
معرة النعمان وحمص ، وقد سبق أن نسبنا يتصل بالعباس بن
عبد المطلب عم النبي (ص) .

وأما نسي من قبل أمي فوالدي نظيرة بنت شريف بن محمد
الحجي من بني السيد يوسف . وقد سبق أن نسبه يتصل بالعباس
ابن عبد المطلب أيضاً .

وقد نشأت في حجر والدي حتى بلغت السابعة من العمر
فوضعني عند الشيخ أحمد من بني ادريس المعري ، وكان شيخاً
صالحاً تقياً ، حاكماً قراء ، فعلمني أكثر القرآن الكريم ، وكان
دكانه أول دكان على يسار الداخل إلى السوق من الشمال ، غربي
منارة الجامع الكبير ، ثم خرج الشيخ إلى بعض القرى لمزاولة
أعماله ، فنقاني والدي ، ووضعني عند رجل من التجار يقال له :
الحاج قشوم . . من أهل المعرة ، وكان شيخاً صالحاً ، وتاجراً
تقياً ، فاتممت القرآن عليه .

وفي سنة ١٣١٠ هـ دخلت مكتب الحكومة ، وكان يقال له :
المكتب الرشدي ، ومحلّه مسجد الشيخ عطا ^(١) . وكان فيه
أربعة صفوف ، يجتازها الطالب في أربع سنوات ، وكانت
الدروس في السنوات كلها قليلة سهلة ، وهي كتاب الأمثلة
والبناء في الصرف والعوامل في النحو ، وترجمان فيه كلمات
محدودة من العربية وما يرادفها من اللغة التركية ، وآخر فيه
كلمات عربية ومرادفها من الفارسية ، وكتاب علم الحال ،
ودريكتا باللغة التركية ، ونصيحة حكماء ، وكستان بالفارسية ،
وكنا نحفظ أكثر الألفاظ من غير أن نفقه معانيها ، فتسنى لي
أن أجتاز الصفوف الأربعة في سنتين ، واخذ الشهادة من
المكتب في المحرم سنة ١٣١٢ هـ .

وكان مدير هذا المكتب شيخاً تركياً من ديوريكي من عمل
اطنه ، فأقام في المعرة نحواً من ثلاثين سنة ، واستعرب ، وتزوج
امراًة من غير المعرة ، وولد له بنون وبنات في المعرة ، ثم
فارقها إلى غيرها .

وكان يقرئ الطلاب الذين يتمون الدراسة في المكتب

(١) انظر تاريخ المعرة ١ : ٣٥٢ - ٣٥٤ .

المذكور ، وجماعة غيرهم في المكتب نفسه ، ويعنى هؤلاء بقدر ما كان يتهاون بأولئك ، ولذلك لم يتعلم أكثر المتخرجين به في المكتب غير الخط ، وهو غير جيد أيضاً .

وقد قرأت عليه بعد خروجي من المكتب شرح العوامل والاضمار للبركوي ، وكتاب الرحية في الفرائض ، ورسالة في الربع المجيب .

ثم تفرغت للدراسة في المسجد الكبير في المعرة ، فقرأت على الشيخ صالح بن رمضان بعض دروس من الاجرومية ، ثم قطع القراءة ، وعهد بها إلى ابنه محمد صالح بن الشيخ صالح فقرأت عليه كتاب شرح الغاية للخطيب الشريني في الفقه الشافعي ، وحضرت دروساً في النحو .

وقرأت القرآن والتجويد على الشيخ حسن بن أحمد المطر المعري ، وكان رفيقاً لي في الدراسة ، وقرأت أيضاً على شيخه الشيخ عبده من بني الشحنة المعري ، وكان شيخاً جليلاً فقيهاً فقيراً عفيفاً ، صائم الدهر ناسكاً ، وكان يعلم الصبيان في الزاوية الداودية في المعرة ، وهو أعلم أهل بلده بالقراءة وقتئذ .

وقد أمرني والدي أن استظهر سوراً وآيات معينة من القرآن الكريم ، فاستظهرت طائفة منه مثل سورة الكهف ومريم وطه والسجدة والدخان والواقعة ونوح والذهر وجزء عمّ كله وغير ذلك .

وحفظت متن العوامل والاضمار للبركوي ، والكافية لابن الحاجب ، والفية ابن مالك في النحو ، ومتن إيساغوجي والسلم في المنطق ، ومتن الرحبية في الفرائض ، ومتن الجوهرة والأمال في التوحيد والعقائد ، ومتن الزبد في الفقه الشافعي . وكان شيخنا محمد صالح كآبيه يقرأ الدروس في الجامع الكبير ، وقرأ مرة في المدرسة التي تقدم ذكرها . وكان والدي كلما ظفر بقطعة جيدة من الشعر كتبها ، وحضني على حفظها ، وقد ولعت بشعر أبي العلاء المعري منذ حداثة سني ، وحفظت شيئاً كثيراً ، وكنت في عهد الحداثة والشباب سريع الحفظ ، ما سمعت بيتاً أو بيتين من الشعر الجيد إلا ورسخا في حافظتي . وقد تخرجت بالشعر والأدب واللغة بما درسته وحفظته من شعر أبي العلاء وغيره ، ثم ابتدأت بقرض الشعر في نحو

الثالثة عشرة من سني ، وظللت أنسج على هذا المنوال ، واحتدي على هذا المثال ، إلى أن كتب الله عليّ مفارقة الوطن ، ومن فيه من الأقارب والايخوان والاختدان .

وفي أخريات جمادى الاولى من سنة ١٣١٩ هـ هاجرت مع والدي إلى دِمَشْق ، ووضعت فيها عصيّ الحاضر المتخيم ، وأقمت في دارنا في محلة الشالة في سوق صاروجا^(١) ، فقرأت على جماعة من علمائها الاعلام ، وعاشت طائفة من فضلائها وأدبائها وكتّابها وشعرائها وأعيانها وذوي الظرف فيها .

وقد وجدت الرغبة فيها ضعيفة في الفقه الشافعي ، لأن الفتوى كانت وقئت على مذهب الامام أبي حنيفة ، فكان الناس يرغبون في التفقه على مذهبه ليكون ما يتعلمونه موافقاً لما يحكم به القضاة ويفي به المفتون .

فاتتقلت من تقليد الامام الشافعي إلى تقليد الامام أبي حنيفة وشرعت في التفقه على مذهبه على جهابذة العلم في دمشق . منهم استاذي العلامة الفقيه الشيخ محمد شكري بن راغب

(١) وأصل ذلك محلة الجالق في سويقة صاروجا ولكن العامة حرفنها (ج) .

ابن صالح الاسطواني الدمشقي المولود سنة ١٢٩٠ هـ ، وقد كان أميناً للفتوى في دمشق قبل ذلك الحين ، وبقي فيها إلى سنة ١٣٥٧ هـ ، فجعل وكيلًا للمفتي بعد وفاة المفتي الشيخ عطا الكسم ، ثم عين مفتياً عاماً للجمهورية السورية . وقد قرأت عليه كتاب مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر في الفقه ، وشرح السراجية في الفرائض ، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك في النح و كان يقرأ الدروس في المدرسة الشَّيْخِيَّة بجانب الجامع الأموي من الشمال ، وقد قرأ على جماعة من الأعلام منهم الشيخ محمد بن حسن البطار تلميذ ابن عابدين المتوفى سنة ١٣١٠ هـ ، ومنهم الشيخ محمد المنيني مفتي دمشق المتوفى سنة ١٣١٦ هـ ، وقرأ العلوم الآلية على الشيخ بكري العطار المتوفى سنة ١٣٢١ هـ .

وقرأت على الشيخ عبد القادر بَدْران الدوماني الأصل الدمشقي المنشأ والوفاة ، وقد قرأت عليه كتاب التلويح شرح التوضيح في الأصول لسعد الدين التفتازاني ، وشرح المختصر في علم المعاني والبيان والبديع لسعد الدين أيضاً ، وشرح شيخ

الاسلام على الحزرجية في العروض والقوافي ، وكان يقرأ في
المدرسة السمينسية .

وقرأت على استاذي العلامة الشيخ عطا الله الكسم الدمشقي
مفتي دمشق السابق ذكره ، وقد كان أكثر الناس حفظاً لفروع
المذهب الحنفي . قرأت عليه الدر المختار شرح تنوير الأبصار
في الفقه الحنفي مع أكثر حاشيته ، رد المحتار ، وشرح المرأة
للزيمري في الأصول . وحضرت دروساً كثيرة في النحو والمنطق
كالفناري على إيساغوجي ، وشرح القطب على الشمسية ، وكان
يقرأ في داره في زقاق النارجية في العقبة ، ثم في داره عند
الجامع الأموي ، وأحياناً في الجامع نفسه .

وقرأت على الاستاذ الفاضل الشيخ حسين ابن الشاش
الدمشقي ، وكان مكيناً في العلوم الآلية ، قرأت عليه رسالة
السمرقندي في البيان ، وإيساغوجي في المنطق ، وكان يقرأ في
مدرسة نور الدين الشهيد في غرفة مختصة به .

وقرأت على استاذي العلامة المحقق شيخ المحدثين في عصره
الشيخ بدر الدين الحسني الجزائري الاصل الدمشقي المولد

والمنشأ والوفاة ، حضرت عليه قسماً كبيراً من كتاب التحبير
والتقرير لابن امير الحاج شرح التحرير لابن الهمام في الاصول ،
وجميع شرح جلال الدين المحلي على جمع الجوامع للسبكي
في الاصول ، وكتاب المسامرة لابن ابي شريف شرح المسامرة
لابن الهمام في التوحيد ، وشرح السنوسية الكبرى في التوحيد
ومعظم العقائد النسفية ، والتدريب شرح التقريب للسيوطي
في مصطلح الحديث ، وشرح المقولات العشر ، ورسالة في آداب
البحث ، وشرح العصام على رسالة العضد في الوضع ، وكان
يقراً الدروس في مدرسة دار الحديث في دمشق في الغرفة
الملاصقة للإيوان من الجهة الشرقية في الطبقة الثانية .

وقرأت شيئاً من شرح المنار على الشيخ بهاء الدين الافغاني
وكان بعض رفاقي في الطلب يشاركني أولاً في مطالعة الدروس
واعادها قبل قراءتها على الاستاذ ، ثم رغب فريق منهم أن
يعيد قراءتها عليّ بعد الدرس ، فلييت طلبه ، ثم طلب فريق
آخر أن أقرأ عليهم الدرس قبل حضور درس الاستاذ ،
فأسعفت طلبه ، ثم كلفني فريق من الطلبة أن أقرئهم دروساً
في الصرف والنحو والمنطق ففعلت .

فلما اعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ كلف طلاب العلم الذين كانوا يعفون من الخدمة العسكرية لأجل العلم ، أن يؤدوا فحصاً في النحو والمنطق حسب النظام العسكري ، فاضطرني جماعة منهم إلى أن أقرئهم شرح الفناري على إيساغوجي ، والقطب على الشمسية في المنطق ، والكافية في النحو ، فكنت ابتدئ في الدروس في داري المذكورة قبلاً ، منذ طلوع الشمس إلى الظهر ، ومن بعد صلاة العصر إلى قرب نصف الليل . ثم طلب جماعة أن يقرأوا علوم البيان فلبيتهم ، وظللت على هذه الحال إلى اليوم الثاني من صفر سنة ١٣٣٢ هـ ، فتوفي والدي رحمه الله ، وترك ثلاثة بنين وخمس بنات ، فاشتغلت بأمورهم ، وتعهد ما خلف لي ولهم من عقار ، وأصابني علة الديزانتري مدة أشهر ، ثم اعلنت الحرب العامة في تلك السنة فأنصرفت عن التعلم والتعليم إلى مدافعة المصائب ، وتبئية ما فرضته الحكومة من المظالم والضرائب ، بأسماء مختلفة ، ما بين بدل عسكرية ، واعانة للأسطول ، واعانة لجمعية الهلال ، واعانة لغزة ، وضريبة جبرية باسم اعانة اختيارية ، واعاشة ، وما شاكل

ذلك من ضروب المظالم . واستولت على أكثر عقارنا فشغلته
بغير أجر ولا شكر ، وهدمت بعضاً منه لتوسيع الطرق ،
وعبثت بالأسعار حتى كاد أكثر الناس يموت جوعاً ، إلا من
عرف كيف يرضي الحكام والقواد .

وظلمت أكابد هذه المشاق حتى وضعت الحرب أوزارها ، بعد
أن استولى جيش الانكليز والعرب على دمشق في أيلول سنة ١٩١٨م ،
وألغوا حكومة عسكرية يرأسها حاكم عسكري ، وقدولي ذلك رضا
باشا الركابي الدمشقي ، وكان الأمير فيصل يشرف على أعمال الحكومة
فألف الحاكم العسكري ديواناً الرسائل فدعيت إليه ، ووظفت
منشئاً أول فيه براتب قدره اثنا عشر ديناراً ذهباً ، ثم بعد
بضعة أشهر جعل الحاكم دمشق ولاية ، وحلب ولاية ، فوظفت
ميراً في ديوان الرسائل في الولاية براتب خمسة عشر ديناراً ،
ثم ان فيصلاً الغى تشكيل الولاية وألف مجلس مديرين ،
وجعل مديراً للداخلية ، وآخر للمالية ، وللعدية ، وللحرية .
وكان أخوه زيد يرأس هذا المجلس ، وجعل رجلاً يقال له :
رشيد طليع مديراً للداخلية ، فوظفت منشئاً أول فيها ، ثم

مميزاً بعد أن احدثت هذه الوظيفة ، وكان فوزي الغزي مديراً لديوان الرسائل ، ثم لما بويح فيصل وصار ملكاً على دولة سورية ألف مجلس وزراء ، وجعل رضا الصلح وزيراً للداخلية وبقي فوزي الغزي مديراً للرسائل ، وبقيت مميزاً في ديوانها . فلما استولى الفرنسيون على دولة سورية تغيرت الوزراء ، ثم جعل حاكم لدمشق يرأس الوزراء ، وجعل عطا الايوبي وزيراً للداخلية ، وبقيت في وظيفتي ، فلما نعموا على فوزي الغزي جعلوه قائم مقام في تدمر ، فاستقال منها ، فعهد إلي بالوكالة عن مدير الرسائل فوق وظيفتي ، ولكن الفرنسيين غيروا اسمها مراراً ، فتارة كان اسمها مميزاً ، وثانية رئيساً لكتاب الديوان ، وثالثة معاوناً لرئيس الكتاب . .

ثم ألغيت وزارة الداخلية لاجراج الوزير منها ، لأن الحاكم كان غير راض عنه ، وبعض موظفيها ، فالحقوا بديوان الحاكم ، وكان هذا الديوان يتألف من قسمين عربي وفرنسي ، ويسمى قسم الترجمة ، فجعلت رئيساً لكتاب القسم العربي إلى اليوم السابع من شباط سنة ١٩٢٤ م .

ثم جعلت استاذاً للأدب العربي في مدرسة تجهيز الذكور في دمشق ، وبقيت إلى سنة ١٩٤٠ م ، فأحلت على التقاعد بلوغي سن الستين ، ولكن مدير المعارف اتخذ قراراً بتمديد مدتي سنة تنتهي في آخر ايلول سنة ١٩٤٠ م ، ولما انتهت هذه المدة رغب إليّ أن أقبل بتمديدها سنة أخرى ، فاعتذرت له بضعف جسمي ، وانصراف نفسي عن مزاولة كل عمل إلى التماس الراحة من البطالة .

وفي ١٦ ايلول سنة ١٩٢٢ م انتخبت عضواً في الجمع العلمي العربي في دمشق .

وفي خلال أيامي السابقة ، وظفت استاذاً للأدب في مدرسة اللايك سنوات عديدة ، وفي مدرسة جمعية العلماء مدة سنتين . ووظفت استاذاً للدروس العربية في كلية الآداب التي أحدثتها الحكومة في دمشق سنة ١٩٣٠ م إلى أن أغلقتها ، وكنت أقرا فيها دروس القواعد العربية والبلاغة والخطابة خمس ساعات في كل أسبوع ، وكان بعض الطلاب يقرأ عليّ دروساً خاصة في داري .

ثم عينت ناظراً للكلية الشرعية في دمشق سنة ١٩٤٢ م ،
ثم مديراً للكلية من سنة ١٩٤٤ م ، ثم استقلت منها طلباً
للراحة سنة ١٩٤٨ م .

و كنت في جميع هذه الأطوار التي قطعتها في حياتي شديد
التواضع ، لين الجانب ، انهج المنهج الذي سلكه معاوية (ض)
لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها ، وربما زدت عليه
حتى لو كان بيني وبين الناس شق شعرة ما قطعتها ، وكنت
شديد الخشية من الله ، مواظباً على الفرائض والواجبات الدينية
شديد الغيرة على مصلحة الاسلام والعرب ، وكل وطن اسلامي .
ولم أقترف شيئاً من المنكرات في جميع حياتي ، الا اللعب
بالنرد ، وشرب الدخان ، وكنت ولم أزل أقنع باليسير ، وأشكر
على القليل والكثير . وأرضى من الوفاء باللقاء ، ولم ابذل ماء
وجهي قط لأحد ، لأنني أقابل الحسنة بمثلها ان عجزت عن
ضعفها ، واحتمل السيئة وأغضي عن الهفوة ما وجدت إلى
ذلك سبيلاً .

ولا أعرف لأحد علي فضلاً إلا قابله بمثله ، لأن الله

جل جلاله لم يحوجني إلى غيره في شيء ، ما خلا أساتذتي الذين تقدم ذكرهم ، فانهم علموني وهذبوني وأرشدوني لوجه الله ، من غير أن ينالوا مني أجراً ولا جزاء ، فجزاهم الله عني أحسن ما جازى به محسناً عن احسانه ، وقد احتذيت على مثالهم ، فعلمت مثات من الناس ، ولم أنل منهم أجراً قط ، ولا أذكر أنني أخذت أجراً من رجل على تعليمه قط ، الا واحداً ألح علي كثيراً ، وألحت علي الحاجة وقتئذ ، فأثرت أخذ الأجر منه ، على اذلال نفسي في الاستدانة من أحد ، وكذلك لم أخذ قط صلة ولا جائزة على شعري .

وفي اليوم الثاني والعشرين من المحرم سنة ١٣٦٠ هـ الموافق ١٨ شباط سنة ١٩٤١ م منحتني الحكومة السورية وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الثانية ، تقديرًا للجهد الذي بذلته طوال ثلاثين عاماً في تعليم اللغة العربية وغيرها من العلوم العربية .

وأما آثاري من النظم والنثر فقد ولعت في فاتحة حياتي ولعاً شديداً بالشعر قرضاً ونظماً ، ثم بعد أن هاجرت إلى دِمَشْق نظمت بعض قصائد في موضوعات مختلفة ، فصادفت

قبولاً من بعض الادباء وغيرهم ، فأفضى ذلك إلى أن يكثر
الناس طلب توار يخ مني ، لينقشوها على حجارة القبور
لموتاهم ، حتى مللت من ذلك ، وسئمت قول الشعر ،
فأمسكت عنه منذ بلغت خمسة وعشرين عاماً ، ودافعت
الناس فلم يندفعوا ، ولا أزال ازهد في قوله إلى هذا اليوم ،
ولا انظمه الا تكلفاً .

وكننت حين قرأت العروض والقوافي نظمت رسالة فيهما
فجماعت مطولة ، وقد بلغت مائتين وخمسين بيتاً فاستكثرتها ،
ورأيت اختصارها يحتاج إلى وقت طويل لا أجده في أيامي
الغابرة فزقتها وأحرقتها .

وأما النثر فقد استطعت على كثرة أعمالي ، وقلة أعواني
وضيق أوقاتي ، أن أضع بعض الكتب والرسائل ، وأنشئ
بعض مقالات في مواضيع مختلفة .

منها : المنهل الصافي في العروض والقوافي ، وقد جمعت
في هذا الكتاب من مسائل هذا العلم ما لم يجتمع في غيره ،
ورتبته مسائله ترتيباً محكماً ، حتى جعلته كالسلسلة المتصلة

الحلقات ، أخذاً بعضها برقاب بعض ، وأوضحته غاية الإيضاح
وأكثر فيه من الشواهد ، ليتسنى لكل واحد فيهم مسأله
بأساوب تمواه النفوس ، وتموى إليه القاوب ، وقد تم تأليفه
وانتهى ، وقد أعدده للطبع ان شاء الله تعالى .

ومنها : كتاب في النحو سميته مرفد المعلم ومرشد المتعلم ،
وهو كتاب جامع لاكثر ما تشتت من مسائل هذا العلم ،
وقد حرصت فيه على جمع الاشباه والنظائر ، وادخال كل
مسألة في بابها ، ورتبته على أساوب يسهل معه الرجوع إلى
ما يريده الباحث من مسأله ، ولم يتم بعد .

ومنها : رسالة في احكام ما . ومن ، وقد استوفيت كل
ما يتعلق بهما من الأقسام والأحكام ، وهي من الدروس التي
قرأتها في كلية الآداب .

ومنها : رسالة في الكرم جمعت فيها كل ما يتعلق بالكرم
من حين يكون عوداً ثم يغرس ، إلى أن يثمر وينضج ، ويتخذ
طعاماً أو شرباً ، وذكرت ما لكل جزء من أسماء في كل
طور وما يعرض له ، ورتبته على ترتيب الكرم الطبيعي ،

امريء القيس ، وطائفة من أخباره ودراسة لأدبه ، وقد تم هذا ، وطبع في دمشق سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٢٦ م .

ومنها : جزء يحتوي على طائفة من أخبار عبد الله بن المقفّع ، وجملة من كلامه ، ودرس لأدبه ، وقد تم وطبع في دمشق سنة ١٣٥٥ هـ .

ومنها : جزء يحتوي على ترجمة النابغة الذبياني ، وشرح ديوانه كله شرحاً وافياً ودراسة شعره ، وجملة من أخباره ، وقد تم واتتهى ، وطبع الجزء الاول المشتمل على ترجمته وأخباره ودراسة شعره في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ .

ومنها : جزء آخر يحتوي على ترجمة أبي العلاء المعري ، وأخباره ، ودراسة أشعاره ، وهو لم يطبع ، وهو أجمع كتاب لأخبار أبي العلاء ودراسة أدبه ، وفيه تحقيق كثير لما كتب فيه ، أو نسب إليه ، وتصحيح لكثير مما وقع فيه العلماء من الخطأ والأخبار^(١) .

(١) نشره المجمع العلمي العربي بدمشق بعنوان الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره ، بتحقيق الأستاذ عبد الهادي هاشم في ثلاثة أجزاء ، وقد صدر منه الجزء الأول والثاني .

ليسهل الرجوع إليه ، وقد يجد الباحث فيها ما لا يجده في غيرها ، وقد تمت وطبعت في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ^(١) .

ومنها : عدة الأديب ، وهي ثلاثة أجزاء صغيرة ، جمعت فيها طائفة من كلام البلغاء والحكماء والعلماء والشعراء ، وشرحتها شرحاً وافياً ، ووضعتها للصف الاول والثاني والثالث من طلاب المدرسة التجهيزية لكل صف جزء ، وقد شاركني في تأليفها الشيخ محمد الداودي الدمشقي المتوفى نحو سنة ١٣٤٧ هـ ، وقد طبعت في دمشق سنة ١٣٤٥ هـ .

ومنها : عمدة الاديب ، وهي كتب متعددة جمعت في كل واحد منها ما يتعلق بكاتب واحد ، أو شاعر واحد ، من أخباره وأشعاره ودراسة أدبه ، وقد تم بعضها .

منها : جزء يحتوي على شرح جملة من شعر

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ٩ : ٢٨٠ - ٢٨٨ ، ١٠ : ٢٤٤ - ٢٤٩ ،

٤٦٦ - ٤٧٤ ، ٥٦٢ - ٥٦٦ ، ٦٢١ - ٦٢٦ ، ٦٩٧ - ٧٠١ ،

٧٦٢ - ٧٦٥ .

ومنها : جزء يحتوي على ترجمة علي بن أبي طالب (ض)
وطرف من أخباره ، وطرف من آثاره ودراسة أدبه ، وقد
طبع في دمشق سنة ١٣٦٠ هـ .

ومنها : شرح وتحقيق رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري ،
وتفسير الشواهد فيها ، وبيان قائلها ، وتراجمهم ، وقد طبعت
في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ .

ومنها : رسالة في الطرق ، وهذا الغرض لم أر فيه لأحد
من المتقدمين كتاباً ولا رسالة ، وقد سألت كثيراً من أوعية
العلم ، هل رأى أحد منهم شيئاً من هذا القليل ؟ فقالوا : لا ،
وقد ذكرت فيها أسماء الطرق وأقسامها وأنواعها ، في السهل
والجبل والأودية والموارد وغيرها . وذكرت طرق الماء والرياح
وغيرهما . وقد طبعت معظمها في مجلة المجمع العلمي العربي في
دمشق (١) .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٨ : ٤١١ - ٤١٦ ، ٥١١ - ٥١٩ ،

١٩ : ٢٣٨ - ٢٤٤ ، ٣٣٢ - ٣٣٨ ، ٥٣٢ - ٥٣٧ ، ٢٠ : ٣٣

- ٤٠ ، ١٢٨ - ١٣٧ ، ٢١٤ - ٢٢٣ ، ٣٣١ - ٣٣٥ .

ومنها : رسالة في الاودية ومسائل المياه جعلتها ملحقة برسالة الطرق تكميماً للفائدة .

ومنها : رسالة في المعلمين ، وهي على وشك الانتهاء ، وقد اشتملت على كثير من أخبار المعلمين ونواديرهم ومزاياهم المحمودة والمذمومة ، وعلى منزلتهم عند الخلفاء والامراء والاعيان والناس وربما كانت اجمع رسالة في هذا الموضوع .

وألفت كتباً أخرى في مباحث لغوية وغيرها ، منها : اصلاح الفاسد من لغة الجرائد ، وقد كنت انتقدت كتاب لغة الجرائد الذي وضعه ابراهيم اليازجي ، وينت طائفة من خطئة ، فانتصر له قسطنطين الخنسي الحلبي ، وكتب أربع مقالات نشرها في مجلة فيمنا في بيروت ، وقد خبط فيها خبط عشواء ، فبينت ما ارتكبه من الغلط ، وأيدت قولي بالنقول الصحيحة ، والحجج الدامغة ، ونشرت ذلك في جريدة الفيحاء في دمشق ، ثم جعلته كتاباً مستقلاً وسميته اصلاح الفاسد من لغة الجرائد ، وقد طبعته في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ .

ومنها : رسالة الاطعمة والاشربة في بلاد الشام وهي لم تطبع بعد .

ومنها : رسالة العادات في بلاد الشام ، وهي لم تطبع بعد .
ومنها : رسالة الامثال العامة في بلاد الشام ، وهي لم تطبع بعد .
وأما المقالات فقد نشرت في المجلات والصحف مقالات
متعددة .

منها : مقالات نشرت في مجلة الرابطة الأدبية ، التي انشأتها
جمعية الرابطة الادبية في دمشق ، ثم الغتها الحكومة سنة ١٩٢٣ م
وقد كنت أحد مؤسسي الجمعية والمجلة والمقائمين بأمورهما ، وهذه
المقالات منها ما هو تحت عنوان تهذيب الالفاظ ، وهي تبين الالفاظ
العامة والدخيلة والمحرفة عن الالفاظ الفصحى ، وما يقابل
ذلك من الفصيح ، ومنها : ما هو رد على من انتقد شيئاً بما
كتب في هذه المجلة ، لأنني توليت الرد والدفاع عن المجلة .
ومنها : مقالات نشرت في مجلة العرفان التي تصدر في
صيدا ، وهي تشتمل على أسماء لغوية للصناع والصناعات عند
العرب وغيرها .

ومنها : مقالة نشرت في مجلة الهلال التي تصدر في مصر ،
وهي تتضمن القول في نثر أبي العلاء وتبين أنه مجدد في نثره .

ومنها : مقالات نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق غير رسالة الكرم .

منها : مقالة في اخوان الصفا^(١) ، ومقالة في المزدكية^(٢) ، وتقريظ ديوان السيد جميل الزهاوي الخبائدي^(٣) ، وتقريظ ديوان بدوي الجبل محمد سليمان الأحمد^(٤) ، وتقريظ ديوان خير الدين الزركلي^(٥) ، ومقالة في انعاش اللغة العربية^(٦) ، ومقالة في نقد كتاب تاريخ الادب العربي لاحمد حس الزيات تحت عنوان كتب الادب القديمة والحديثة^(٧) ، ومنها : مقالة في نقد كتاب زهر الآداب الذي طبعه الدكتور زكي مبارك^(٨) .

(١) وعنوانها أبو العلاء واخوان الصفاء ١٦ : ٣٤٦ - ٣٥١ (ج) .

(٢) وعنوانها أبو العلاء والمزدكية ١٦ : ٤٨٩ - ٤٩٧ (ج) .

(٣) وعنوانه ديوان الزهاوي ٥ : ١١٧ - ١٢١ (ج) .

(٤) وعنوانه ديوان بدوي الجبل ٥ : ٢٠١ - ٢٠٣ (ج) .

(٥) وعنوان ديوان خير الدين الزركلي ٥ : ٥٠٥ - ٥٠٦ (ج) .

(٦) وعنوانها انعاش العربية ٥ : ٣٩٧ - ٤٠١ (ج) .

(٧) ١١ : ٥٢٨ - ٥٣٨ (ج) .

(٨) وعنوانها كتب الادب القديمة والحديثة ١٢ : ٢٥٧ - ٢٦٩ ، ٤٠٣ .

- ٣١٥ ، ٦٨٢ - ٧٨٩ (ج) .

ومنها : مقالة في تخطيط المحفوظات المختارة ، والموجز في علم المنطق ^(١) .

ومنها : مقالة عنوانها ثقافة المتنبّي ومصادرهما ^(٢) ، أقيمت مختصرة في حفلة مهرجان المتنبّي التي أقيمت في مقر الجامعة السورية في ٢٩ تموز سنة ١٩٣٦ م .

ومنها : مقالة في التعريف برسالة الملائكة لأبي العلاء المعري التي ظفر بها المجمع العلمي العربي في دمشق ، ثم طبعها ، وهذه المقالة نشرت في مجلة المجمع المذكور ^(٣) ، وقد وضعت للرسالة المذكورة مقدمة ضافية تتعلق بهذا الموضوع ، وقد نشرت في مقدمة الرسالة المطبوعة سنة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م .

وقد وضعت مقدمة لكتاب أوج التحري عن حيشة أبي العلاء المعري تأليف يوسف البديعي ، الذي صححه السيد ابراهيم الكيلاني ، وطبعه المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٤ م ، ونشرت هذه المقدمة في اول الكتاب .

(١) ١٢ : ٣٧٩ - ٣٨٢ (ج) .

(٢) ١٤ : ٤٠٢ - ٤٢٦ (ج) .

(٣) ١٩ : ١٢٢ - ١٣١ (ج) .

ومنها كلمة عنوانها دين أبي العلاء ، وقد أقيمت هذه الكلمة في الجامعة السورية ، في حفلة المهرجان الألفي التي أقيمت لأبي العلاء ، وتليت في الساعة السادسة والنصف تقريباً من يوم الأحد الأول من تشرين الأول سنة ١٩٤٤ م ، وقد نشرت في الكتاب الذي طبعه المجمع العلمي العربي في دمشق ، وسماه المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري سنة ١٣٦٤ هـ وسنة ١٩٤٥ م^(١). ومنها : مقالات نشرت في مجلة دمشق التي أصدرتها المفوضية العليا الفرنسية في دمشق سنة ١٩٤٠ م ، وهي تبين الخطأ في مناهج دراسة الأدب العربي ، وتبحث في غيره . ومقالات أخرى نشرت فيها تحت عنوان (من دراسة في تاريخ الأدب العربي) و (دراسة في تاريخ الأدب العربي) ومنها : مقالات نشرت في جريدة المقتبس في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٤ م .

وهذه منها نوع يثبت فيه ما في كتاب قاموس الاعلام من الخطأ الواضح ، وهذا القاموس وضعه حلیم دموس من إبداء

(١) ص ٢٨٠ - ٢٩٢ (ج)

لبنان وشعرائها ، حين كان عضواً في جمعية الرابطة الادبية ، ذكر فيه الالفاظ التي تستعملها العامة خطأ ، وذكر بما ينوب عنها من الفصيح ، فكان خطؤه فيه أكثر من صوابه ، وكانت العامة في استعمالها أقرب منه إلى الصواب ، وبعد أن نشرت نحو تسع مقالات تحوي على مئات من غلطه وخطائه ، رغب إلي بعض أعضاء الرابطة الادبية أن أمسك عن الكلام في ذلك ، فنزلت عند رغبته وامسكت .

ومنها : مقالات نشرت في المقتبس فيها بيان لخطأ بعض الادباء ، الذي طلب إلى علماء اللغة أن يتساحوا في استعمال الدخيل والعامي .

ومنها : مقالات نشرت في جريدة الفيحاء الدمشقية في مواضع شتى ، منها : بيان ما في كتاب تذكرة الكاتب لمؤلفه داغر^(١) من الخطأ والغلط اللغوي .

ومنها : مقالات نشرت في مجلة الاوقاف الاسلامية التي انشئت في دمشق سنة ١٣٦٤ هجرية .

ومقالات نشرت في مجلة التمدن الاسلامي ، منها : أثر الاسلام والقرآن في اللغة ، ومنها : الادب الجاهلي .

(١) أسعد بن خليل داغر .

وهناك كثير من المقالات التي نشرت في مجلة الحديث التي تصدر في حلب ، وفي مجلة الاديب التي تصدر في بيروت . وقد وضعت رسائل متعددة تشتمل على دراسة جماعة من أعلام الادباء والشعراء ، كجرير ، والفرزدق ، والاخلط ، وعمر بن أبي ربيعة ، وزهير ، والاعشى ، والحطيئة ، والخنساء وحسان ، وأبي تمام ، والبحري ، وأبي نواس . وشرحت كثيراً من قصائدهم ، لاسيما جرير ، والاخلط ، وأبي نواس ، وأبي تمام ، وقد حال بيني وبين انجاز ذلك كثرة أعمالي على قلة اعواني ، واعتلال صحي ، فنسأل الله المعونة والتوفيق .

(وقد توفي المؤلف رحمه الله بدمشق في الساعة العاشرة والنصف قبل ظهر يوم الاثنين الواقع في ٧ ربيع الاول ١٣٧٥ هـ الموافق لـ ٢٤ تشرين الاول ١٩٥٥ م ودفن بمقبرة الدحداح).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد فاني بعد أن أنهيت الدراسة في مدرسة الحكومة الرشدية في المعرة نحو سنة ١٣١٢ هـ ، انصرفت نفسي إلى دراسة العلوم الشرعية واللسانية والعقلية على ندرتها في المعرة في ذلك العهد .

وكان والدي تغمده الله برحمته مغرياً^(١) بشعر أبي العلاء وآثاره ، حريصاً على أن أطلع عليها وأحفظ منها ما يقع الي ، فكان إذا ظفر بشيء منه أمرني بحفظه ، وكنت كلما اطلعت على شيء جديد من كلامه ازددت رغبة في الاطلاع على غيره لأن آثاره كانت أندر من الكبريت الأحمر ، وأعز من بيض الأنوق^(٢) ، وقد أتيح لي في سن الحداثة وعهد الدراسة والتعليم ،

(١) غري بالشيء : أولع به .

(٢) الأنوق كصبور : العقاب من جوارح الطير ، وفي المثل : أعز من بيض الأنوق : لأنها تحرزه في أوكارها في القلل الصعبة فلا يكاد يظفر به .

أن أطلع على تراجم رجال من أعيان المعرة وأعلامها ، وأقف على الجيد والنفيس من أقوالهم وآثارهم ، فنزعت نفسي الى الوقوف على معرفة أبي العلاء ونسبه وبلده ومذاهبه في الأدب والفلسفة . وطمحت الى معرفة طائفة من رجال المعرة ، لأنني رأيت فيهم القارئ المجود ، والمفسر المحقق ، والمحدث المؤثق ، والفقيه النحرير ، والكاتب المبدع ، والشاعر المفلق ، والمتفن المخترع ، والصوفي الزاهد ، ولا تكاد تجد طائفة من علماء في علم إلا وجدت في رجالها أناساً من المتقدمين في ذلك العلم ، وكذلك رأيت فيهم القاضي المثبت ، والمفتي المتحري والمعدود من رجال الدهر ، ومن المنجذنين^(١) في السياسة وولاية الأمر ، وما عرفت رجلاً في القديم والحديث نال الإمارة بشعره إلا رجلاً من المعرة .

ونظرت إلى ما وصلت اليه المعرة في العصور الماضية ، من سعة العمران ، وازدهار الحضارة ، وزخور العلم ، وكثرة العلماء والشعراء والمؤلفين ، وإلى ما انتهت إليه في عهد الحكومة التركية من الخراب والانحطاط ، وتفشي الجهالة وندرة النابيين ، من العلماء والنابيين من الشعراء ، فرأيت البون شاسعاً بين العهدين .

(١) المنجذ كمنظم : المجرب والذي أصابته البلايا .

لأن المعرفة في القرن الرابع والخامس والسادس ، على حسب ما رأيت ، كانت تعج بالقراء والمفسرين والمحدثين واللغويين والمؤرخين والشعراء والمؤلفين في علوم مختلفة .

وفي الزمن الذي تركت فيه المعرفة ، وفيما قبله وبعده ، إلى أن جلت عنها الأتراك ، كانت خالية من عالم حقيقي ، أو كاتب صحيح العبارة ، أو شاعر يحسن نظم قصيدة سالمة من اللحن والخلل في الوزن .

وحسبك دليلاً على ما ذكرت أن أبا العلاء درس ثقافته الواسعة على جماعة من أهل بلده ، ولم يصح أنه قرأ على أحد من غير أهل بلده ، ولا حدثته نفسه باجتماع علم في غير بلده ، وأن ثمانين شاعراً أو أكثر وقفوا على قبره يوم وفاته ، ولم يحدثنا التاريخ أن أحداً منهم كان غريباً عن المعرفة .

وان الناس في نحو سنة ١٣١٩ هـ كانوا إذا أرادوا أن يمدحوا رجلاً ويصفوه بالفضل ، قالوا : إنه كاتب قارئ ، وإذا أرادوا أن يبالغوا في الثناء عليه قالوا : كاتب قارئ ، تركي عربي ، وملأوا أشداقهم بهذه الكلمات لتدل على عظم الممدوح ، وعظم

ما مدح به ، وقد رأيت في المعرة مئآت من رسائل الأحياء
والأموات ، من رجال القرن العاشر إلى زمن هجرتي ، ومئات
من الفتاوى والحجج والصكوك التي تصدر عن المحاكم وغيرها ،
وكثيراً من النظم والنثر ، ولا أذكر أنني رأيت شيئاً منها سالماً
من الخطأ واللحن إلا في النادر .

وليست هذه البلية مختصة بالمعرة والمعرين ، بل كانت
أمهات المدن السورية ، بل الأمة السورية كلها على هذه الشاكلة
في تلك العصور .

فاني رأيت كثيراً من القصائد والخطب ، والرسائل الأخوية ،
وفتاوى المفتين وحجج القضاة وأحكامهم وصكوك المحاكم وغيرها ،
وبعض الرسائل والكتب لعلماء دمشق وغيرهم ، وكلها طافحة
بالخطأ واللحن في صيغ الألفاظ وإعرابها ، ولا أكون مغالياً
إذا قلت : إن أكثر البلاد السورية في هذا العصر لم تتغير حالتها
بتغير الزمن .

ومن نظر نظرة إنصاف إلى فتاوى المفتين في هذا العصر ،
وإلى الحجج والأحكام التي تصدر عن المحاكم الشرعية والمدنية ،

وإلى الصكوك التي ينظمها كتاب العدل ، والاتفاقيات التي يكتبها المحامون ، والمقررات التي تصدر عن المجالس النيابية ، والقوانين التي تسنها الحكومة . والمراسيم التي تصدر عن رؤسائها ، والأوامر التي تصدر عن الوزراء وغيرهم ، يجد فيها غرائب من اللحن وفساد التركيب .

وإن كنا لا ننكر أنها أحسن حالاً مما كانت عليه ، قبل نصف قرن فأكثر ، وهذا يدلنا على أمور : الأول أن الحكومة التركية كانت في عهدها الأخير جاهلة بسياسة الشعوب المنضوية تحت رايها ، غافلة عما يجب عليها ، غارقة في سباتها العميق . وأدل شيء على ذلك أنها كانت تشتغل في إخماد الفتن في مكان ، وإثارة الفتن في مكان آخر ، لتتخذ ذلك وسيلة لتوطيد قدمها في بعض الأمصار ، وفرض سيطرتها على بعض الشعوب ، وأنها كانت تجعل الولايات لقاء مال معين ، وأنها ترخي العنان لبعض عمالها ، حتى يمتص أموال الأمة التي يولى عليها ، ثم نستصفي أمواله ، فكان العمال جباة للوزراء والملوك ، وهذه المجموعة تنعم من شقاء الأمة ، وكان هذا وأمثاله هو الشغل الشاغل لرجال الدولة وقصور الخلفاء ، وبينما هم منغمسون في

هذه الحآت . جادون في الحيلولة بين الشعوب والعلم ، بل بين أنفسهم والعلم ، طلعت عليهم أوربة بالقوى والأعتدة التي لم تكن في حسابهم ، ما بين بنادق ومدافع ، وهددتهم بالدبابات والمصفحات ، وغيرها من الأدوات التي تفتك على وجه الأرض ، وبالمدرعات والغواصات في جوف البحر وعلى وجهه ، وبالطائرات في أجواء الفضاء ، ولا تزال تطلع عليهم في كل يوم جديد ، بنوع جديد من الأسلحة التي تبيد الإنسان ، وتقوض العمران ، وهم يحدون ويدأبون ، ليدركوا شيئاً واحداً فيفوتهم أشياء .

وان أمة هذا شأنها بالنسبة إلى مصلحتها ، لا يرجى منها لغيرها إلا التدمير والتأخير ، وقد فعلت ، وكان من حماقتها في السياسة أنها كانت تعمل على إبقاء الشعوب التي تحت سيطرتها منغمسة في حماة الجهل . لأن إذلالها وهي جاهلة أيسر منه وهي عالمة ، وقد فاتها ان الشعب الجاهل الذي تحكمه ، يسهل على أعدائك صرفه عنك وجذبه اليهم .

وان دول أوربة فتحت مدارس مختلفة في العواصم والأمصار والقرى ، وقضت على الأمية ، ونبغ فيها مخترعون في كل فن ،

والدولة العثمانية لم تحدث مدرسة ابتدائية في المتصرفيات والأقضية ،
إلا في العهد الأخير .

وان المدارس الرشدية والابتدائية ، التي أنشأتها في الأقضية ،
لا يستفيد منها أحد إلا الموظفون في العمل فيها ، فانهم يتناولون
المرتب الشهري ، والاطفال لا يتعلمون إلا الشيء اليسير ،
وهو تعلم الخط والاعمال الاربعة من الحساب .

وكانت الحكومة التركية ترضى على العرب عامة والسوريين
خاصة ، فلا تفتح لهم مدرسة ثانوية ولا عالية ، ولا ترشدهم
الى شيء من هذا .

ولولا أن ترى المدارس الاجنبية التبشيرية ، قد انتشرت
في مصر ولبنان ، لما فتحت كتاباً في بلد عربي ، وخلاصة
ما يتحصل للمستقري الباحث عن أحوالها في تلك العصور ،
انها كانت عاجزة عن إدارة نفسها ، وعن حماية بيضتها والذود
عن حياضها .

الامر الثاني ان الامة السورية كانت في ذلك العهد ، مؤلفة
من أخلاط ، وعناصر مختلفة ، وقد كانت الكلمة المطاعة فيها

للأعاجم والمستعجمين ، وقد دهمتها فواجع وغشيتها غواش من
من الخمول والخنوع ، فأنحلت كل أصرة تربط الفرد بالفرد ،
والجماعة بالجماعة ، فكانت جمهرة الحكام والعمال والمتغلبين
من الغرباء ، وكانت لهم الكلمة النافذة والسيطرة القاهرة ،
وهؤلاء لا يهمهم إلا أن يعيشوا عيشة راضية ، وأن يشبعوا
نهماتهم ، ولا يبالي الواحد منهم بعد ذلك أصبحت البلاد
عامرة ، أم غامرة ، ولا يضيره أكان الشعب في نعيم أو بؤس ،
أو في جهالة أو علم ، بل يسره أن يكون الشعب كالأنعام ،
يسخره في منفعه ، ويصرفه في سبيل ملاذه ، وإذا قلب الدهر
له ظهر المحن ترك البلاد في شقائها ، وفر إلى بلاده أو بلاد غيرها .
فكان السوري الحقيقي المستضعف ، يسعى جهده لإرضاء
المتغلب ليدفع عنه شره ، أو يقلل من أذاه ، ويعمل ليلاً
ونهاراً ، لينذل له ما يرضيه من الأموال ، ويعد نفسه موقفاً
إذا استطاع أن يرضيه بكل ماله .

ولا يزال السوري على هذه الوتيرة إلى يومنا هذا ، يسوده
الغريب ، ويتولى أمره الاجنبي ، فيحلب دره ، ويمتري خيره ،
ويسخره في مصالحه ، ويمتهنه في عقر داره ، وهو أطوع له

من بنائه ، وأتبع من ظله ، وربما كان عوناً للغريب على أخيه وعيناً له .

ففقّد السوري بسبب ذلك كل مقوماته ومميزاته من غيره ، وأصبح لا يعد في العير ولا في النفير ، فليس له كيان يستقر عليه ، ولا لون يثبت عليه ، وإنما هو كالماء يتلون بلون ما يجاوره أو يخالطه ، وقد يش من خير الحياة كلها ، فأصبح أكبر همه أن يعيش مستوراً أو يموت مستوراً ، بعد أن كان يطمح إلى معالي الأمور ، وكلما بلغ منزلة عالية اشأبت نفسه إلى ما هو أعلى منها .

رأيت هذا كله وأشباهه ، فساءمني أن يجعل أبناء هذه المدينة خاصة ، والناس عامة ، من تاريخها وآثار بنائها وأبنائها ، ما يرفع الرأس ، ويقر العين ، ويبهج النفس ، وأن لا يعلم الأسباب التي شوهت نضارتها وقوضت حضارتها .

فحبب إلي أن أجمع ما أستطيع جمعه ، من أخبار هذه المدينة الفاضلة ، وأخبار أهلها ، وأضم إلى ذلك ما أقب عليه من آثارها وآثارهم ، حتى لا ينسى ماضيها وماضيهم ، ولا يقنط من مستقبلها ومستقبلهم ، فإن الذين عمروها في الماضي بأيديهم ،

وشهزوها بالسنتهم وأقلامهم ، كانوا أناساً مثلنا ، وفي وسعنا أن
نعمل ما عملوا النترك ما تركوا من الذكر الحسن والأحدوثة الطيبة .
ومن البين أن المعرة لم تكن في القديم والحديث ، عاصمة
لدولة معظمة ، ولا مقرراً للملك من الملوك ، ولا شاطئاً يتخذ
ثغراً لإقليم ، ولا معقلاً يذود عن حياض بملكة ، ولا وهبتها
الطبيعة مما يجعلها محجاً يؤمه الناس من كل حذب وصوب ،
فليست فيها بحسب ما علمنا وما سمعنا أنهار جارية ، ولا معادن
مغرية ، ولا مقاطع نادرة .

وإنما منحتها الطبيعة مركزاً ، جعلها حلقة واصله بين غربي
آسية الجنوبي ، وشرقي افريقية الشمالي ، ومجازاً يعبر عليه أهل
الشرق الى الغرب براً وبحراً ، فهي بهذا الاعتبار ملتقى
الشعوب والأمم :

ورزقها الله من غدوبة الماء ، ورقة الهواء ، وطيب المناخ ،
ما جعل المقيم ، أو المار فيها يستطيع الإقامة ، وجعل فيها بما
يدره الضرع ويخرجه الزرع ، ما يصيب النفوس ويطيها ، كما
جعل في سكانها من الخلال المحموده والمزايا المحبوبة والعبقرية

الباهرة ، ما يحمل الناس على أن يقصدوها ، وبذلك كونت
من نفسها لنفسها مركزاً ، يغري الطامعين في الفتح ، والاستيلاء
على الشعوب ، وموارد الثروة ، والطامحين الى اقتباس العلم
والادب من منابعه الثمينة .

ولما أجمعت أمري على الشروع في تأريخ للمعرة ، يشتمل
على أطوارها في العصور المختلفة ، ويضم طائفة من علمائها
وأعلامها في تلك العصور ، اعترضتني عقبات صعبة المرتقى ،
وعقد عسيرة الحل ، وهي كثيرة منها :

- ١ - أنني لم أطلع على تاريخ مختص بها ، أتخذه أساساً
أقيم عليه بنائي ، ونبراساً أهتدي به في هذا الطريق الاقتم المبهم .
 - ٢ - أن كثيراً من النساخ لا يتحرون الحقيقة في النقل ،
ولنما يتساحون فيه ، فيضعون موضع الكلمة ما يشابهها أو يقاربها ،
وأكثر ما كنت أجده من هذا النوع لفظة المصري والمُتْقِرِي
والمُتْقِرِي والمغربي وأشباهاها ، بدلاً من لفظ المعري وبالعكس .
- فكنت أصرف جهداً عظيماً في التمهيص والتثبت ، والرجوع
إلى المظان ، لتكشف لي الحقيقة في ذلك ، وربما كنت لم أسلم
من خطأ في هذا الباب .

٣- أنني لم أقف على تاريخ للبلاد السورية ، يذكر في كل بلدة ما يتعلق بها من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها ، ولا كتاباً يستوعب طائفة كبيرة من أهلها ، وكل ما استطعت الوقوف عليه بعد عناء طويل وجهاد شديد ، هو أنني وقفت على طرف من أخبار المدينة ، وما اتابها من جور الإنسان في الحروب الصليبية ، والفتن والحروب التي أعقبتها من المتنفذين والفاطحين والمتغلبين والمعتدين من الحاضرين والبادين .

وطرف آخر عما أصابها من قسوة الطبيعة . من زلزال يقوض عمرانها ، الى قحط يميز إنسانها وحيوانها ، الى طاعون يبيد سكانها ، الى فتن تمحو حضارتها وتشوه نضارتها .

وكثيراً ما كنت أتصفح الكتاب الذي تتجاوز صفحاته الألوف ، ولا أجد فيه إلا النزول اليسير من مطلبي هذا ، وربما خرجت من الكتاب ، ولم أعثر على قليل ولا كثير ، فاحتملت هذا وذاك ، وقابلت بالصبر والتجلد كل عائق ، ودفعت كل مشبط ، وصرفت كل صارف عن العمل ، حتى تيسر لي جمع شيء إذا توفر المرء على قراءته ، وقف على شيء من أخبار

المدينة ، وعرف طائفة صالحة من علمائها ومؤلفيها وشعرائها
وأدبائها ، ورآه صالحاً لأن يكون أساساً يبني عليه من يحاول
إتمام هذا العمل من بعدي .

وقد استفرغت المجهود في البحث والتقيب والتحري ، في ماهو
مظنة لهذا الغرض .

فتبعت حجج المحاكم والصكوك والوثائق والفرامانات ،
وأوامر الحكام ومضابط المجالس وتوليات المتولين ، ومكاتبات
الولاة والعمال والامراء والقواد ، وظهور الكتب والرسائل ،
وما أشبه هذا .

وجمعت ما استطعت الوصول اليه ، مما كتب في جدر المساجد
والتكايا والزوايا والرُّبُط والمعاهد الدينية والمدارس والمنائر
والقبور والحفائر وما شاكلها ، وفتشت عما يتعلق بهذا الغرض
في كتب التاريخ والطبقات والتفسير والحديث والفقه والادب
واللغة .

ولم أدخر وسعاً في هذا السبيل على قدر ما ساعدت به
الأيام ، وساعدتني عليه الحال والصحة ، وأفرغت عصارة هذا
المجهود في هذا الكتاب .

وهو على صغر حجمه قد أحوجني إلى عمل شاق في التنقيب والجمع وتمحيص الحقيقة ، من أقوال متضاربة وآراء متشعبة وألفاظ محرفة ، وإبطال ما زعمه بعض الرواة والعلماء ، وإقامة الأدلة على صحة ما أقول ، وبطلان ما يقول هؤلاء ، ويجوز لي أن لا أستصغر عملي هذا ، لأنني جعلت شيئاً من لاشيء ، وبنيت هيكلًا من مادة كانت مبعثرة في بطون الكتب ، وصغت حلياً من معدن ، كانت ذراته متفرقة في نواحي الأرض المختلفة ، تفرق ذرات الذهب في بطون معادنه ، وغرست نواة سوف يحمد الناس ثمرتها ، وإني لأرجو الله أن يهيئ لها من يتعهد بها حتى تتم الفائدة المتوقعة من غرسها ، ويدعو من ينتفع بها بالخير لي ولوالديّ اللذين ربياني صغيراً وعلماي كبيراً ، ولشيوخه الذين أناروا لي السبيل وذلّلوا لي كل أبيض ، وتعهدوني حتى استفدت وأفدت :

وكنّت أود أن أقسم هذا الكتاب ، فأجعل قسماً منه خاصاً بعمران المدينة ، وثانياً خاصاً بحياة أهلها الاجتماعية ، وثالثاً بحياتهم السياسية ، ورابعاً بحياتهم الدينية ، وخامساً بحياتهم العقلية ، وأبين أطوار كل نوع في كل عصر على حدة وأبين

أسباب الارتقاء والتوقف والانحطاط في كل زمن ، لتكون الفائدة أعم وأجزل ، ويكون تناولها أيسر وأسهل ، ولكني وجدت ذلك مستحيلاً أو قريباً من المستحيل ، لأسباب جمّة منها :

١ - فقد المظان التاريخية الكافية لتحقيق هذا الغرض .

٢ - فقد الوسائل اللازمة للتنقيب والتفتيش في بطن الأرض ، وفوق ظهرها ، عن الآثار التي يتطلبها البحث والتحقيق .

٣ - عدم معرفتي بالآثار وما يميز كلاً منها في كل عصر وجيل ، وعجزني عن الاستعانة بفريق من العلماء الحاذقين بهذا الفن .

٤ - عدم مساعدة الأيام على فراغ من العمل ، وسلامة من العلل ، لا تمكن من استيفاء كل ما أريد من بحث واستقصاء في سفر أو حضر .

فأثرت الاكتفاء بما سمحت به الأيام وبلغته القدرة .

على أن ما جمع في هذا الكتاب يدل بصورة موجزة ، على ما وصلت إليه المدينة في عهدها ارتقائها وانحطاطها ، ويمثل صورة مجملة عما بلغ إليه أهلها من الرقي الفكري ، ويرينا مثلاً صالحاً من النوابع والعباقرة من أهلها في بعض العصور .

وبعد كل ما تقدم فإن عملي هذا لا يسلم من خطأ وتحريف
وغفلة ، لفقد المصادر الصحيحة ، ولكثرة التشابه بين لفظ
المعري رحمه الله مما سبق ذكره ، ولتضارب الأقوال في الحوادث
وتواريخها .

ولكني بذلت الجهد في الجمع والتحري ، وإني أرجو من
وقف على خلل أو تحريف ، أو خطأ فيه أن يرشدني إليه ،
أو ينبه القراء له ، وفي كلتا الحالتين أكون من الشاكرين له .

محمد سليم بن محمد نفيع الدين الجندري

مِعْرَةُ النُّعْمَانِ

معنى المعرة الغوي والعربي

لفظ المَعْرَةُ ، على وزن مَسْرَةٍ ، جاء في اللغة لمعان كثيرة ، منها : الإثم ، والغرم ، والأذى ، والدية ، والجناية ، وتلون الوجه من الغضب ، والشدة ، والأمر القبيح والمكروه ، وموضع المَعْرَةِ وهو الجرب ، وكوكب دون المجرة من ناحية القطب الشمالي .

وقد قيل لرجل نزل بين حين : أين نزلت ؟ قال : بين المَجْرَةِ والمَعْرَةِ ، والمَجْرَةُ البياض الذي في السماء ، والمعرة ما وراءها من ناحية القطب الشمالي ، وسميت بذلك لكثرة النجوم فيها ، وقد أراد بين حين عظيمين ، وأصل المعرة موضع العَرَةِ أي الجرب ، ولهذا سموها السماء الجرباء ، لكثرة النجوم فيها ، فهي تشابه الجرباء .

ويقال: أرض معرة اذا انجحد نباتها ، وأرض معرة قليلة النبات .
وفي كلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: اللهم إني أبرأ اليك
من معرة الجيش ، أي أن ينزلوا بقوم ، فيأكلوا من زروعهم
بغير علم ، أو أن يقاتلوا بدون إذن الأمير .

والمعرة اسم لهذه المدينة ، ولقرى كثيرة من عملها ، وعمل
حماة ، ودمشق وأنصيين ، وغيرها ، منها : معرة علياء من بلد
المعرة المذكورة ، ذكرها ياقوت في المشترك^(١) . وفي التاج^(٢) : « هي
محلة في المعرة ، ولا تعرف في هذا العهد ، والمعروف انها قرية بقرب
سرمين من عمل إدلب » .

ومعرة حرمة : قرية بالقرب من كفرطاب ، كما قال ياقوت^(٣) .
ومعرة بينطر : من نواحي المعرة ، وكذلك معرة ماتر .
ومعرة عرب : من نواحي المعرة ، وكذلك معرة ماتر .
ومعرة الصين : وهي الآن مزرعة في الجهة الغربية ، من
قرية كفرنبيل : على بعد ساعة منها .

(١) ياقوت : المشترك وضعاً والمفترق صقلاً ص ٤٠١ .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٣٩٣ .

(٣) ياقوت : المشترك ٤٠١ .

ومعرة راف .

ومعرة سمولين : من نواحي أقامية .

ومعرة الإخوان .

ومعرة مَصْرِين ، أو نسرین : من عمل إدلب .

ومعرة باش : قرب يَبْرُود .

ومعرة صَيْدَنَّايا : قرب منين ، وكلتاها من أعمال دمشق .

وفي عمل معرة النعمان ، وما يقرب منها ، قرى كثيرة ،

اسمها مَعَرَّ بلا تاء ، مضافاً الى اسم آخر .

منها مَعَرَّ شَمْشَى : من عمل المعرة ، ولعلها التي تسمى الآن

معر شَمْشَى .

ومَعَرَّاثا : وهي قبلي المعرة ، على الجادة الآخذة الى حماة ،

ويقال لها الآن : معراتا بالتاء المثناة ، وابدال التاء بالتاء كثير

في المعرة وغيرها .

ومعر شَمَّارين : من ناحية المعرة .

ومعر دِبْسَى : على الطريق الآخذة من المعرة إلى إدلب .

ومعر تارح : من نواحي كَفَرَطَاب ، في شماليتها .
ومعر تَرَوْح : بفتح التاء ، وسكون الراء ، وفتح الواو ،
وحاء مبهمة ، وهي على الجادة الآخذة من كفرطاب إلى حماة ،
ولعل أصل هذه ، والتي قبلها معرة أرح ، ومعرة أَرَوْح ،
فسهلت الهمزة فيها ، ونقلت حركتها إلى ما قبلها .
ومعر شَمْسِين : من أعمال كفرطاب .
ومعر زاف : من عمل إدلب .

وفي تاج العروس ^(١) : أن مَعَرَ - بلا هاء - اسم لحدى عشرة
قرية ، كلها بأعمال حماة ، وَمَعَرَيْن بزيادة ياء ونون بلد بنواحي
نصيبين ، وقرية بشيُور ، وأخرى بحماة ، وأخرى في عَزَاز ،
وإذا تأملنا المعاني المتقدمة للفظ المعرة لا نجد معنى مناسباً تمام
المناسبة لأن يكون هذا الاسم مشتقاً منه ، وإذا أمكن ذلك بضرب من
التأويل في هذه المدينة ، تعذر مثله في غيرها ، ولذلك اختلف العلماء في
معناها الذي اشتقت منه ، فزعم بعضهم ^(٢) : أن المعرة معناها المَغارة ،

(١) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(٢) كامل القزي : نهر الذهب تاريخ في حلب ١ : ٤١٧ .

وانها سميت بذلك لأن هذه المدينة مشتملة على كثير من المغاور ،
وأن أصلها في السريانية مَعْرَتَا ، فتصرف بها العرب ، وقالوا :
معرة ، وتاؤها في اللغتين للتأنيث .

وقال آخر : لا يبعد أن يكون هذا الأصل في تسميتها ، فإن
أكثر أسماء القرى والمدن في الشام ، جاءت من الآرامية والسريانية .
وزعم آخر ، فقال : يخيل اليّ أن أصله مُعَرَّس ، ثم ابدلت
التاء من السين ، وتلك لغة من لغات العرب ، ولما طال العهد
على استعمال هذه الكلمة ، فتحت الميم لتتفق مع الألفاظ التي
يألفها العرب المتكلمون بها .

وزعم آخر : أن أهل المعرة كانوا يسكنون سِيَاث ، فلما
افترس السبع ولداً للنعمان . دفنه في موضع المعرة ، وقال لأهل
سِيَاث : من كان يودني فليبن له موضعاً عند الموضع الذي ابتنيته ،
فبنى الناس المعرة كما سيأتي .

وزعم آخرون غير ذلك ، وقد سألت أحد العلماء باللغة
السريانية ؟ فقال : إن لفظ المعرة سرياني ، أصله معرتا ،

ومعناها المغارة والجمع مَعَرِّي، بامالة الراء نحو الكسرة ،
لا بالكسرة الخالصة .

وإذا أمعنا النظر في هذه الأقوال وغيرها ، تبين لنا أنها كلها
من باب الظن والتخمين ، وحب الإتيان بالغريب ، وتعليل الشيء
بعد وقوعه ، ومثل هذا لا يصح أن يبنى عليه حكم موثوق به ،
وانما يتوقف على دليل تاريخي ، خال من الشبهة والشك ، وهذا
لم نجده على كثرة بحثنا عنه ، ولا نظن ان أحداً وجده ،
أو يحده ، وإذا سلمنا بعض هذه الأقوال ، أو كلها ، تعذر علينا
معرفة الشخص الذي حرف هذا اللفظ ، والاشخاص الذين
حرفوه ، ومعرفة الزمن الذي حرف فيه ، والسبب الحامل
على تحريفه ، ثم اتنا لا نعلم بعد ذلك من أين جاء تشديد
الراء ؟ مع أن الغالب في التحريف إرادة التخفيف ، لا التشديد .
وإذا أمكننا شيء من التأويل والتوجيه في معرة النعمان ، استعصى
علينا مثله في بقية الأماكن والقرى المسماة بالمعرة ، والمضافة إلى
لفظ آخر ، كمعرة الصين ، أو بَيْنَطَر، أو الاخوان ، وغيرها ، لأن
التاريخ لم يخبرنا بأن الصين أو بيطر أو الاخوان ، نزلوا هذه

الاماكن ، كما لم يعرفنا من هم هؤلاء ؟ وبناء الحكم على ظنون
واهية ، لا قيمة له في نظر العلم ، وقول أبي العلاء :
يُعَيِّرُنَا لَفْظَ الْمَعْرَةِ أَنَّهَا مِنْ الْعَرِّ قَوْمٌ فِي الْعُلَا غُرَبَاءُ

• • •

وَمَا لِحَقِّ التَّثْرِبِ سُكَّانَ يَثْرِبٍ . مِنْ النَّاسِ لَكِنْ فِي الرُّجَالِ قَبَاءٌ^(١)
يشعر بأن لفظ المعرة مأخوذ من العر ، وهو لا يعيب أهل
هذه المدينة ، كما ان اشتقاق أو أخذ « يَثْرِب » من التثريب ، لم
يعب أهل المدينة المسماة بهذا الاسم ، ولا يمكن أن يراد من
هذا البيت غير هذا المعنى ، اذ لا يستقيم التمثيل بالبيت الثاني
إلا إذا حمل على هذا الوجه والتأويل ، وذلك يعين أن يكون
المراد اشتقاق المعرة من العر في رأي أبي العلاء .

والذي أعتقده أن جميع الاسماء لا تعلل ، ولا يجب أن يكون
بينها وبين مسمياتها مناسبة ، ولا يجب أن يكون لها أصل
تشتق منه ، وإذا تسنى لنا وجود شيء من هذا في بعض الأسماء

(١) أبو العلاء المعري : اللزوميات ٢١ : وفيها :

« وهل لحق التثريب . . . لا بل في الرجال . . . »

فلا يجب أن يكون ذلك عاماً مطرداً في كل اسم ، ولا سيما
أسماء الأعلام للأشخاص والأماكن .

وان التزام مثل هذا اضطر كثيراً من العلماء الى أن يأتوا
بضروب من التأويل البعيد عن العلم ، وعن مقاييس اللغة
في تعليل الاسماء ، وبيان أصولها التي اشتقت منها ، كما نرى
ذلك في مثل دمشق ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وإدلب ، وغيرها .
وإذا لم يكن لنا بد من التعليل وردّ الاسم الى اصل
كيفما كان ، فإن أقرب الوجوه الى السداد أن نقول : إن
المعرة مأخوذة من السريانية ، ثم حُرِّفها العرب على نحو ما تقدم .
هذا إذا لم نقل : إن أصلها عربي أخذها السريان من العرب ،
أو أنها بما اتفق فيه اللغتان ، فهي أصل في كليهما .

النعمان الذي أُضيفت إليه المعرة :

اختلفت كلمة المؤرخين في النعمان الذي أُضيفت إليه
هذه المدينة اختلافاً شديداً ، فذهب فريق الى أنها أُضيفت
الى النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي الجليل ^(١) .

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج
الأنصاري ، وأمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة ، والنعمان —

وقيل : إنه كان والياً في حمص ، فاجتاز بالمعرة ، فمات

— وأبوه وأمه صحابيون ، شهد أبوه بشير العقبة الثانية وبردراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وبعثه في سرية إلى فدك في شعبان ، ثم بعثه في شوال نحو وادي القرى ، وهو أول أنصاري بايع أبا بكر ، واستشهد مع خالد بن الوليد بعين التمر بعد انصرافه من اليمامة سنة ١٢هـ أو سنة ١٣هـ .
وأما النعمان فإنه ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وهو أول مولود من الأنصار بعدها ، وروي له عن النبي ﷺ مائة وأربعة عشر حديثاً ، وروي عنه ابنه بشير ومحمد والشعبي وآخرون ، وكان كريماً جواداً شاعراً ، استعمله معاوية على حصص ، ثم على الكوفة سنة ٥٩هـ ، ثم عزله يزيد عنها ، وولى مكانه عبيد الله بن زياد ، ثم بعثه إلى قومه في المدينة سنة ٦٢هـ ، لينضمهم عن مشاركة أهلها في الخروج على يزيد ، واستعمله على حصص . ولما مات معاوية بن يزيد ، كان على حصص ، فكان يدعو إلى ابن الزبير ، فاستمده الضحاك بن قيس ، فأمدّه بشرحبيل بن ذي الكلاع ، فلما انهزم الناس من مرج راهط ، لحقوا بأجنادهم ، فانتهم أهل حصص إليها ، وعليهم النعمان ، فخرج هارباً ، وطلبه عمرو بن الجلي الكلاعي ، فقتله في أواخر سنة ٦٤هـ ، وقيل : في المحرم سنة ٦٥هـ ، وذكر في الإصابة ، أنه دعا إلى ابن الزبير ، ثم دعا إلى نفسه ، فواقعه مروان فقتله . ونجد ترجمته وأخباره . وشيئاً من شعره في تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ : ص ١٢٩ ، وأسد السابة لابن الأثير ٥ : ص ٢٣ ، والإصابة لابن حجر ٦ : ٢٤ ، وتاريخ ابن جرير الطبري ٦ : ١٧٦ ، ١٨٨ ، و ٧ : ٤٠ ، ٤٧ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١١ ، و ٥٢ ، و ٧٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١ : ٧٢ ، والأغاني للأصفهاني ١٤ : ١١٤ ، والكامل للبرد ٢ : ص ٢٠٨ .

وقد ذكر بعضهم : أن قبر النعمان بن بشير في الطريق الممتدة بين حمص وسلمية (ج) .

له ولد فيها ، فدفنه ، وأقام أياماً حزيناً عليه ، فسميت به . وقيل :
لأنه تديرها ، فنسبت إليه ، وكانت قبل ذلك يقال لها : معرة
حمص ، ومن ذكر اضافتها الى النعمان بن بشير ابن خُلُكان ^(١) ،
والبلاذري ^(٢) ، وأبو الفداء ^(٣) ، وابن بطوطة في رحلته ^(٤) ،
وابن العديم ^(٥) ، وابن الأثير في الكامل ^(٦) .

(١) هو أحمد بن محمد البرمكي الأربلي المعروف بابن خلكان المتوفى
سنة ٦٨١ هـ ، له كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فرغ من تأليفه
سنة ٦٧٢ هـ .

(٢) هو أحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، له كتب منها :
فتوح البلدان ، وتاريخ الأشراف .

(٣) هو الملك المؤيد إسماعيل بن علي صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ،
له كتب منها : تقويم البلدان ، ومنها : المختصر في أخبار البشر رقبه على
السنين ، وانتهى فيه إلى سنة ٧٠٩ هـ .

(٤) هو محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، المعروف بابن بطوطة ،
بدأ رحلته سنة ٧٢٥ هـ ، واستغرقت خمساً وعشرين سنة .

(٥) هو صاحب كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي ، المعروف بابن العديم ،
وابن أبي جرادة المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، له كتب منها : بقية الطلب في
تاريخ حلب ، ومنها رفع الظلم والتحرير عن أبي العلاء المعري وورد اسمه :
كتاب الإنصاف والتحرير في دفع الظلم والتحرير عن أبي العلاء المعري .

(٦) هو أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري
المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، له كتب كثيرة ، منها : الكامل في التاريخ أو تاريخ
الكامل ابتداء فيه من أول الزمان إلى سنة ٦٢٨ هـ .

وذكر ياقوت^(١) هذا القول^(٢) ، ثم قال^(٣) : وهذا في رأيي سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة . والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان ، وهو الملقب بالساطع ، وهو النعمان بن عدي بن غطفان التنوخي . وأنكر عليه ذلك ابن العديم ، فقال في الإنصاف والتحري عند كلامه على الساطع : « وبعض الجهال يقول : ان معرفة النعمان تنسب إليه ، وليس بصحيح ، بل تنسب إلى النعمان ابن بشير الأنصاري ، وكان والياً على حمص وقنشرين في ولاية معاوية وابنه يزيد ، ومات للنعمان بها ولد ، وجدد عمارتها ، فنسبت إليه ، وكانت أولاً تسمى ذات القصور » .

ثم قال : « وقيل إن سيات كانت المدينة ، وهي أهلة ، فخرج ابن للنعمان بن بشير للتصيد ، وكان موضع المعرة أجمة ، فافترسه السبع ، فجزع عليه ، وبنى له موضعاً عند قبره ، فبنى الناس لبنائه ، فسميت معرة النعمان لذلك ، وإنما نسبت الجهال المعرة إلى النعمان بن عدي المعروف بالساطع ، لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع ، فظنوا أنها منسوبة إليه » . ا هـ .

(١) هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، له كتب كثيرة ، منها : معجم البلدان ، ومنها : ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، والمشارك ، وغيرها .

(٢) أي إضافتها إلى النعمان بن بشير .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

وقال ابن العديم في بغية الطلب : « أخبرني القاضي أحمد ابن مدرك المعري ، فيما يأثره عن أهل معرة النعمان ، أن معرة النعمان انما نسبت الى النعمان بن بشير ، لأن موضعها كان أجمة قصب ، وكان سكنى أهل المعرة بسيّاث ، وهي كانت المدينة إذ ذاك ، وآثارها تدل على ذلك ، فخرج من سيّاث ولد النعمان يتصيد ، فافترسه الأسد عند الأجمة ، فدفنه في ذلك الموضع ، وبنى منزلاً عند قبره ، وقال لأهل سيّاث : من يودني ، ويحب مرافقتي ، فليين له موضعاً عند الموضع الذي ابنته ، فبنى الناس معرة النعمان ، وسميت بذلك لما لحق النعمان من معرة الحزن على ولده .

ثم قال : قلت : والصحيح أن النعمان بن بشير جدد بناءها ، وزاد فيه ، واختارها للمقام أيام ولايته ، فنسبت اليه ، وقد كانت مدينة معروفة قبل ذلك ، فتحها أبو عبيدة ، وأكثر أهلها من تنوخ . ونقل انها منسوبة الى النعمان بن بشير ، لأن معاوية كان أقطعه اياها فنسبت اليه ، وستأتي تمة كلامه عند الكلام على ذات القصور .

وقال أبو العباس الشَّريشي : « النعمان اسم للجبل المطل على
المعرة فأضيفت إليه ^(١) ». وقال مثل هذا ابن بطوطة ^(٢) .

وقال مغلطاي في تاريخ سلاطين مصر والشام في ذكر
ما فتحه الفرنج : « معرة النعمان بن المنذر » .

ونسبها آخرون الى النعمان بن امرئ القيس ، لأنه غزا
بلاد الشام غير مرة ، وأكثر المصائب والسي في أهلها .

هذا كلام طائفة من العلماء والمؤرخين في المعرة والنعمان .
ومن البين أن كل ما ذكره من الوجوه والعلل في تسميتها
واضافتها ، قائم على الظن لا يستند الى شيء من الحقيقة ، وكله
بعيد عن الصواب . أما ما ذكره ياقوت ^(٣) من استبعاد اضافتها
الى النعمان بن بشير فواضح ، ولا يعرف في المعرة أجمة ،
وموضعها الآن بعيد عن أن يكون أجمة ، ولكن في شمالها وغربها
أودية يفيض فيها الماء في الشتاء وأول الربيع ، وفيها ركايا

(١) الشريشي : شرح المقامات للحريزي ص ١٢١

(٢) ابن بطوطة الرحلة ٣٩

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥

ينبجس منها الماء فيجري على وجه الأرض أحياناً . وقد يجوز أن يكون فيها في القديم آجام ، لا أجمة . ولكن المعرة أعلى من هذه الأماكن ، وليس فيها ماء يسبح على وجه الأرض في وقت من الاوقات ، ولا يعرف فيها قبر لابن النعمان ، ولو كان هناك قبر لاحتفظ الناس به أو بآثاره ، كما احتفظوا بكثير من قبور الصالحين ، وإن لم يكونوا مقبورين فيها ، كما يزعم الناس في قبر أُوَيْسَ الْقَرْنِي ، على أن ياقوتاً ناقض نفسه إذ قال في مادة معرة النعمان ما تقدم من أنها منسوبة إلى الساطع ، وهو قبل الإسلام كما سيأتي . ثم قال في مادة « سِيَاث »^(١) : بكسر أوله وبعد الألف ثاء مثلثة ، كانت بليدة بظاهر معرة النعمان ، وهي القديمة ، والمعرة اليوم محدثة ، كذا ذكره ابن المُنْذِب في تاريخه ، واجتاز بها القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين المعري ، والناس ينقضون بنيانها ، ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

(١) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٢٠٧ .

مَرَزْتُ بِرَسْمٍ فِي سِيَاثٍ فَرَاغَنِي بِهِ زَجَلُ الْأَحْجَارِ تَحْتَ الْمَعَاوِلِ^(١)
 تَنَاوَلَسَا عِبْلُ الدَّرَاعِ كَأَنَّمَا رَمَى^(٢) الدَّهْرُ فَيَا بَيْنَهُمْ حَرْبٌ وَائِلِ
 أُتْلِفَهَا^(٣) شُلْتُ يَمِيئُكَ خَلَهَا لِمُعْتَبِرٍ أَوْ زَائِرٍ أَوْ مُسَائِلِ
 مَنَازِلُ قَوْمٍ حَدٌّ تَتَنَاحَدُ يَشْمُ وَلَمْ أَرَأْ أَحَدًا مِنْ حَدِيثِ الْمَنَازِلِ
 وذكر ابن العديم عن أبي العلاء المعري : أن هذا الشعر
 لأخيه أبي الهيثم عبدالواحد، وأنه كتبه على حائط من حيطان
 سياث وروايته :

مَرَزْتُ بِرَبْعٍ مِنْ سِيَاثٍ
 وسيأتي في ترجمة زيد بن أبي الهيثم أنه مرَّ على سياث ،
 وهي قرية إلى جانب معرة النعمان خراب ، فوجد رجلاً يهدم
 أبنية بها ، ويستخرج منها حجارة ، فكتب على حائط من
 حيطانها بمعول :

مَرَزْتُ بِرَبْعٍ
 وكانت وفاة أبي الهيثم سنة ٤٠٥ هـ ، وهذا يدل على أن

(١) ذكر هذه الأبيات ابن العديم في الإنصاف والتحري ، انظر تعريف

القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٤ . وفيه : « ربع من سياث .. » .

(٢) في الإنصاف : « جنى الدهر .. » .

(٣) في الإنصاف : « امتلفها .. » .

سياناً لم تنزل آثارها باقية إلى هذا العهد ، وأن المعرة كانت عامرة .
ويدل على أن المعرة كانت عامرة قبل الإسلام ، معروفة
بهذا الاسم ، ما ذكره ياقوت^(١) ، وابن الشحنة^(٢) ، والبلاذري^(٣) ،
وغيرهم ، ففي كلام هؤلاء الآتي أن في المعرة قبر عبد الله بن
عمار بن ياسر الصحابي ، وقبر يوشع بن نون ، وأن أبا عبيدة
لما فرغ من فتح حماة مر بالمعرة سنة ١٥ هـ ، فصالح أهلها
على صلح أهل حماة .

فهنا يدل دلالة صريحة ، على أن المعرة كانت عامرة ،
وكانت تسمى بهذا الاسم قبل الإسلام . أما نقض أهلها
بنيان سياث ليعمروا به موضعاً آخر ، فلا يوجب أن يكون
ما يعمرونه به مدينة المعرة نفسها . بل ربما كانوا يزيدون به في
بنائها ، وأهل المعرة إلى هذا اليوم كلما عثروا على بناء قديم ، نقلوا
حجارته ، وبنوا بها بناء جديداً . وكثيراً ما أذهبوا هياكل عظيمة ،
ومحووا معالم جليلة في نظر التاريخ وعلماء الآثار في سبيل ذلك .

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٢) ابن الشحنة : الدر المنخب ١٢٩ : ١٣٠ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

وأما قول من قال : ان النعمان الذي أضيئت اليه هو جبل ،
فلا نعرف جبلاً يطل على المعرة مسمى بهذا الاسم ، بل لا يطل
عليها جبل مطلقاً ، وانما يتصل بها من الغرب جبل صغير
يقال له : جبل عَطَّال ، ويتصل بها من ناحية الشمال جبل يقال
له : المقاطع ، ويتصل بجبل الزاوية ، وكان يقال له : جبل بني
عُلَيْم ، وهو على مقربة من مكان يقال له : المَحْيَا ، ويقال : إنَّ
فيه قبر شيث عليه السلام ، ولا يبعد أن يكون شيث محرّفاً
عن سِيَاث ، وعنده عين ماء يقال لها : عين آسية .

وربما كان اسم واحد من هذين الجبلين النعمان ثم غير
ولكن ذلك يحتاج الى نص تاريخي ، ولا يجوز بناء الحكم فيه
على الظن وحده ، على أنني سمعت من بعض اهل المعرة ان
الجميل الغربي الذي يقع غربي وادي الخطيب إلى النخيا ، يقال
له : النعمان ، ولكنني لم أعر على ما يؤيد ذلك ، وكذلك إذا قيل :
إنها مضافة إلى النعمان بن المنذر ، أو النعمان بن امرئ القيس ،
لا يمكن أن يعول عليه حتى يؤيده دليل ، ولم نثر على هذا الدليل .

وأما إضافتها الى النعمان بن عدي الملقب بالساطع فهي كغيرها تحتاج إلى ما يؤيدها ، وقد ذكروا ان تَنُوخَ ملَكُوا عليهم الساطع ، وكانت له وقائع وحروب مع ملوك الفرس ، ولما هلك تفرقت كلمة تنوخ ، وتنازعوا الرياسة بعده ، ثم غزا ملكُ الفرس الرومَ ، فأكثر فيهم القتل والسبي وخراب العامر ، فاستنجدوا بتنوخ ، فقاتلوا مع الروم ، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم . فأجابهم إلى ذلك ، فقاتلوا الفرس وظفروا بهم ، فأعجب بهم ملك الروم وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد الى الجزيرة ، وسورية مدينة بقرب الأَحَصِّ .

وهذا يدل على أن الساطع لم يقدم المعرة ، وإنما تملك ومات أو قتل في العراق ، ومن البعيد أن تنسب إليه مدينة وهذه حاله ، ولعل ياقوتاً نظر الى أن المعرة كانت صليبة تنوخ ، أي فيها جمعهم المستكثر ، وأن جمهرة المؤرخين ذكروا أن المعرة كانت لتنوخ ، وأن كل أهلها أو جلهم من بني الساطع ، فزعم أنها منسوبة اليه .

وقد يشهد لهذا القول ما سيأتي عن البلاذري وغيره ، من أن تنوخ كان لهم حاضر قنشرين ، مذ أول ما تنخوا بالشام ، نزلوه وهم في خيم الشعر ، ثم ابتنوا المنازل ، ثم دعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، وأن تنوخ قدموا مع أبي عبيدة ، فنزلوا منبج ، وسورية ، وحماة ، ومعرة النعمان ، وكفرطاب ، وغيرها ، وكانوا نصارى ، فامتنعوا عن أداء الجزية ، وأنهم قدموا على عمر لما قدم الشام ، فدفع فريق منهم له الجزية على اسم الخراج ، وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء ، وأجداد بني الفصيص ولالة قنشرين .

ولكن ذلك كله ليس فيه ما يدل على قدوم الساطع المعرة ، أو نسبتها إليه ، بل يدل على أن المعرة كانت تسمى بهذا الاسم قبل الإسلام .

وفي المعرة أرض يقال لها : الساطعية إلى يومنا هذا ، وهي في شمالي المعرة ، ولكنني لا أعلم إلى أي ساطع تنسب .
والغالب على الظن أنها تنسب إلى ساطع بن عبد الباقي بن المحسن التنوخي من بني أبي حصين ، كان شاعراً مجيداً ، مقرباً عند الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ، مرض في حلب ، وحمل إلى المعرة فمات في الطريق سنة ٦٢١ هـ .

إضافتها الى حمص :

ذكر فريق من المؤرخين أن هذه المدينة كان يقال لها :
معرة حمص ، ثم أضيفت الى النعمان بن بشير ، منهم صاحب
الوفيات ^(١) ، والبلاذري ^(٢) ، وأبو الفداء في حوادث سنة ١٥ هـ ^(٣) ،
وابن بطوطة في (رحلته) ^(٤) ، وقال ابن الأثير في (الكامل) ^(٥) : معرة
حمص ، وهي معرة النعمان نسبت بعد الى النعمان بن بشير الأنصاري .
وقال ياقوت ^(٦) : إنها من أعمال حمص .

وقالوا : إن سبب إضافتها إليه ، أنها كانت مضافة إليه مع
حمص في خلافة معاوية ، أو أن ولده توفي فيها على نحو ما ذكرنا .
وفي (المسالك والممالك) لابن خردادبه ^(٧) : من أقاليم حمص
أقليم معرة النعمان ، وأقليم كَفَرطاب ، وأقليم تل مَنْس .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٢ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٣١ .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ١٦٨ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار ٣٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢٠٨ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٧) ابن خردادبه : المسالك والممالك ٧٥ .

إضافتها الى ملب :

ذكر الواقدي في (فتوح الشام ص ١٠١) : أن أبا عبيدة ضم
لخالد بن الوليد أربعة آلاف فارس ، وقال له : شنّ بهذه الكتيبة ،
واقصد بها المعرة ^(١) ، واقرب من معرة حلب ، وشنّ بها الغارة
على بلد العواصم .

تسميتها بذات القصور :

وذهب جماعة من المؤرخين إلى أنها كانت تسمى ذات القصور ،
ثم نسبت الى النعمان بن بشير ، منهم : ابن العديم في
(الإنصاف والتحري ^(٢)) . ونقل في (بغية الطلب في تاريخ حلب)
عن أبي عبد الله محمد المسعودي أنه قال ^(٣) : معرة النعمان منسوبة
الى النعمان بن بشير الصحابي ، كان والي حمص ، والعواصم ،
وتلك النواحي ، وكانت المعرة قديماً تسمى ذات القصور ،
فلما مات للنعمان ابن هناك قيل لها : معرة النعمان .
ونقل عن أبي الحسن الهَرَوِي أنه قال : كان اسمها قديماً ذات

(١) كذا في الأصل . (ج)

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٧ عن الإنصاف - لابن العديم .

(٣) المصدر السابق ص ٥٨٨ عن بغية الطلب - لابن العديم .

القصور ، فنسبت الى النعمان بن بشير ، لأن ابنه مات بها ،
وقال : وبلغني من غيره ان التي تعرف بذات القصور هي معرة
مضرين ، والأول أصح .

وقد سماها ابن الوردي في قصيدته الضادية ذات القصور ،
وذلك حيث يقول :

سَلَامٌ عَلَى ذَاتِ الْقُصُورِ وَأَهْلِهَا وَمُسْتَقْبَلٍ مِنْ حُسْنِ حَالٍ وَمَا مَضَى ^(١)
وأما شيخ الرِّبْوة ^(٢) فقد قال في كتابه (نخبة الدهر) : معرة
النعمان وتعرف بذات القصرين ، ولعل ذلك تحريف من النساخ ،
لأن المشهور أنها ذات القصور .

المعرة من العواصم :

قال ياقوت في (معجم البلدان) ^(٣) : العَوَاصِمُ حصون موانع ،
وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية ، وقصبتها أنطاكية ، كان قد بناها

(١) ابن الوردي : الديوان ٣٢٢ .

(٢) شيخ الرِّبْوة : نخبة الدهر ٢٠٥ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٧٤١ .

قوم واعتصموا بها من الأعداء ، وأكثرها في الجبال ، فسمي بذلك .
وقال البلاذري (ص ١٣٨)^(١) : فلما استخلف أمير المؤمنين
الرشيد هرون بن المهدي ، أفرد قنشرين بكورها ، فصار ذلك
جنداً واحداً ، وأفرد منبج ، ودُكوك ، ورعبان ، وقورس ،
وأنطاكية ، وتيزين ، وسماها العواصم ، لأن المسلمين يعتصمون
بها ، فتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ،
وجعل مدينة العواصم منبج ، فسكنها عبد الملك بن صالح بن
علي سنة ١٧٣ هـ ، وبنى بها أبنية .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان)^(٢) : ومن الأماكن المشهورة .
بالشام العواصم ، قال ابن حوقل : وأما العواصم فاسم الناحية ،
وليس موضعاً بعينه يسمى العواصم ، وقصبتها أنطاكية^(٣) . وعد
ابن خردادبه^(٤) العواصم فكثيرها ، وجعل منها كورة

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٨ .

(٢) قال المؤلف : من نسخة خطية في مكتبي . كتبت سنة ٧٤١ هـ .
وانظر النسخة المطبوعة .

(٣) في المسالك لابن حوقل ص ١١٩ النص الآتي : « والعواصم اسم الناحية
وليس بمدينة تسمى بذلك وقصبتها أنطاكية » .

(٤) ابن خردادبه : المسالك والممالك ٧٥ .

منبج ، وعد منها شيزر ، وأفامية ، وإقليم معرة النعمان .
وقال ابن خلّكان^(١) في ترجمة علي بن محمد بن بسام الشاعر :
والعواصم كورة متسعة بالشام ، قصبتها أنطاكية ، وقد ذكرها
المعري بقوله :

مَتَى سَأَلْتُ بَغْدَادَ عَنِّي وَأَهْلَهَا فَأَنِّي عَنْ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلْتُ^(٢)
وإنما قال هذا ، لأن بلاد معرة النعمان من جملة العواصم .
وقال الطبري في (تاريخه) : إن هرون الرشيد عزل الثغور كلها
من بلاد الجزيرة وقنشرين ، وجعلها حيّزاً واحداً ، وسميت
العواصم ، وذلك في سنة سبعين ومائة للهجرة^(٣) .

وفي (صبح الأعشى) نحو من قول ابن حوقل السابق ،
وقال أيضاً : أول من سماها بذلك هرون الرشيد حين بنى
مدينة طرسوس سنة ١٧٠ هـ ، ثم قال : وذكر عماد الدين

(١) ابن خلّكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٤٥ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٦ : ٤٤٤ .

صاحب حماة في تاريخه^(١) : أن الرشيد عزل الثغور كلها من الجزيرة وقنسرين وجعلها حيّزاً واحداً وسماها العواصم . وهذا موافق لقول الطبري ، وهو يقتضي أن تكون الثغور والعواصم اسمين لمسمى واحد .

وقال التبريزي في (شرح سقط الزند) عند قوله

وَلَكِنْ بِالْعَوَاصِمِ مِنْ عَدِيٍّ^(٢) . . . :

إنه سأل أبا العلاء وقت القراءة عليه عن العواصم فقال : العواصم من حلب الى حماة ، لأنها حصون وجبال يعتصم بها الناس ، وفستر العواصم بمثل هذا في غير موضع من شعره . ويشير الى هذا قول أبي العلاء الآتي :

فَأَنِّي عَنْ آلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلُ^(٣) .

وغیره من الآيات .

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١٣ .

(٢) صدر بيت من لامية في السقط مطلعها :

أعن وخذ القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا
وعجزه : « أمير لا يكلفنا السؤال » .

شروح سقط الزند : ق ١ ص ٨٥ .

(٣) صدره : « متى سألت بغداد عني وأهلها . . . »

انظر ما سبق ص ٤٠ .

الفئة البها :

قال السمعاني في (الأنساب) ^(١) عن أبي نصر الرامشي : أن النسبة الصحيحة إليها معرني ، وإلى معرة مسرين معرمسي . قال أبو سعد : غير أن أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان) ^(٢) : « قال في اللباب : ومعرة النعمان مدينة من الشام . وقال السمعاني في الأصل ، أعني كتاب (الأنساب) : والنسبة إلى المعرة معرني ، قال : لأن ثم معرتين : معرة النعمان ، ومعرة نسرين ، فالنسبة إلى الأولى معرني ، وإلى الثانية معرمسي . غير أن أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك . أقول : إني رأيت هذا النقل في الأنساب ، ولم أجده في اللباب » اهـ .

وأنا أقول لعل هذه النسبة رأي ارتآه قائله للتفرقة بين النسبة إلى البلدتين ، ولكن لا نعلم أحداً نسب إلى واحدة منهما على هذه الصورة ، لا في القديم ، ولا في الحديث .

(١) السمعاني : الأنساب ق ٥٣٦٢ .

(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

والتسوية في النسبتين توجب أن يقال : معمرى ، أو معرنرى ،
أي أن يؤخذ الحرف الأول والثالث من مسرين أو نسرین ،
كما أخذنا من نعمان . وقد رأيت اختلاف الرواية بين مسرين
ونسرين والمشهور الآن مَصرين . ورأيت أن النسبة غير جارية
على قاعدة مطردة في الأسماء كلها ، وأن أحداً لم ينسبها على هذا
النمط ، وهذا كله يدل على أن هذا الرأي لم يرضه غير قائله ،
ولم يكتب له الرواج عند أحد ، والمعروف منذ القديم أن
النسبة إلى معرة النعمان معري فقط ، وعليه يدرج المتأخرون
اليوم .

المقدمة :

١ - الذي يظهر من كلام المؤرخين والأدباء ، أن هذه
المدينة كانت موجودة قبل الإسلام ، بدليل ما تقدم من أن
بعض التوحيين أقاموا في ديارهم لما دفعوا الجزية باسم الخراج ،
ومنهم أجداد أبي العلاء ، وولادة قنشرين .

وقد قال أبو الفداء : إن ملوك غسان كان ابتداء ملكهم

قبل الإسلام بأكثر من أربعمئة سنة ، وكانت قبلهم في الشام
قبيلة يقال لها : الضجاعة ^(١) .

وقال القلقشندي ^(٢) : ومن الناس من يطلق تنوخ على
الضجاعة ودّوس الذين تنتخوا بالبحرين .

وقال الحمداني : ولتنوخ بقايا بالمعرة من بلاد الشام . وقال
مرة أخرى : إن المعرة من بلاد الشام هي صليبة تنوخ .

وقال السمعاني : تنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً
بالبحرين ، وتحالفوا على التوازر والتناصر ، وأقاموا هناك ،
فسموا تنوخاً ^(٣) ، والتنوخ الإقامة ، وجماعة منهم نزلوا معرة
النعمان ^(٤) .

وقال اليعقوبي ^(٥) نحوه من هذا .

ويمكن أن نستخلص من مجموع هذه الأقوال ، أن التنوخيين
كانوا في المعرة قبل الإسلام بقرون كثيرة .

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ٧٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٢١٨ (ج) .

(٣) كذا في الأصل . (ج)

(٤) السمعاني : الأنساب ق ١١٠ .

(٥) انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٤١ ، ٦٠٧ .

وسياتي ما يدل على أنها كانت عامرة أيضاً قبل أن ينزلها
التوخيون .

٢ - يمكن الجمع بين الروايات المتناقضة بأن يقال :
إنها كانت تسمى في القديم معرة النعمان ، وذات القصور ،
كما يقال : دمشق ، وجِلْق ، والفيحاء . ثم لما جعلت من
عمل حمص ، قيل : معرة حمص .

أما ما ذكره من الأسباب في تسميتها بالمعرة ، واشتقاقها
وإضافتها إلى النعمان ، فلا يمكن الجزم بشيء منه لما أسلفنا
ذكره ، ولئن ساغ لنا التماس وجه مقبول في معرة النعمان ،
فمن الصعب الشاق أن نجد مثله في معرة الصين ، ومعرة عليا ،
وبيطر ، وباش ، وغيرها . والغالب أن الأسماء لا تعلل ، وأن
التماس العلل لا يخلو من بعد عن الحقيقة ، على ما فيه من
التكلف والعنت .

٣ - أن المعرة من العواصم والثغور .

٤ - أن النسبة إليها معري ، وكذلك نسب إليها جماعة
كثيرون ، وإذا اقتصر على هذه الصورة في النسبة فهي المرادة
دون غيرها .

ذكر المعرة في شعر أبنائها وفي شعرهم :

أهل هذه المدينة كثيرو التغي بها والحنين إليها ، وقد لهج
جماعة كثيرون منهم ، وتشوقوا إليها حين نزحوا منها ، أو بعدوا
عنها . وذكروها في أشعارهم في مواطن الهزل والجد ، تارة بلفظ
المعرة ، وأخرى بغير هذا اللفظ .

أما ذكرها بلفظ المعرة فقد وقع في كلام أبي العلاء في
مواطن من شعره ونثره .

فمن الأول قوله في (سقط الزند) :

سَرَى بَرَقُ الْمَعْرَةِ بَعْدَ وَهْنٍ . قَبَاتَ بِرَأْمَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَاً^(١)
وقوله :

فَيَا بَرَقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيْالٍ^(٢)
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعْرَةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بِهَا ظِمَانَ لَيْسَ بِسَالٍ

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٧٨

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٥ .

وقوله في اللزوم :

يُعَيِّرُنَا لَفْظَ الْمَعْرَةِ أَنَّهَا مِنْ الْعَرِّ قَوْمٌ فِي الْعَلَا غُرَبَاءُ^(١)

وقوله في رواية :

نَجَّى الْمَعْرَةَ مِنْ بَرَاثِنِ صَالِحٍ رَبُّ يُفَرِّجُ كُلَّ ذَا مُغْضِلٍ^(٢)

وقال الأمير أبو الفتح الحسن بن أبي حصينة المعري :

وَزَمَانٍ لَهْوٍ بِالْمَعْرَةِ مُونِقٍ بِسَيِّئَاتِهَا وَبِجَانِبِي هَوْمَاسِهَا^(٣)

وقال في مرثية أبي العلاء :

وَعَجِبْتُ أَنْ تَسَعَ الْمَعْرَةُ قَبْرَهُ وَيَضِيقُ بطنُ الْأَرْضِ عَنْهُ الْأَوْسَعُ^(٤)

وقال أبو الحسن [علي] بن محمد بن الدويرة من أبيات تأتي

في ترجمته :

أهل المعرة تحت أقبح خطلة وَيَهِيمُ أَنَاخَ الْخَطْبُ وَهُوَ جَسِيمُ

(١) أبو العلاء — اللزوميات ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ وفيه : « نجى المعري » .

(٣) ديوانه ٣٥٥/١ .

(٤) ديوانه ٣٧٣/١ .

وقال محمود بن علي بن المهنا المتوفى سنة ٥٠٥ هـ بعد أن أخذ

الفرنج المعرة :

مَعْرَةُ الْأَذْكِيَاءِ قَدْ حَرِدَتْ عَنَّا وَحَقُّ الْمَلِيحَةِ الْحَرْدُ
فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ كَانَ مَوْعِدُهُمْ فَمَا نَجَا مِنْ خَيْسِيهِمْ أَحَدُ

وقال أبو الهيثم أخو أبي العلاء :

أَدْرِكْ بِإِذْرَاكِ الْمَعْرَةِ مُهْجَةً تَفْنَى عَلَيْكَ مَخَافَةً وَحَذَارًا^(١)

وقال عبد الله بن محمد أخى أبي العلاء :

وَأَخْلِفْ بِأَنَّكَ لَا تَعُو دُ إِلَى الْمَعْرَةِ بِالطَّلَاقِ^(٢)

وقال أبو اليسر شاعر بن عبد الله حفيد محمد أخى أبي العلاء :

وَإِذَا الْمَعْرَةُ مَسْرَعًا فِي سُرْعَةِ الْمَاءِ الْمَرَاقِ

لَهُ حَسَنُ جَنَانِهَا بِالزَّهْرِ أَوْ رَوْضِ الرِّفَاقِ

وقال القاضي عبد الرحمن بن مدرك من حفدة أخى أبي العلاء :

مَا لِلْمَعْرَةِ مُشَبِّهٌ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَلَا الْعِراقِ

(١) البيت التاسع والعشرون من قصيدة ذكرها ابن العديم في الإنصاف ،

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٦ .

(٢) البيت من مقطوعة في الانصاف لابن العديم ، انظر تعريف القدماء

بأبي العلاء ص ٤٩٨ .

وقال النعمان بن وادع من حفدة أخيه أبي العلاء المتوفى سنة ٥٠٠هـ :
سَقَى اللهُ قَبْرًا بِالمَعْرَةِ مُفْرَدًا سَحَابًا مِنَ الغُفْرَانِ لَيْسَ بِمَقْلَعِ

وقال عمر بن الوردى :

رَأَى المَعْرَةَ عَيْنًا زَانَهَا حَوْرًا لَكِنَّ حَاجِبَهَا بِالْجَوْرِ مَقْرُونًا^(١)
مَاذَا الَّذِي يَفْعَلُ الطَّاعُونَ فِي بَلَدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلَمِ طَاعُونَ

وقال :

لِي فِي المَعْرَةِ شَمْسٌ رِضَاهُ عَيْنُ مُرَادِي^(٢)
فَلَا تَذْمُوهُ إِنِّي أَدْرَى بِشَمْسِ بِلَادِي

وقال :

مَعْرَةُ النُّعْمَانِ عَيْنِي إِذَا ذَكَرْتُهَا تُفْرِطُ فِي سَيْلِهَا^(٣)
كَمْ زَهْرَةٍ تَضْحَكُ فِي كُفِّهَا وَنَسَمَةٍ تَغُثُّ فِي ذَيْلِهَا

(١) ابن الوردى : الديوان ١٨٥ وفيه :

« ما الذي يصنع الطاعون . . . » .

(٢) ابن الوردى : الديوان ٢٠٨ .

(٣) ابن الوردى : الديوان ٢١١ - ٢١٢ وفيه :

« . . . إِذَا ذَكَرْتُهَا تُفْرِطُ . . . »

٢ (٤)

وقال :

لَيْتَنِي أَبْصِرُ الْمَعْرَةَ قَاعًا صَفْصَفًا كَالْفِجَارِ أَوْ كُثْبَانًا^(١)
لَوْ تَوَلَّى فِي يَوْمٍ الْاِثْنَيْنِ فِيهَا وَاحِدٌ طَلَّقَ الْحَيَاةَ ثَلَاثًا

وذكرها غير مرة في قصيدته التي يقول في مطلعها^(٢) :

قِفْ وَقْفَةً الْمُتَأَلِّمِ الْمُتَأَلِّمِ بِمَعْرَةِ النُّعْمَانِ وَأَنْظُرْ بِي وَلي

وكذلك ذكرها في قصيدته التي مطلعها^(٣) :

رَعَى اللَّهُ عَيْشًا بِالْمَعْرَةِ لِي مَضَى حَكَاهُ ابْتِسَامُ الْبَرْقِ إِذْ هُوَ أَوْ مَضَا

وذكرها عم والدي السيد أمين بن محمد الجندي في قصيدة مدح
بها الوزير المشير علي رضا باشا والي الشام ، وأرخ مساعيه بتلافي
أحوال المعرة ، وذلك حيث يقول :

وَلَمَّا قَدْ عَرَا الْمَعْرَةَ مِمَّا نَابَهَا مِنْ طَوَارِقِ الْأَكْدَارِ
وَدَعَا جُلُ رِيْفَهَا مَسْكَنَ الْبُؤْسِ مِ وَقَدْ كَانَ مَوْطِنًا لِلْهَزَارِ

(١) ابن الوردي : الديوان ٢٨٠ ولعل كلمة « كُثْبَان » معرفة عن « كُثْبَان »
« دوسياث » هي البلدة التي كانت بظاهر المعرة ودرست على حد قول
ياقوت في معجم البلدان .

(٢) هي في ديوانه ص ٢٦٢ (ج) .

(٣) هي في ديوانه ص ٣٢١ (ج) .

إلى أن قال :

كَيْفَ لَا وَهِيَ مِنْ أَجْلِ بِلَادِ الشَّامِ قَدْرًا فِي تَسَالِفِ الْأَعْصَارِ
سَادَ فِي مَدْحِ مَائَتِهَا وَهَوَاتِهَا فِي الْبَرَائِيَا قَوَائِلُ الْأَشْعَارِ
تَجَبَّلَتْ أَهْلَهَا عَلَى الصَّدَقِ وَالنَّخْوَةِ وَالْجُودِ وَالْوَفَا وَالْبِدَارِ
لَيْسَ يُشْنِيهِمْ التَّعَسُّفُ عَمَّا حَاوُّوا مِنْ مَكَارِمٍ وَفَخَارِ
وقال خال والدتي السيد محمد بن السيد عمر اليوسفي من أسرة

السيد يوسف الشهيرة بالمعرة :

إِنَّ الْمَعْرَةَ وَالَّذِي فَلَقَ النَّوَى بَلَدَ بِهَا أَهْلُ الْمَكَارِمِ لَمْ تَرَ
يَأْمَنُ تَجَاهِلَ فَضْلَهَا سَفَهَا فَسَلَّ رَكْبًا بِأَطْلَالِ الْحِمَى فِيهَا نَزَلْ
وقد ذكرت في قصيدة تشتمل على وصف أماكن فيها ، ووصف
أيام الصبا التي قضيتها فيها ، وعلى وصف أهلها والحنين إليهم وإليها
منها قولي :

يَا صَيْبَ الْمَزْنِ مِنْ سَارٍ وَمُبْتَكِرٍ حَيَّ الْمَعْرَةَ فِي الْأَصَالِ وَالْبُكْرِ
دَارٌ قَضَيْتُ بِهَا عَهْدَ الصَّبَا مَرَحًا خَلَوُا مِنْ آلِهِمَّ وَالْأَوْصَابِ وَالْكَدْرِ

تَحَالُ أَرْجَاءُهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مُلْتَفَةً مِنْ نَسِيجِ الدَّهْرِ فِي أُذُرٍ

تَحَالُ أَنْ الرِّبْعَ الْغَضَّ حَلَّ بِهَا فَلَمْ يُفَارِقْ مَغَانِيهَا وَلَمْ يَسِيرِ

إِذَا النَّسِيمُ عَلَى وَادِي النَّسِيمِ سَرَى وَمَا جَ مَا فِيهِ مِنْ نَجْمٍ وَمِنْ شَجَرٍ
حَسِبْتَ بَحْرًا خِضَمًا جَاشَ فَاضْطَرَبَتْ

أَمْوَاجُهُ مِنْ صُنُوفِ الزَّهْرِ وَالشَّمْرِ
فَالْعَيْنُ تُبْصِرُ أَمْطًا مُنَمَّعَةً مِنْ الْأَزَاهِرِ فِيهَا مِثْعَةُ الْبَصَرِ
وَالْأُذُنُ تَسْمَعُ لَحْنَ الطَّيْرِ سَاجِدَةً كَأَنَّهَا هِيَ أَعْوَادُ بِلَا وَتَرٍ
وَالْأَنْفُ يَنْشِقُّ مِنْ أَرْجَائِهِ أَرْجَاءَ مُجْنِي النَّفُوسِ بِرَبَّاءِ زَهْرِهِ الْعَطِيرِ
وَالْمَاءُ يُنْشِدُ شَعْرًا فِي تَحْدَرِهِ فَتَكْتُبُ الرِّيحُ فَوْقَ الْمَاءِ بِالْإِبْرِ

وَأِنْ نَظَرْتَ إِلَى وَادِي الْجِنَانِ وَمَا حَسِبْتَ أَنَّ جَنَانَ الْخُلْدِ قَدْ كُسِيتَ
بِحِمَا فَتْنِهِ مِنَ الرُّوحَاتِ وَالْخَضِرِ مِنْ سُتْدُسٍ قَبَدَتْ فِي أَرْوَاعِ الصُّوَرِ

يَفِيضُ فِي جَوْفِهِ الْهَرْمَاسُ مُصْطَاحِبًا كَالْبَحْرِ مُنْحَدِرًا مِنْ رَأْسٍ مُنْحَدَرٍ
فَيَمْلَأُ الْعَيْنَ حُسْنًا فِي تَكْسِيرِهِ وَيَمْلَأُ الْعَيْنَ مِنْ مُسْتَعْدَبٍ نَمِيرٍ

وَفِتْنَةٍ كَيْتِيمٍ الدَّرُّ فِي شَرَفٍ لَا بَلَّ لَهُمْ كَالدَّرَارِيِّ الْغُرِّيِّ الْخَطَرِ
صَحِبَتْ مِنْهُمْ مَغَاوِيرَ أَجْحَاجَةٍ غُرًّا مَيَّامِينَ لَا يُرْتَمُونَ بِالْخَصْرِ
مِنْ كُلِّ أَرْوَاعٍ فَوْقَ الدَّرِّ مَنْطِقُهُ مَا يَبِينُ مُنْتَظِمٍ مِنْهُ وَمُنْتَشِرٍ

وَكُلُّ أَذْهَرَ فَوْقَ الْغَفْرِ^(١) مَنْزِلُهُ وَإِنْ أَقَامَ عَلَى الْغِبَاءِ وَالْعَفْرِ^(٢)

فَقُلْ لِيُغَيِّرَ تَغَايِي عَنْ مَا يَرِيهِمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ جَمِيلِ الذِّكْرِ وَالْأَثَرِ
سَلِ الْمَنَابِرَ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ سَمِعَتْ أَوْ أَبْصَرَتْ أَسْدًا يَنْطِقُنَ بِالذَّرْرِ
وَسَائِلِ الْخَيْلِ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ عَرَفَتْ فِي الْحَرْبِ أَسْدًا بِلَا نَابٍ وَلَا ظَفْرِ
وَسَائِلِ الْأَرْضِ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ دَرَجَتْ فِيهَا مَلَأَتْكَ فِي صُورَةِ الْبَشْرِ

أُولَئِكَ الْقَوْمُ قَوْمِي لَا أَرَى شَبَهَا فِي الْمَكْرُمَاتِ لَهُمْ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
وَتِلْكَ الدَّارُ دَارِي لَا أَرَى بَدَلًا يَهَا وَلَوْ كَانَ فَوْقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
وَذَكَرَهَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ فِي نَثَرِهِمْ ، مِنْهُمْ : أَبُو الْعَلَاءِ ، فَقَدْ ذَكَرَهَا

فِي رِسَائِلِهِ وَكَتَبَهُ ؛ مَرَّةً بِلَفْظِ الْمَعْرِه كَمَا فِي (رِسَالَةِ الْمُنْبِيعِ
ص ١٥ ، ١٦)^(٣) وَ (ص ٨١)^(٤) وَمَرَّةً أُخْرَى بِلَفْظِ مَعْرِه النِّعْمَانِ

(١) الغفر : من منازل القمر .

(٢) العفر : ظاهر التراب .

(٣) يقول أبو العلاء فِي ص ١٥ : « لَنَشَرَتِ الْمَعْرِه صَحْفَ الْاِفْتِخَارِ ... »

وَفِي ص ١٦ : « وَلَعَلَّ الْمَعْرِه قَدْ نَظَرْتُ أَصَحَّ النَّظَرِ ... » .

رِسَائِلِ أَبِي الْعَلَاءِ لَشَاهِدِينَ عَطِيَّة .

(٤) يقول فِي رِسَالَةِ بَعَثَ بِهَا إِلَى أَهْلِ مَعْرِه النِّعْمَانِ : « هَذَا كِتَابٌ إِلَى

السَّكَنِ الْمَقِيمِ بِالْمَعْرِه . . » انْظُرِ الرِّسَائِلَ مُرَحَّ شَاهِدِينَ عَطِيَّة .

كما في رسالته إلى خاله أبي القاسم (ص ٦٧)^(١) . ومرة ثالثة بلفظ
البلدة المضافة الى النعمان كما في رسالته الى القاضي أبي الطيب حيث
يقول (ص ١٠٠)^(٢) : « مِنْ دِ الْمَسْتَقَرِّ فِي الْبَلَدَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى
النَّعْمَانِ » . وفي (رسالة الاغريض ص ٥٢)^(٣) : « وَغَيْرُ مَلُومٍ
سَيِّدُنَا لَوْ اَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ النَّعْمَانِ الرَّبْعِيَّةِ ، وَمَذَائِحِ
الْيَرْبُوعِيَّةِ ، مَلَلًا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْاسْمِ » .
وقال في (الفصول والغايات ص ٣٠٧) : « مَا أَنَا وَالْبَلَدَ الْمُضَافَ
إِلَى النَّعْمَانِ بَعْدَ صُجْبَةِ قُرَيْطٍ وَالْهَرَّاجِ » .

وذكرها في (رسالة الغفران) بلفظ معرفة النعمان في (ص ١٣٥)
و (ص ١٩٢)^(٤) .

(١) يقول : « ... ورسا ثبير ، من معرفة النعمان ، ولكل نبا مستقر » .
الرسائل - شرح شامين عطية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق وفيه : « ... ملكا من أهل البلد المضاف ... » .

(٤) رسالة الغفران طبعة أمين هندية سنة ١٣٢١ ويقول في ص ١٣٥ :
« رُئي يصلي بموضع بمعرفة النعمان ... » وفي ص ١٩٢ : « كان حق
الشيخ إذا أقام في معرفة النعمان سنة ... » .

وأما لفظ العواصم فقد جاء في كلام أبي العلاء ، منه قوله
في السقط :

مَتَى سَأَلْتُ بَغْدَادَ عَنِّي وَأَهْلَهَا فَأُتِنِي عَنْ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلٌ^(١)
وقوله فيه :

نَدِمْتُ عَلَى أَرْضِ الْعَوَاصِمِ بَعْدَمَا غَدَوْتُ بِهَا فِي السَّوْمِ غَيْرَ مُعَالٍ^(٢)
وقوله فيه :

تَذَكَّرَنْ مِنْ مَاءِ الْعَوَاصِمِ شَرِبَةً وَزُرْتُ الْعَوَالِي دُونَ ذُرْقٍ جَمَامَةٍ^(٣)
وقوله في اللزوم :

لَوْ قَامَ أَمْوَاتُ الْعَوَاصِمِ وَحَدَّهَا مَلَأُوا الْبِلَادَ حُزْوَئَهَا وَسُهْوَئَهَا^(٤)
وله أبيات يذكرها فيها من غير أن يصرح باسمها ، كقوله
في السقط :

وَمَاءُ بِلَادِي كَانَ أَنْجَعَ مَشْرَبًا وَلَوْ أَنَّ مَاءَ الْكَرْنِخِ صَبَّاهُ جَرِيَالٌ^(٥)

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠٧ .

(٣) المصدر السابق ق ١ ص ٨٥ .

(٤) لزوم ما لا يلزم ص ٢٠٧ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٤ والجريال : صبغ أحمر وماء الذهب ، ومميت الحمر جريالاً لشبهها بالذهب ومائه .

وقوله فيه :

لَدَى مَوْطِنٍ يَشْتَأُّهُ كُلُّ سَيِّدٍ وَيَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهِ الْمُتَطَاوِلُ^(١)

وقوله فيه :

فَيَا وَطَنِي إِنَّ فَاتِنِي بِكَ سَابِقُ مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَمْنَعْنِي لِسَاكِتِكَ الْبَالُ^(٢)
فَإِنْ أَسْتَطِيعَ فِي الْحَشْرِ آتِكَ زَائِرًا وَهَيْهَاتَ ذَلِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ

وأما ذات القصور ، فلم أجدها ذكرا إلا في بيت
ابن الوردي المتقدم .

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٧ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٨ .

المِعرَةُ في القديم

لم نقف على شيء تثق به من أخبار المعرة قبل أن يمتد
فوقها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علماً بما بلغت إليه من
ال عمران والمدنية في القرون الخالية ، ولا بمن نبغ فيها من العلماء
والعظماء . وجل ما نعلمه من ذلك أنها جزء من سورية ، اشترك
معهما فيما تعاقب عليها من الأطوار والأدوار ، وانضوى تحت
اللواء الذي كان يرفرف فوق أرجائها الفسيحة التي كانت
منذ برأ الله الخليقة ولم تزل إلى يوم القيامة مطمحاً لأنظار
الغزاة والفاحين ، وميداناً تطحن فيه المطامع الدول والأمم ،
ومجزرة للبشر يقرب فيها القوي الضعيف ضحية لأطباعه
وشهواته ، وقد شهدت هذه البقعة المباركة من الوقائع والفضائع
ما لم يشهده غيرها ، وضمت بين جوانحها من الأنبياء والملوك
والأبطال والعظماء ما يخیل إلى المرء أن أديم أرضها من
تلك الاجساد ، وها نحن أولاء نقص عليك طرفاً من نبأ

الأولين ، وإن كنا لا نبحزم بصحة شيء منه ، ولا نتحمل عهدة فيه غير صحة النقل عمن كتب في تاريخ سورية خاصة ، أو فيها وفي غيرها عامة . على أنه وإن لم يطابق كله الصواب ، فإن القارئ يجد فيه من اللذة والاستطراف ما يحده في قراءة الاساطير ، وإنما غايتنا من ذكره أن نبين أن سلسلة الحروب والتنازع في هذه الدار متصلة الحلقات منذ فطر الله الناس عليها ، وأن حب الاستئثار والتمتع بتربتها الطيبة ومائها العذب وهوائها السجسج ، كان من أكبر العوامل في درس معالمها وتقويض أركان حضارتها ، ولم يزل علة العلل في تطاحن الأمم من أجلها ، ولو أتاحت لها النجاة من أطماع الفاتحين ومخالب الطامحين إلى مدنبتها الزاهرة ، لكانت مثالا جامعا لمدينة البشر وتقلبه في جميع أطواره .

المعرة أو سورية قبل الطوفان :

زعم بعض الباحثين أن المعرة ، وهي جزء من سورية ، كانت أهلة بالناس قبل الطوفان اقربها من مهد الانسانية ، ولطول العهد على وجود البشر وحياتهم فوق ظهر البسيطة ، فإن بين

آدم والطوفان ما يقرب من ألفي عام ، بحسب ما جاء في بعض الكتب السماوية ، ولكن تعاقب العصور وعدم العثور على شيء من آثار الأمم التي كانوا يقطنونها ، جعل تاريخها أخفى من السهي ، وجعلنا لا نستطيع الجزم بشيء مما يقال .

بعد الطوفان

وأما بعد الطوفان فقد كان أيضاً في منتهى الخفاء والغموض ، حتى اكتشف الخط الهيروغليفي والمسماري وغيرهما ، فأرشد الباحثين والمنقبين إلى معرفة كثير ممن كانوا لا يُعلمون من الدول والأمم ، وأزاح النقاب عن كثير من القضايا التاريخية كانت مجهولة أو مبهمه ، حتى زعم بعضهم ان الحثيين ، وهم الأمة التي امتد سلطانها من جنوبي سورية إلى البحر الأسود شمالاً ، وحاربت فراعنة مصر وملوك آشور وبابل ، لم يعلم من أمرها شيء قبل ذلك . ومتى تم اكتشاف تلك الخطوط وما أشبهها ، تسنى للباحث أن يرى من أخبار الأولين وآثارهم ما يكاد يعد من ضروب المحال . واليك خلاصة ما ذكره المؤرخون عن سورية بعد الطوفان ، وهو غاية ما انتهى إليه البحث ، وأرشد إليه التنقيب في زعم هؤلاء الزاعمين .

استيلاء الكنعانيين على سورية ودمولهم اليها :

زعموا .. أن الآراميين من أبناء سام بن نوح كانوا يقطنون سورية ، وكانت مساكن الكنعانيين في سواحل الخليج الفارسي كالقطيف والبحرين . وكانت لهم في تلك الاصحاح مدينتان عظيمتان ، تدعى إحداهما صوراً والثانية اروادا ، فنشبت بينهم وبين ملوك بابل حرب اضطرتهم إلى هجر منازلهم ، فرحلوا إلى سورية وسكنوا في السواحل ، وسموا بلدين صوراً وأروادا باسم تينك البلدين ، ثم تغلبوا على الآراميين ، وتفرقوا في أنحاء سورية إلى أربع فرق ، أقامت إحداهما في بلاد فلسطين . والثانية في سواحل الشام ما بين جبل لبنان والبحر وهم الفينيقيون . واستولت الثالثة على الديار المصرية ، ومنهم الملوك العمالقة : وتوغلت الرابعة في الجهة الشمالية من الشام وسكنت في وادي نهر الأرونت ^(١) « العاصي » وهذه أعظم الفرق قوة وعدداً ، وكانوا يسمون الجثيين نسبة إلى حث بن

(١) وفي تاريخ حص ليعى أسعد ١ : ٥٩ : من أسماء العاصي اورانتس وارونط ، وسماء أبو الفداء : الارنط .

كنعان بن حام بن نوح ، وذلك قبل ميلاد عيسى ﷺ بنحو ألفين وخمسمائة سنة ، وكانت قادس عاصمة ملكهم ، وهي بلدة عظيمة كانت في بحيرة حمنص . ورسخت قدمهم في هذه البلاد ، وعظمت دولتهم ، إلى أن غزا سورية توتمس الاول أحد فراعنة مصر ، وأخضع بلاد الحثيين والسوريين عامة ، وبلغ الفرات ، وذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ثم هب السوريون لمحاربة المصريين ، فالتقوا بتوتمس الثالث سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ولكنهم لم يفلحوا ، ثم غزاها ثانية وأخذ من اهلها ذهباً كثيراً وعبيداً وبقراً وغيرها .

ولما ولي مصر توتمس الرابع غزا بلاد الحثيين ، وقتل كثيراً من رجالها ، وأخذ منها غنائم جمّة . وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد غزا رعمسيس الاول ملك مصر سورية ، فلما بلغ وادي العاصي لقي فيه جيوشاً جرارة ، يقودها سابات ملك الحثيين ، فأوجس في نفسه خيفة منهم ، وصالحهم على أن تكون كلتا الدولتين رداً للأخرى ، ودام ذلك حتى ملك مصر ساني بن رعمسيس المذكور ، فأجلب على السوريين بخيله

دولتهم على يد بُخْتَنْضَر ملك بابل، وكان ابتداء استيلائهم على سورية قبل ميلاد عيسى بنحو أحد عشر قرناً . ولم أقف على شيء من عاداتهم وآثارهم في سورية .

استيلاء السوريين على سورية :

وفي سنة ١١٣٠ قبل الميلاد غزاة تجلت قلاصر^(١) ملك بابل بلاد الحثيين ودوخها ، كما وجد ذلك منقوشاً على تمثال في بابل بعبارة هذا معناها « أنا تجلت قلاضر المحارب الشريف ذلت بلاد سويير الفسيحة ، وقد استحوز أربعة آلاف من فصائل الحثيين العصاة على مدينة سوبرتا ، فروعتهم بخافة سلاحي ، فأذعنوا وذلت رقابهم لنيري ، فغنمت أموالهم وأخذت مائة وعشرين من مركباتهم ووهبتها لرجال بلادي ، وجيشت جنودي المظفرة ، وزحفت الى بلاد ارام وسرت الى مدينة « كركميش » في بلاد الحثيين ، فعبرت الفرات ، ووضعت بهم ملحمة كبرى ، وغنمت من عبيدهم وأموالهم ما لا يدركه عدد ، وافتحت بعض مدنها ونهبها وحرقتها ، وسرت الى جبل اللكّام . فنكلت بأهله ونهبت أموالهم فدانوا لي صاغرين » اهـ .

(١) في تاريخ حص لعيسى أسعد : ١ : ١٧٠ . نقلت بلاسر .

ورجّله ، وأتى في طريقه على العرب فنحصد شوكتهم ، ثم دخل سورية ، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، وافتتح قادس بعد حرب ضروس ، ولكن ذلك لم يفتّ في عضد الحثيين ولم يوهن عزائمهم ، فقد كانوا يدافعون عن أوطانهم دفاع الأبطال ، ثم تصالح الفريقان على أن تعاد إلى الحثيين أملاكهم المخصوصة ، وإن لا يظهر ملكهم موتار مظهر العداء للمصريين ، ولم تكد تطفئ هذه الجذوة الملتبهة من قبل المصريين ، حتى شبت من جهة بابل وبنينوى وما إليها ، واندلع لهيب الأطماع من تلك الأصقاع ، وتداعت جيوش الفتح الى سورية تداعي الجياع إلى القصاص .

استيلاء بني إسرائيل على سورية :

ذكر أبو الفداء^(١) وغيره من المؤرخين : أن داود - عليه السلام - استولى على سورية ، وفتح فيها فتوحات كثيرة من أرض فلسطين وعمان وماب وحب و نصيبين وغيرها ، وامتدت شوكة الاسرائيليين في ذلك الحين ، وبقيت في حوزتهم الى أن انقرضت

(١) أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ١ : ٢٥ .

وفي سنة ٨٨٣ ق . م غزا سورية ملك بلاد الاشوريين البابليين « آشور نسيربال » ووجدت غزوته هذه منقوشة في صخرة ، وقد ذكر فيها أنه سار بجيوشه على جانبي العاصي أياً ، إلى أن بلغ لبنان ، وأنه قهر أكثر ملوك سورية وأخضع بلادها . ثم غزاها بعده ابنه سلمناصر ، حتى وادي العاصي ، وقتل ألفاً وستائة رجل ، وأسر أربعة آلاف واستاقهم إلى نينوى ، فتبعته سكان العاصي بجيوش عظيمة ، فأعاد عليهم الكرة ، وقتل بهم فتكاً ذريعاً ، ولم يزل سائراً بجيوشه حتى بلغ حماة ، فخرج لمحاربتة ملكها ايدكولينا ، وانضمت إليه ملوك سورية ، وفيهم اخاب ملك الاسرائيليين وتسعة ملوك أخر ، فتغلب على السوريين ، وقتل أربعة عشر ألفاً من رجالهم ، ثم تبعه أهل دمشق ، فقتل منهم عشرين ألفاً ، وأراد قتل ملكهم فهرب إلى البحر ونجا بنفسه .

ثم ملك بلاد الاشوريين بعد سلمناصر حفيده « نير » فأغار على السوريين .

وفي سنة ٧٤٥ ق . م تولى ملكة الاشوريين تجلت قلاصر الثاني ، فسار إلى سورية بجيوش عظيمة ، وضعضع أهلها ،

واستسلم اليه « انبال » ملك حماة ، وأسر منها ومن غيرها الوفأ واستاقهم إلى بلاده ، ثم عاودها ثانية ، فخرّب البلاد وهلك وقهر خمسة وعشرين ملكاً من ملوك سورية .

وفي سنة ٧١٧ ق.م ملك بلاد الآشوريين سرعون ، وكانت بينه وبين الحثيين شحنة تغلي مراجلها ، فأغار على بلادهم ، وقتل من رجالهم عالماً لا يحصى عدده ، وأخذ من نجا من القتل أسيراً إلى بلاده ، فأسكنهم نينوى عاصمة الآشوريين ، وأسكن من قومه أناساً غيرهم في بلادهم ، وبذلك انقرضت مملكة الحثيين في وادي العاصي ، وأصبحت مساكنهم خالية منهم كأن لم تغن بالأمس ، ثم انتشر بعدهم الآراميون سكان دمشق الأقدمون المنسوبون إلى سام ، فلهذا يطلق على السوريين عامة اسم الساميين ، لأن سكان وادي العاصي وصور وأرصاد ، وإن كانوا من ذرية حام ، إلا أنهم انقرضوا ، واندمج من بقي منهم في الساميين وغيرهم ، فمن يسمون بالآراميين نسبة لأرام بن سام .

نقايب الحثيين وعاداتهم وعباداتهم :

أما صنائعهم فأعظمها العمارة ، ونحت الحجارة ، واتقان

التحصين واستخراج المعادن الحديدية ، والزراعة ، وغرس الأشجار وصناعته وغيرها .

وأما أزيائهم فقد كانوا يلبسون ثوباً قصيراً له شقان طويلان من جانبيه ، يشدون في وسطه نطاقاً يضعون فيه الخنجر ، وكانوا يلبسون في رؤوسهم قبة طويلة ، مستديرة على الرأس ، مخروطية من فوق ، يحزمونها بمناديل ملونة ، فيها نقوش غريبة ، وكانوا لا يحلقون لحاهم ، وإنما يحلقون رؤوسهم ، ويتركون في وسطها قرعة ، ويتخذ الرجل منهم حلقة في أذنه ، وأما نساؤهم فقد كانت تلبس ثوباً طويلاً يستر الكعبين ، يشدون عليه حبالاً ويعقدونه من خلف .

وأما أسلحتهم فهي الفأس ذو الحدين ، والرمح ، والقوس ، والعصا ، وأما أشكالهم فقد كانوا يبيض الوجه مشربة بحمرة .
وأما عاداتهم فقد كانوا يحتفلون بالميت كثيراً ، فيستأجرون النائحات عليه ، ويدفنون معه أعز شيء عنده ، ويضعون في القبر شيئاً من الزيت ، وينزلون مع المرأة حليها وثيابها الفاخرة ، وكانوا ينحتون القبر حجراً كبيراً كالصندوق على قدر حجم

الميت ، ويقفون حوله ، ثم يبيعون عليه التراب ، ولهم في كل اسبوع مجتمع حافل يبيعون فيه ويشترون ، ويقدم اليه خلق كثير من الأمكنة القريبة .

وأما عباداتهم فقد كان السوريون جميعاً يعبدون الصنم المشهور المسمى بَعْل ومعناه الاله ، ويعتقدون انه هو الاله . وهو في نظر العوام منهم ذات الشمس أو المشتري وكانت مدينة بَعْلَبَك محلاً لعبادة السوريين عامة ، وقلعتها بيت للصنم القديم ، كانوا يؤمنونه من كل فج عميق في ايام معلومة ، وينهمكون في أحوال وحشية من الرقص على نغم المزامير والطبول ، ويحلبون أنفسهم بالسياط إلى أن تسيل الدماء ، وربما قطع الواحد منهم يده أو رجله ، وذبح الأب ولده ، ونذرت المرأة اباحة نفسها مدة من الدهر تقرباً للصنم ، وكانوا لا يأكلون السمك ، ويحترمون الطيور ، وكان في حصص هيكل للصنم ، ويقال : ان أهل حماة كانوا يعبدون صنماً يسمى سينا .

استيلاء اليونان على سورية :

وفي نحو سنة ٣٣٢ قبل الميلاد استولى الاسكندر اليوناني على

من عهد الحكومة التي أعقبت اليهود في الاستيلاء على سورية مخالفة لهم . وكان الرومانيون إذا مات لهم ميت حملوه في نعش ، ومشوا أمامه يحملون تمثاله وتمثيل أسلافه ، ويعضون في فم الميت شيئاً من النقود ليعطيها للشخص الموهوم المسمى شارون ، يزعمون أنه موكل بنقل الأموات الى نهر الموت ، وان هذه النقود أجرتة ، فإذا انتهوا إلى مكان دفنه ، أخذت الكهنة ماء ورشوا به من كان مع الجنازة ، وكانوا يحرقون أمواتهم ، فيطرحون جسم الميت على حطب مرتب على شكل مذبح ، ثم يدور الحاضرون حوله بكل هدوء وسكينة ، على أصوات الآلات الموسيقية ، ثم يأتي أحد أقرباء الميت بشعلة من نار فيضرم الحطب ، وأناس يلقون الطيب والروائح الطيبة ، حتى إذا احترق الميت أطفأوا النار بالحجر ، ثم جمعوا الرماد ، ووضعوه في اناء ثمين ، ودفنوه مع الميت . وكان من عادتهم انهم يطرحون مع الجندي سلاحه ، وجمع المرأة حليها .

وفي سنة ٦١٥ بعد ميلاد عيسى - ﷺ - غزا كسرى ملك الفرس سورية ، وباع المسيحيين من اليهود بأبخس الأثمان ،

سورية ، وبقيت تحت حوزة اليونانيين إلى ما قبل الميلاد
بنحو ٦٢ سنة .

استيلاء الرومانيين على سورية :

وفي سنة ٦٤ قبل ميلاد عيسى تم استيلاء الرومانيين على
سورية ، وعظمت شوكتهم فيها ، ونشروا في أرجائها لواء الحضارة
والعمران ، فازهرت البلاد وازداد سكانها ، واخصبت جميع
أنحائها ، وقد كانت في عهدهم جنة زاهرة .

عادات الرومانيين :

كان الرومانيون كغيرهم من الأمم التي كانت قبلهم
يتخذون يوماً من الاسبوع ، يجتمع فيه أهل القرى للبيع
والشراء ، وأهل المعرة اتخذوا يوم السبت إلى يومنا هذا للبيع
والشراء ، فترى أهل القرى الضاحية والبلاد القريبة ، كإدلب
وأريحا ، وجسر الشُّعر ، يؤمنونها من كل حدب وصوب ، يبيعون
فيها سلعهم ، ويبتاعون هيرتهم وما يحتاجون إليه . ولا أعلم
السبب في اتخاذ يوم السبت دون غيره إلا أن يكون موروثاً

فأَمَاتُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ ، ثُمَّ اتَّصَرَ عَلَيْهِ هِرَقْلُ ،
وَنَارَ عَلَيْهِ أَكْبَرُ أَبْنَائِهِ الْمُسَمَّى شِيرُويَه ، وَصَالِحُ هِرَقْلُ ، وَأُطْلِقَ
سَبِيلَ الْأَسْرَى الرُّومَانِيِّينَ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَعْرَةَ كَانَ لَهَا نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ كُلِّ فَاجِعَةٍ ،
لَأنَّهَا عَلَى مَفْتَرَقِ الطَّرِيقِ ، فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَابِلٌ مِنْهُ فَطُلَّ .

المعرة فيبيل الاسم :

تَقْدِمُ أَنَّنَا لَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَخْبَارِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ
أَنْ يَمْتَدَّ فَوْقَهَا رِوَاقُ الْإِسْلَامِ ، وَلَا أَحْطَا عَلِمًا بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ
مِنَ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ فِي تِلْكَ
الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ .

وَلَا وَفَّقْنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَحَدٍ مِنْ أَبْنَائِهَا النَّابِغِينَ فِي تِلْكَ الْعُصُورِ .
وَكُلُّ مَا أَمَكُنْ مَعْرِفَتَهُ بِطَرِيقِ الْاسْتَنْبَاطِ مِنْ الْأَقْوَالِ
الْمُجْمَلَةِ وَالْمُقَايَسَةِ بِالْآثَارِ الْمَائِلَةِ هُوَ مَا يَأْتِي :

أَنَّ التَّنَوُّخِيِّينَ كَانُوا نَصَارَى ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو عَيْبَةَ امْتَنَعُوا
عَنْ أَدَاءِ الْجُزْيَةِ . وَلَمَّا سَارَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الشَّامِ قَدَمُوا
عَلَيْهِ فَقَالَ : مَا أَقْنَعُ مِنْكُمْ إِلَّا بِالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ أَوْ

السيف ؛ وأمهاتهم سنتين ثم الزمهم الجزية ، فأبوا عليه وقالوا :
خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية ، فأبى ، ثم قبل
أن يأخذها على اسم الخراج ، فاستجاب له قوم منهم ، وأقاموا
بديارهم . ومنهم أجداد أبي العلاء ، وأسلم بعضهم في أيام
أبي عبيدة وبعضهم في أيام المهدي .

ولا نعلم من المعاهد الدينية النصرانية في المعرة الا موضعين ،
أحدهما : كنيسة الاعراب وقد ذهبت معالمها ، وأصبحت محلة
معروفة بالكنيسة ، وهي في الجهة الغربية من المعرة .

والثاني : الكنيسة العظمى وهي التي جعلت مسجداً ، بمقتضى
الصلح كما سيأتي . وأما حالتها السياسية ، فقد كانت عملاً
من أعمال الرومانيين ، خاضعة للنظم والأوضاع التي كانت
ترزح تحتها سائر المدن الشامية قبل أن تنضوي تحت
راية الإسلام .

وكذلك حالتها الاجتماعية شبيهة بحالة الأمصار التي يقطنها
العرب في ذلك العهد ، وتسيرها النظم الرومانية .

وقد سلف أن الروم استنجدوا بَتَنُوخ لما تغلب عليهم
الفرس ، فأبلوا بلاء حسناً في قتالهم ، ثم تولوا قتالهم منفردين
عن جند الروم فظفروا بهم ، وأن ملك الروم فرق فيهم الدنانير
وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة .
وسياتي لإيضاح ذلك مفصلاً ، وهو يدل على أن حالتهم كانت
شبيهة بالبداوة وإن كانوا حضرا .

ولم نقف على شيء يمثل لنا الحياة العقلية فيها في ذلك
العصر ، لأن تاريخ هذه المدينة مبعث في بطون الكتب ، ولم
نعثر على تاريخ خاص بها ، أو تاريخ يوضح لنا ذلك كما تقدم .
ويسعنا أن نقول بطريق الإجمال : إن هذه المدينة جزء
من البلدان الشامية ، تعاقب عليه ما تعاقب عليها من الكوارث
التي كانت تلتهاها من الغزاة والفاثحين من قتل وحرق وهدم
وسي وما شاكل ذلك من الفظائع التي يقتربها ذئاب البشر .
وإن هذه البقعة المباركة لم تزل مطمحاً لأنظار الطامعين
في تضحية البشر في سبيل شهواتهم ، كبقية الأصقاع الشامية .

وقد شهدت من الحروب الدامية والوقائع والفظائع ما شهدته
غيرها من غزاة الفراعنة ، والآشوريين ، واليونانيين ، والفرس ،
والرومانيين ، وغيرهم .

وبلاد الشام طيبة التربة ، عذبة الماء ، نقية الهواء . وقد
كانت ولم تزل طريقاً قلتقي فيها الأمم ، وميداناً تتطاحن في
سبيل الاستئثار به الدول . ولعل هذا علة العلل في تقويض
حضارتها القديمة ، وطمس معالمها الزاهرة ؛ ولو أتيت لها
النجاة من مخالب الطامحين إليها ، لكانت لوحاً جامعاً لمدينة
البشر وحضارته المختلفة في عصوره المتعددة .

وقد ذكر المؤرخون أن الرومانيين استولوا على بلاد الشام سنة ٦٤
قبل ميلاد عيسى — ﷺ — ، واشتدت شوكتهم فيها ، ونشروا في
أرجائها الفسيحة حضارتهم ، فازدهرت وأخصبت ، حتى
أصبحت جنة زاهرة . وإن المكان المعروف بالبلعاس كان
في عهدهم كورة عظيمة ، ذات قرى أهلة ، وأشجار مشمرة .
وكانت لهم عناية عظيمة في زرع الزيتون والعنب .

وفي المعرة وضواحيها كثير من معاصر الزيتون والعنب ،
مبنية تحت الأرض . ومنها ما يرجع إلى عهد الرومانيين .
وفيهما كثير من آثار الهياكل الضخمة ، والنواويس المنقورة
في الجبال وفي باطن الأرض .

وأهل المعرة ينسبون إلى الرومانيين كل ما عثروا ويعثرون
عليه من تلك الآثار ، مع أن منها ما هو قبل الرومانيين ،
ومنها ما هو إسلامي ، والسبب في ذلك جهل الناس بمعرفة
الآثار وما عليها من النقوش والكتابة ، فيرون أقرب شيء
إليهم نسبتها إلى أقرب أمة كانت مستولية عليها قبل الإسلام ،
وهم الرومانيون ، ويشجعهم على ذلك كثرة ما للرومانيين من الآثار
الخالدة في المدينة وضاحيتها .

المعرة بعد الإسلام :

لما افتتح أبو عبيدة دمشق ، أتى مدينة حنص فصالح أهلها
واستخلف عليها عبادة بن الصامت الأنصاري ، ثم مضى نحو
حماة فصالح أهلها على الجزية في رؤوسهم ، والخراج في أرضهم ،
وجعل كنيستهم العظمى جامعاً ، ثم مر بالمعرة ، وقد خرج إليه

أهلها يقلسون بين يديه ، فصالحهم على مثل صلح أهل حماة ، وذلك سنة خمس عشرة للهجرة^(١) ، وذكر ابن الأثير في الكامل^(٢) : أنه صالحهم على صلح أهل حمص ، وهو صلح أهل دِمَشْق ، وقد ذكر ابن جرير^(٣) : أنه صالح بعضهم على دينار وطعام على كل جريب أبداً ، أيسروا ، أو أعسروا ، وصالح بعضهم على قدر طاقته إن زاد ماله زيد عليه ، وإن نقص نقص وذلك سنة ١٥ هـ ، ثم استخلف معاوية بن أبي سفيان ، فولى النعمان بن بشير حمص ، وأضاف اليه المعرة كما سبق ، وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص ، حتى ولي يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وأنطاكية ، ومنبج ، وذواتها جنداً واحداً .

ثم لما استخلف هرون الرشيد ، أفرد قنسرين بكورها ، فصيرها جنداً واحداً ، وأفرد منبج ، ودُلُوك ، وأنطاكية ،

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ١٦٨ ، والبلاذري : فتوح البلدان

١٣٧ ، ١٣٨ ، ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٧٤١ ، ٧٤٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ : ٢٤٢ (ج) .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٤ : ١٥٤ (ج) .

ومعرة النعمان وغيرها مما سبق ذكره ، وسماها العواصم ،
وذلك سنة ١٧٠ هـ ، وقد ذكر المقدسي في (أحسن التقاسيم في
معرفة الأقاليم) المؤلف سنة ٣٧٥ هـ ان معرة النعمان من مدن
قنشرين ، وقصبتها حلب^(١) .

ثم تعاقبت عليها دول مختلفة ، فكانت تارة من عمل حمص ،
وثانية من عمل حماة ، وثالثة من عمل حلب ، ورابعة اقطاعاً
لأمير . وكان لها في كل عهد نصيب وافر من قتل أهلها ،
وسبيهم ، وخراب عمرانها . وإذا سلمت في بعض السنوات
من مثل هذه الفظائع من الأمراء والملوك والمتغلبين ، نالت
نصيباً وافراً من عبث البداة وغاراتهم ، فإذا سلمت من كلا
الأميرين ، نالت قسطاً وافراً من ظلم الطبيعة وجورها ،
ما بين زلزال يقوّض أركانها ، وطاعون يفني سكانها ، وقحط
يبعد انسانها وحيوانها ، فإن سلمت من ذلك كله ، قام بمثل
هذا الواجب طاعية متغلب من أهلها ، ففعل فيها ما لا يفعله الزلزال
والطاعون والطبيعة .

وهي لا تزال الى هذا اليوم ، تنسج على هذا المنوال ،

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٥٤ .

وتحتذي على هذا المثال ، ومن استقرى ما لقينته من المحن والبلاء ،
يعجب كيف كتب لها الخلود إلى هذا العهد ، ولم تمنح من
صحيفة الوجود .

وصف المعرة ومحمد بندها منذ الفتح الإسلامي إلى هذا العصر :

لم أقف على شيء مفصل من أخبار المعرة يوضح كيف
كان عمرانها وحياة أهلها في صدر الاسلام وما بعده إلى
القرن الرابع .

وقد عثرنا على بعض نصوص تاريخية ، تشير بصورة مجملة ،
إلى ما كانت عليه من العمران والازدهار في القرن الرابع
فما بعده ، فأثبتناها على ما فيها من الاجمال والغموض ،
ليتضح لنا شيء من أحوالها ، إذ ما لا يدرك كله لا يترك كله ،
وهذا شيء من ذلك .

قال ابن حوقل البغدادي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ في (المسالك
والممالك) : والمعرة مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفسق
وما شاكل ذلك من الكروم .

ونقل عنه ابن العديم : أنها هي وما حولها من القرى أعداء
ليس بنواحيها ماء جار ولا عين^(١) . وذكر ابن العديم : أنه شاهد
عين ماء من قبلي المعرة على الطريق بالقرب منها .

رحلة ناصر فسر العبادباني^(٢) :

أنشأ رحلته من بلاده سنة ٤٣٧ هـ ، وعاد إليها سنة ٤٤٤ هـ ،
وقد وصف البلاد التي اجتاز بها ، ومنها معرة النعمان فقال :
وبعد ستة فراسخ عن سَرْمِين ، تقول لك معرة النعمان :
ها أنا ذه ، وهي مدينة آهلة بالسكان كثيراً ، ويحيط بها سور
من حجر ، وقد شاهدت بالقرب من باب هذه المدينة سارية
من الحجر ، كتب عليها بحروف غير عربية . فسألت أحدهم
عن ذلك ، فأجابني أن هذا طَلَسَم يحول دون العقارب ودخول
المدينة والبقاء فيها ، فإذا جيء بعقرب من الخارج ، وأطلق
يفر ويتبعد ، وقدرت أن هذه السارية كان علوها عشرة أذرع .

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١١٨ .

(٢) ترجم هذه الرحلة « طه حسين » صاحب ذكرى أبي العلاء ، والراجح كوني
والاستاذ محمد كرد علي في مجلة المجمع ج ٢ مجلد ٦ ص ٦٦ وفي بعضها
مغايرة لبعض آخر (ج) .

وأسواق المعرة طافحة بالأرزاق والخيرات ، وجامعها الأعظم
مبني على أكمة قامت وسط المدينة ، ومن أي جهة اتجهت الى
هذا الجامع ، كان عليك أن ترتقي سلماً ذا ثلاث عشرة
درجة . ولا يزرع في هذه الجهات إلا الحنطة ، وتغل غلة
حسنة . ويكثر في قراها أشجار الزيتون والتين والفسق واللوز
والكرمة ، ومياه المعرة تجمع من المطر ، أو تمتاح من الآبار . اهـ
وذكر الميمني^(١) أن [ناصر خسرو] دخل المعرة في ١٣
رجب سنة ٥٤٣٨ هـ ، ولم يلبث فيها الا يومين .

الطلسم الذي كانه في المعرة :

وهذا الطلسم ذكره غيره من المؤرخين ، قال ابن الشحنة^(٢) :
وبمعرة النعمان عمود فيه طلسم للبق ، ذكر أهل المعرة أن
الرجل كان يخرج يده وهو على سور المعرة إلى خارج
السور ، فيسقط عليها البق فإذا أعادها زال عنها . وأخبرني
رجل من أهلها قال : رأيت أسفل داري عموداً ففتحت موضعه

(١) الميمني : أبو العلاء وما اليه ص ٢٤٤ .

(٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ١٢٩ ، ١٣٠ .

لأُستخرجه ، فانخرق إلى مغارة ، فأنزلت إليها إنساناً ظناً مني أنها مطلب ، فوجدناها مغارة كبيرة ، ولم نجد فيها شيئاً ، ورأيت في الحائط صورة بقّة ، فمن ذلك اليوم كثّر البق في معرة النعمان . وذكر أهل المعرة أن حيّاتها لا تؤذي كما تؤذي غيرها ، ثم قال : وقال كمال الدين ابن العديم سمعت ابراهيم ابن أبي الفهم رئيس المعرة يقول : إن العمود القائم في مدينة المعرة هو طلسم الحيات ، وهذا العمود قائم مستقر على قاعدة بؤرة حديد في وسطه ، يميله الإنسان فيميل ، وكذلك تعمل فيه الرياح القوية ، وإذا مال يضع الناس تحته الجوز واللوز فينكسر . ١٥

وأمر هذا العمود غريب ، وتناقض الأقوال فيه أغرب . فقد جعله ناصر خسرو سارية بالقرب من باب المدينة ، وجعله طليّماً للعقارب . وفي كلام ابن الشّحنة أنه عمود قريب من السور وهو طلسم للبق .

وفي كلام ابن العديم : أنه عمود يميله الانسان والريح ،

وهو طلّسم للحيات ، وصاحب نهر الذهب جعلها عمودين :
أحدهما للبقي والثاني للحيات . ولعل هذا من المزايم الموروثة
عند أهل ذلك العصر .

أما في عصرنا الحاضر فإن العقارب والأفاعي في المعرة أكثر
من الحصى عند جمرة العقبة ، وهي تفتك فتكاً ذريعاً في
الناس ، وكثيراً ما أودت بحياة لديغها ، وإن البق - أي البعوض -
يتشرب في الصيف والخريف انتشاراً عظيماً ، وينقل جراثيم
الملاريا وغيرها ، وقل من سلم من أهلها منها ، وهو ينبعث من
المستنقعات والمراحيض المتكونة في المدينة وأطرافها .

وقد كانت في المعرة مستنقعات عظيمة ، منها : الرام الكبير ،
والرام الصغير ، وهما جنوبي المدينة ، ومنها : الهارب ، وهو
في عرفهم بحيرة تنصب إليها المياه القذرة التي تسيل من الحمامات .
وكان في المحلة القبلية هارب لحمام السيد يوسف ، وهذه البحيرة
تسقي بمائها الأرض المتصلة بها ، وفي البحيرة أقدار متراكمة
منذ مئات من السنين .

وكان في المحلة الشمالية هارب أعظم من هذا ، وهو شرقي
الجامع الكبير ، يفصل بينهما طريق من الشمال إلى الجنوب ،

وهذا الهارب تنصب فيه المياه التي تخرج من الحمام الصحتاني ،
والتي تخرج من حمام التكية ، والاقذار التي تفيض من مراحيض
الجامع الكبير . وهذه المياه لونها أسود ، وهي خائفة من كثرة
ما يخالطها من الاقذار والاساخ ، ويسقى بها زرع الأرض
المتصلة بها ، وتسمى أرض الهارب ، وما زاد عن السقي يذهب
في الأرض ويتبخر في الهواء ..

وقد عنت الحكومة في العهد الأخير بإزالة هذه المستنقعات
الضارة ، وقلت المملاريا بسبب ذلك ^(١) .

وسياتي القول في زراعة المعرة ومياهها وجامعها وأسواقها .
وذكر ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٨ هـ : أنه خرج من
تسنين يريد حمص ، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار
فرسخين بلاد المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والفسق

(١) وقد باشرت بلدية المعرة في عهد ريسها : الدكتور اكرم الخاني سنة
١٩٦٢ م بإنشاء مجاري عامة لمدينة المعرة ، وبعد م إنشاء الفرع الجنوبي
منها ، وبلغت تكاليفه ما يقارب ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف ليرة سورية ، وسيباشر
قريباً بإنشاء الفرع الشمالي والفروع الداخلية ، وقد رصدت البلدية لهذه
الأعمال ١٧٨٠٠٠ مائة وثمانين ألف ليرة سورية .

وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساكنيها وانتظام قراها مسيرة
يومين ، وهي أخصب البلاد وأكثرها أرزاقاً^(١) .

ونقل ابن العديم^(٢) عن أبي الفتح عبد العزيز ... بن زيد
المصري أنه قال : وصلت معرة النعمان ، فوجدتها واسعة
الأسواق ، كثيرة الأرفاق ، صحيحة الهواء ، واسعة الفضاء ،
مياها غزيرة ، وفواكهها كثيرة ، وأهلها يميلون إلى الخير
والتعفف ، ويعيشون بالقناعة والتخفف ، وفيهم بعض الحية ، وشيء
من العصبية ، ولهم مع هذا معرفة بالشر والخصومة ، وعادة السعاية
والنميمة ، غير أن ذلك لا يتعداهم ولا يتجاوزهم إلى أحد سواهم .

وقال ابن العديم في (بغية الطلب)^(٣) : قرأت بخط محمد بن
أحمد ابن الحسن الكاتب في روزنامج (أي كتاب الاخبار اليومية)
أنشأه وذكر فيه رحلته من بلاد أذربيجان إلى الحج ، وعوده
منه ... قال فيه : ونزلنا بسرمين ، فاستقبلني القائد بها
بالأكرام والانعجام ، وركب في صحبتي إلى معرة النعمان ، بل مقر
الروح والريحان ، بل زهرة العين والجنان ، بل معدن البيان

(١) ابن جبير : الرحلة ٢٣٤ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٠ - ١ عن بغية الطلب لابن العديم .

واللسان والرجحان ، في الأدب والشعر واللاتقان ، بل محل كل كريم وهجّان . وهي مدينة تبل غلة الظمآن ، وتفتأ غلة الغرثان السقبان .

وقال ابن واضح الكاتب : ومعة النعمان مدينة قديمة خراب ، وأهلها تنوخ^(١) .

وقال ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ^(٢) : هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حنص بين حلب وحماة ، مأوّم من الآبار وعندم الزيتون الكثير والتين .

وقال ابن بطوطة في رحلته (تحفة النظار)^(٣) التي أنشأها سنة ٧٢٥ هـ : والمعرة مدينة كبيرة حسنة ، أكثر شجرها التين والفسق ، ومنها يحمل الى مصر والشام .

وقال العزيزي : هي مدينة جليلة عامرة ، كثيرة الفواكه والثمار والخصب ، وشرب أهلها من الآبار .

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٤١ ، ٦٠٧ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ٣٩ .

ونقل أبو الفداء^(١) في (تقويم البلدان) قول العريزي هذا ،
ونصه : ومعة النعمان مدينة جيدة عامرة

وقال محمد الانصاري شيخ الرّوبة^(٢) : معة النعمان وتعرف
بذات القصرين ، ولها عمل من أحسن الاعمال ، وهي شَعْرَاء^(٣)
مدودة ، وغالب شجرها التين والفسق واللوز والمشمش والزيتون
والرمان والتفاح وكثير من الفواكه ، وسائرها يشرب من ماء
السما ، لا يعتني بفلاحته أكثر من الحرث تحته ، وجبل السماق
من أعمر الارض وأعملها فلاحا ، من رآه ورأى الاندلس ،
لم يفرق بين فلاحها وفلاحة الاندلس .

وقال القزويني في (آثار البلاد) المتوفى سنة ٦٨٢ هـ : معة
النعمان بليدة بين حلب وحماة ، كثيرة التين والزيتون .
وقال ابن العديم في (بغية الطلب^(٤)) ما خلاصته : المعة مدينة
حسنة ، وكان لها سور من الحجارة ، وأبنيتها أبنية حسنة ،
وهي كثيرة الاشجار والفواكه ، لا سيما التين والفسق والزيتون ،

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٥ .

(٢) شيخ الروبة : نخبة الدهر ٢٠٥ .

(٣) أرض شعراء : كثيرة الشجر .

(٤) انظر ما سبق ص ٨٣ .

وكان الفرنج هجموها ، وتشتت أهلها ، ثم فتحها أتابك زنكي
ابن آق سُنْقَر ، ورد على أهلها أملاكهم ، فعادوا إليها وسكنوها ،
وعمرت المدينة عمارة حسنة ، لكن سورها خرب .

وبنى بها الملك المظفر محمود بن ناصر الدين محمد بن عمر
شاهنشاه قلعة حسنة حصينة ، وانتزعها من يده الملك
صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز غياث ، فزاد في عمارتها
وتقويتها ، فقويت قلوب أهلها بالقلعة ، ورغبوا في عمارة البلد
وسكناء ، وهي اليوم من أعمار البلاد ، وقد صار أكثر عبور
القوافل عليها . وقد وصفها أبو العلاء في رسالة بعث بها إلى أمير فقال :
« وهذه جمل من صفة المعرة هي ضد ما قال الله عز وجل :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ^(١) .
الآية .. اسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المورِدُ بها يُحْتَبَسُ
وظَاهِرُ تُرَابِهَا يَبَسُ ، لَيْسَ لَهَا مَاءٌ جَارٍ ، وَلَا تَغْرَسُ فِيهَا
غُرَابُ الْأَشْجَارِ ، وَإِذَا أُبْرَزَ لِأَهْلِهَا ذَبْحٌ ، يُؤْمَلُ بِهِ لَدَيْهِمْ
الرَّيْحُ ، تَحْسِبُهُ صَيْغٌ بِخَطَرٍ ، فَكَأَنَّمَا يَرْمُقُ بِهِ هِلَالَ الْفِطْرِ ،
وقد يجيئها وقت يكون فيه جَدْيُ الْمَعْرِ فِي الْعِزَّةِ كَجَدْيِ
الْفَرَقْدِ ، ومثل حَمَلِ الْكَوَاكِبِ حَمَلِ النَّمْدِ ، وَيُيَكْرُ فَقِيرُهَا

على الهداية ، قَبْلَ أَبِي الْفَرَّخَيْنِ ابْنِ دَايَةَ ، حتى يقف ببائع
الرسل ، فَكَأَنَّمَا وَقَفَ بِرِضْوَانٍ يَسْتَوْهِبُهُ مَاءُ الْحَيَوَانِ ، فَإِنْ
سَبَقَهُ ضِيَاءُ الْفَجْرِ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ خَائِبًا ... » :

وهذا وصف حقيقي للمعرة في ذلك العهد ، وإن كان في
بعضه مبالغة ، وأكثره تبدل بتبدل الزمان . فان العرة ليس فيها
ماء جار على وجه الأرض ، ولكن فيها ينابيع ثرارة في باطن
الأرض ، يستخرج ماؤها بواسطة الدواليب وغيرها ، فتألف منها
بساتين كثيرة ، وقد غرس فيها غرائب الأشجار التي يمكن أن
تعيش في إقليمها ، كالزيتون والرمان والعنب والتين والفسق
واللوز والتفاح والخوخ والأجاص والكمثرى وغيرها ، ولكن
أكثره لا يدوم طويلاً ، لشدة الحر في الصيف والبرد في الشتاء .
وهناك أنواع من الشجر لا تعيش فيها كالنخل والموز والليمون
والبرتقال وما شاكل ذلك .

أما اللحم وما تولد من الحيوان ، فيكثر في زمن الربيع ،
ويقل في زمن الشتاء ، وكذلك كل نوع من المأكول ، يكثر
في موسمه ويقل بعد ذلك .

ولذلك أسباب كثيرة ، منها : بعد الأمصار العامرة عن
المعرة كحلب وحماة ، وقلة الوسائط لنقل الاقوات والارزاق
والسلع وتشعث الطرق ، وكثرة الاحوال فيها في الشتاء ، ولأن
أصحاب الغنم يبتعدون بها عن المدينة بعد زمن الربيع ، وهذا
شأن أكثر المدن في ذلك العهد .

أما في عصرنا الحاضر فهي كغيرها من البلاد الشامية ، تعج
أسواقها بالارزاق والغلات والثمرات التي تزيد عن حاجة
أهلها ، وعما يصدرونه إلى غيرها من المدن . وأهلها إلى هذا
العهد ييكر كل واحد منهم لأخذ ما يحتاج إليه من طعام
وشراب من الاسواق ، ثم ينصرف الى عمله ، والذي يحملهم
على التبكير ان الإنسان إذا بكر وجد الشيء الجيد والثمرات
الطيبة ، وإذا تأخر لا يجد غير الفضلات من كل شيء ، وربما
فقد حاجته في الاوقات التي يقل فيها الشيء ، أو في الاشياء
التي تجلب من خارج المدينة .

أما قلة الجدي والحمل واللبن على نحو ما وصف ، فلم نره
ولم نسمع به الى زمن هجرتنا من المعرة سنة ١٣١٩ هـ .

وقد وصف المعرة كثيرون في عهد أبي العلاء وبعده
وقبله ، وتكاد تتفق كلمتهم على كثرة فواكهها وثمارها ، حتى
ان منها ما يحمل إلى مصر والشام .
ويجوز أن يكون اللحم في ذلك العهد قليلاً لسبب لم نعلمه
ولم نسمع به .

وقد أهدى أبو العلاء بعض أصحابه شيئاً من الفستق ، وقال فيه :
« وفي هذا البلد فستق رديء ، يسمى غيظ الجيران ومعنى هذا
الكلام أنه إذا كسر ظن جيران السوء أنه ملآن ، فحسدوا
عليه ، وهم لا يعلمون أنه فارغ ، وقد وجهت منه شيئاً ليعبث
به أتباعه ، ولولا علمي بشرف أخلاقه وكرم نفسه لم أجسر
على ذلك ، وما أولاه بأن يحربي على العادة في التفضل إن
شاء الله تعالى » اهـ .

وقد كانت في دارنا في المعرة شجرتان ، تحمل احدهما فستقاً
كبير الحجم يتشقق لعظم لبه ، ولا تحمل الثانية مثله ، ويسميا
الناس ذكراً ، فاستثقلنا ما يسقط منها من الديدان والورق
وقطعناها ، فصارت الأولى تحمل فستقاً فارغاً ، فصارت غيظاً
لنا لا للجيران .

وبما لا شك فيه أن قول أبي العلاء في الجدي والحمل واللين
مبالغ فيه ، وإنما يراد به التقليل ، وقد استنبط الأستاذ الميمني
من قول أبي العلاء « إذا أبرز لأهلها ذنبه ، يؤمل به الربح .. »
أن أهل المعرة يوصفون بالبخل ^(١) وإن القفطي يؤيده في قوله
الآتي ، وسيأتي ما يبطل القولين معاً .

وكذلك قول أبي العلاء : انه وجه شيئاً من الفستق الفارغ ..
لا يراد به حقيقة ، لأنه يبعد كل البعد أن يهدي ذلك ، وإنما
أراد تحقير شأن الهدية بالنسبة إلى عظم من أهديت إليه .
وقال في بغية الطلب : ومن أحسن ما وقع إلي في وصفها
آيات قالها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن
المغربي ^(٢) ... والآيات :

مَا عَلَى سَاكِنِي الْمَعْرَةِ لَوْ أَنَّ ۡ دِيَاراً نَبَتْ بِهِمْ أَوْ طُلُولاً

(١) الميمني : أبو العلاء وما إليه ص ١٨ .

(٢) هو الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي من ولد بهرام
جور ملك فارس ، ويعرف بالوزير المغربي ، أديب شاعر كاتب ، ولد سنة ٣٧٠ هـ
وتوفي سنة ٤١٨ هـ أنظر بغية الطلب ج ١ : ١٧٩ ، ووفيات الأعيان
١ : ١٩٥ - ١٩٧ .

يَسْكُنُونَ الْعُلَا مَعَا قِلَ شُمَا وَيَرُونَ الْأَدَابَ ظِلًّا ظَلِيلًا
 مَنَزِلٌ شَاقِفِي أَيْسٍ وَمَا كَا نَ رُسُومًا نَوَاحِلًا وَطُلُولًا
 حَيْثُ يُدْعَى النَّسِيمُ فَظًا وَيُلْفَى سَبَلُ الْغَادِيَاتِ شَكْسًا بَخِيلًا
 أَيْنَمَا تَلْتَفِتْ نَهْجُ ظِلِّ طُوبَى وَتَجِدْ كَوْثَرًا أَغْرَ صَقِيلًا
 تُرْبُهَا طَيِّبُ الشَّبَابِ فَمَا يَصْـحَبُ إِلَّا الشُّرُودَ فِيهَا خَلِيلًا
 فَتَرَى اللَّهْوَ إِنْ أَرَذْتَ طَلِيلًا وَالتَّقَى إِنْ أَرَذْتَهُ مَغْلُولًا
 وَإِذَا مَا اعْمَزَى بِهَا الْأَقْبُ الْعُذُ رِيٌّ جَاؤُوا عِمَارَةً وَقَبِيلًا
 كَيْتَ لَا يَغْنَفُ السَّحَابُ عَلَيْهَا كَيْتُهُ جَادَهَا عَلِيلًا كَلِيلًا
 وَسَلَامٌ عَلَى بَنِيهَا وَلَا زَا لَ نَعِيمُ الْحَيَاةِ فِيهِمْ نَزِيلًا
 وقال الاصطخري^(١) في المعرة : هي وما حوالها من القرى
 أعداء ، ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين . وقد تقدم نحو
 هذا عن ابن حوقل .

وقال ابن العديم في (بغية الطلب) : « وقد شاهدت عين ماء
 من قبلي المعرة على الطريق بالقرب منها » . اهـ

(١) الاصطخري : مسالك الممالك ٦١ .

وأنا أقول : لعل هذه العين هي العين التي عند مَرَحَطَاب
وهي جنوبي المعرة على يسار الزاغب إلى حماة على بعد ساعة
تقريباً من المعرة .

وقال صاحب التنوير في شرح قول أبي العلاء ^(١) :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْخَاضِ وَحَارِمٍ كَتَائِبُ بُشَجِينَ الْفَلَا وَخِيَامُ
وَمَخَاض : نهر بقرب المعرة ، وكذلك قال الخوارزمي في
(ضرام السقط) ، وكذلك قال الفيرُوزَابادي في (القاموس)
والزبيدي ^(٢) في (تاج العروس) .

وقد نقبت كثيراً فلم أجِدْ نهراً بقرب المعرة ، ثم رأيت
التبريزي يقول في (شرح سقط الزند) : المخاض نهر يخاض في
الأرض التي تعرف بالروج ، وهي قريبة من معرة النعمان ،
والتقى في هذا الموضع عسكريان ، أحدهما للمسلمين ، وأمير
العسكر الذي للمسلمين بنجوتكين ^(٣) التركي ، الذي اصطنعه

(١) التنوير على سقط الزند ، وانظر شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٠٣ .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٥ : ٨٥ .

(٣) هكذا جاء في التبريزي والبطليني وفي غيرهما « منجوتكين » (ج)
وانظر شروح السقط ق ٢ ص ٦٠٣ .

أبو منصور نزار الملقب بالعزیز بن معد الملقب بالمعز ، فتقاتل
العسکران والمخاض بینہا ، ثم عبر المسلمون الیہم ، فانہزموا .
وذكر البطلانیوسی فی (شرح سقط الزند) نحواً من هذا ، وقال :
المخاض نهر ینحاض قریب من المعرة بأرض تعرف بالروج .
وما تقدم یتبین ان المخاض لیس بنهر ، ولا قریب من المعرة
قرب اتصال ، بل بینہا مسافة بعيدة .

وقد وصفها عمر بن الوردی المعری المتوفی سنة ٧٤٩ ھ فی
مواطن من شعره ، ووصف الطبیعة فیها ، وذكر كثيراً من
الأماكن الجمیلة ، ومواضع التنزه ، وسمى بعض العیون الی
ینبجس منها الماء ، فقال من قصیدة مطلعها :

قِفْ وَفَقَّةَ الْمُتَسَالِّمِ الْمُتَأَمِّلِ بِمَعْرِةِ الثُّعْمَانِ وَأَنْظُرْنِي وَلي

* * *

[منها] :

يَا سَعْدُ زُرْ أَرْضَ الْمَعْرِةِ نَائِباً	عَنِّي وَسِرْ فِيهَا مَسِيرَ مُبْجَلٍ
وَادِي الْمَعْرِةِ فِي النُّفُوسِ مُعْظَمٌ	لَا سِيَّماً زَمَنَ الرَّيِّعِ الْمُقْبِلِ
هَرَمَاسُهَا لَمَّا تَخَضَّبَ سَيْفُهُ	بَعَثُوا إِلَيْهِ مِنَ النَّسِيمِ بِصِقْلٍ

* * *

[منها] :

وَأَرَى نَضَارَتَهَا وَبَابَ شَبَابِهَا ^(١) ضَمِنَا لِسَاكِينَهَا بِسَعْدٍ مُكْمَلٍ
 قَلْبِي لِعَيْنِ زُرِّيْقٍ صَادِشِينَ مَنْ أَلْفَ الْعِتَابِ وَلَا مَ لَوْ مَ مُضَلِّلٍ
 لَوْ زُرْتُهَا لَفَتَحْتُ بَابَ جَنَّاتِهَا وَأَقُولُ يَا نَفْسُ اطْمَئِنِّي وَادْخُلِي
 إِنَّ الْقُلُوبَ إِلَى الْقُلُوبِ مَشُوقَةٌ قَدْ أَذْكَرْتُهَا بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
 وهي في ديوانه ^(٢)

ووصفها في قصيدة ثانية مطلعها :

رَعَى اللَّهُ عَيْشًا بِالْمَعْرَةِ لِي مَضَى حَكَاهُ ابْتِسَامُ الْبَرْقِ إِذْ هُوَ أَوْ مَضَا
 وَعَصَرَ شَبَابٍ فِي سِيَاثٍ قَطَعْتُهُ وَفِي أَرْضِ حَنْدَوْتَيْنِ فِي ذَلِكَ الْفَضَا
 أَعَاذِلُ لَوْ شَاهَدْتُ بَابَ جَنَّاتِهَا لَمَّا كُنْتُ يَوْمًا نَاهِيًا بَلْ مُحَرَّرًا
 وَلَوْ عَايَنْتُ عَيْنَاكَ وَادِي فَضَالَةٍ عَذَرْتُ صَحِيحَ الْوُدِّ بِالْبُعْدِ مُنْرًا
 وَلَوْ عَيْنَ مَعْرَاةٍ رَأَيْتَ صَفَاءَهَا لَا صَبَحْتُ مِنْ غَيْظِ الْمَلَامَةِ رِيضًا
 فَصِيفْ لِي عُيُونًا بِالنَّابِيعِ قُبُضًا أُرِيكَ عُيُونًا بِالْمَدَامِيعِ فَيُضَا
 وَلَا تَبْدُرَا بِالْبَيْدَرَيْنِ فَأُضْلِعِي أَخَافُ مِنَ الْأَشْوَاقِ أَنَّهُ تَتَفَضَّضَا

(١) لعله : « سيانها » . (ج) .

(٢) ابن الوردي : الديوان ٢٦٢ (ج) .

وَلَا تُجْزِي بَالِي ذِكْرَ جَرِيَا وَنَحْوِهَا رَبِّي جَادَهَا غَيْثٌ فَرَوَى وَرَوْضَا
فَقُسْتُهَا عِنْدَ ابْتِسَامِ ثُغُورِهِ يُضَاحِكُ بَرْقًا قَدْ أَضَاءَ بِذِي الْأَضَا
وَقَلَعْتُهَا عِنْدِي وَإِنْ بَانَ أَهْلُهَا كَأَطْوَلِ مِنْ سُهْدِي عَلَيْهَا وَأَعْرَضَا
وَعَيْنُ زُرَيْقٍ بِي إِلَى مَا نَهَا ظُلْمًا أَلَمْ تَرَ لَوْنَ الْمَاءِ أَزْرَقَ أَيْضَا
وَكَمْ لِعَلِيَّاتِ الْعَسِيلِ حَلَاوَةً وَإِنْ مَلَحَتْ فِي عَيْنٍ مِنْ مَرْمَعِرِ ضَا
وَشَوْقِي إِلَى أَنْوَارِ مَشْهَدِ يُوشَعٍ تَشَوْقُ مِنْ ضَا قَتْ بِهِ سَعَةُ الْفَضَا
وَلَوْ ذُرْتُ وَادِي دَيْرِ سَمْعَانَ سَاعَةً لَكُنْتُ أَيْلَ الشَّوْقِ مِنْ عُمَرِ الرِّضَا
وَيَا مَاشِيًا فِي مُلْكِ فَارِسَ رَاجِلًا

سَعِدْتُ فَكُنْ عَنْ مُلْكِ فَارِسَ مُعْرِضَا
لَقَدْ طَالَ بِالْهَرَمَاسِ عَهْدِي وَمَا نِي إِذَا مَا جَرَى كَالسَّيْفِ أَحْمَرُ مُنْتَضَى
ثم وصف الهرماس وما يكتنفه في مجراه ، ومدح المعرة
وأعرب عن حنينه إليها وأسفه لفراقها ، ثم قال :
سَلَامٌ عَلَى ذَاتِ الْقُصُورِ وَأَهْلِهَا وَمُسْتَقْبَلٍ مِنْ حُسْنِ حَالٍ بِهَا مَضَى
وهي في ديوانه^(١)

(١) ابن الرودي : الديوان ٣٢١ (ج) .

طول المعرة وعرضها :

وقال [القلقشندي] في (صبح الأعشى)^(١) في حدود حماة :
وحدتها من الشمال آخر حدود المعرة من الغرب .
وذكر لها ثلاثة أعمال ، ثالثها عمل المعرة ، قال : وهي مدينة
من جُندِ حمص واقعة في الإقليم الرابع . قال في كتاب
الأطوال : طولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ،
وعرضها خمس وثلاثون درجة .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان)^(٢) : القياس أن طولها إحدى
وستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة
وخمس وأربعون دقيقة ، وتعرف بمعرة النعمان ...

أبواب المدينة :

قال في (الروض المعطار) : ولها سبعة أبواب ، باب حلب ،
والباب الكبير ، وباب شيث ، وباب الجنان ، وباب حمص ،

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ٤ : ١٤١ (ج) .

(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

وباب كذا^(١). قال : ويذكر أن قبر شِيث بن آدم - عليه السلام -
عند الباب المنسوب إليه فيها ، وداخلها قبر يوشع بن نون عليه
السلام ، وعلى ميل منها دَيْرِ سَمْعَانَ^(٢) ، الذي به قبر عمر بن
عبد العزيز ...

ولعل البايين اللذين لم يذكرهما باب حُنَّاك ، وقد ذكره
أبو المجد ابن ابن أخي أبي العلاء بقوله :
يَا مَغَانِي الصَّبَا يَبَابِ حُنَّاكِ لَا يَبَابِ الْغَضَا وَوَادِي الْأَرَاكِ^(٣)
وباب تَلْسَمَنْس .

وقال الغزي في (نهر الذهب) :^(٤) وكانت المعرة بلدة
عظيمة ، تدل أطلال سورها على أن طولها ساعة في عرض
مثلها ، وكان لها من جهة القبلة باب يسمى باب نصره عند
تل كبير يذكر أن فيه كنزاً ، ومن جهة الغرب باب يدعى
باسم السيد شِيث ، يبعد عن قلعتها نحو عشر دقائق ، وكانت

(١) مكدا في صبح الأعشى ج ٤ : ١٤٢ (ج) .

(٢) ويقال : دير سمعان بالكسر .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٤٩ .

(٤) كامل الغزي : نهر الذهب ١ : ٤١٩ .

القلعة في وسط البلدة ، ومن جهة الشمال باب يدعى باب
أبلّة ، عنده باب ضخّم يدل على أنه من بناء السريان ، ومن
جهة الشرق باب يدعى باب مَنَس ، لأنه يخرج منه الى تَلّ
مَنَس ، وهي الآن قرية معروفة كان ظهر فيها عاديّات
زجاجية وأسس ضخمة ا هـ .

هذا ما نقلته عن المتقدمين ولم تتبين فيه الأبواب السبعة ،
والعامة من أهل المعرة يزعمون أن للبلدة سبعة أبواب ، باب
شيث ، وهو في موضع يقال له : النّحيا في الشمال الغربي من
المعرة . وباب الزيت عند موضع يقال له : رام الزيت .
وباب الهنا أو باب حناك عند أطلال حصن حُناك . وباب
نصرة عند تل بَنَصْرَة الواقع في جنوبي المعرة . وباب فارس
على مقربة من مدفن عمر بن عبد العزيز في الدير الشرقي
المعروف بدير سمعان . وباب منس على مقربة من قرية يقال لها :
تل منس . وباب إيلا على الطريق الآخذة من المعرة الى حلب ،
وان كل واحد من هذه الأبواب على بعد ساعة من المعرة .
ولا شك أن هذا الزعم قائم على الوهم والتخمين ، ولعل

سببه أن العامة سمعوا أن المعرة كانت مدينة جليلة ، لها سبعة أبواب ، منها باب شيث وغيره ، فوضعوا أبواباً سبعة ، وضافوا كل باب الى شيء . وأخذ صاحب (نهر الذهب) كامل الغزي قول العامة فعول عليه ، والدليل على ذلك وعلى بطلانه ، أننا لا نعرف في عصرنا ولا سمعنا من شيوخ المعرة الذين أدركوا العصر الذي قبله ان هناك باباً يقال له : باب نصره ، وإنما المعروف أن هناك تلاً يقال له : تل بَنْصَرَة ، والعامة تزعم أنه محرف عن باب النصر . وسيأتي أن باب إيلاء قرية على بعد ساعة من المعرة . وليس بينهما ما يدل على أنها كانت باباً للمعرة ، وأن القلعة ليست في وسط المدينة ، بل تبعد عنها أكثر من عشر دقائق . كما ان باب شيث لا يبعد عن القلعة أكثر من هذا القدر ، ولو كانت في وسط المدينة لكان باب شيث في طرفها أو فيها . وكذلك لا يعرف أهل هذا العصر باباً في جهة الشرق يقال له : باب مَنْس .

والذي يخيّل إليّ أن هذه الابواب كانت للسور ، منها : باب شيث ، وهو في الجهة الشمالية ، وباب الجنان ، وهو في الجهة الغربية يخرج منه الى وادي الجنان . وباب حُنَّك وهو

في الجنوب الغربي يخرج منه الى حصن حُناك ، وهذا الباب ذكره أبو الجهد^(١) محمد ابن ابن أخي أبي العلاء في قوله الآتي :
يا مغانى الصِّبا يباب حُناك

وسياتي ان داره يباب حناك ، وتعرف بمدار القبة . وباب حصن في الجهة الجنوبية ، على الطريق الآخذة الى حماة ، وهو الذي احرقه قرعونه سنة ٣٦٤ هـ كما سياتي . وباب حلب في الجهة الشرقية على الطريق الآخذة الى حلب . وأما الباب الكبير فلعله في الجهة الشرقية ايضاً . ولعله الذي زعم الناس انه باب منس ، وأما الباب الآخر فلم اهتم اليه .

قلعة المعرة :

سيأتي أن المعرة صارت في سنة ٦٢٦ هـ للملك المظفر محمود صاحب حماة ، وفي سنة ٦٣١ هـ نزلها ، وفيها تم بناء قلعتها ثم شحنها بالسلاح والرجال .

(١) في الأصل : « ذكره أبو الجهد محمد أخو أبو العلاء » . وأبو الجهد كنية لملين أحدهما محمد بن عبد الله بن سليمان ، وهو أخو أبي العلاء ، والثاني محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ، وهو ابن ابن أخي أبي العلاء . والبيد لهذا الأخير كما عزاه إليه المؤلف في الصفحة ٩٧ وكما في ياقوت ٣٤٩/٣ .

وفي سنة ٦٣٥ هـ حاصر الحلييون قلعة المعرة ، ثم اخذوها وخربت المعرة بسبب ذلك ، وقد استنجد الحلييون عسكرياً من الخوارزمية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباز^(١) فأمدهم بخيار عسكريه فملكوا المعرة .

وفي سنة ٦٣٨ هـ نهبت الخوارزمية بعدما خربوا حلب . وفي سنة ٦٥٨ هـ قدم التتر على المعرة وخربوا قلعتها وأسوارها . فيكون بناؤها قد تم سنة ٦٣١ هـ وقد هدمت سنة ٦٥٨ هـ ومدة بقائها عامرة سبعاً وعشرين سنة ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الحصون والقلعة والسور .

المعرة مركز للبربر والحمام الزاجل :

وذكر القلقشندي في (صبح الأعشى^(٢)) مراكز البربر في طريق حلب ، وعدد المراكز إلى حمص ، ثم الرستن ، ثم حماة ، ثم المعرة ، ثم أنقراتا ، ثم إياد ، ثم قنسرين ، ثم حلب . وذكر أيضاً في مطار الحمام الرسائي وأبراجها المقررة الآخذة من دمشق وما يتفرع عنها فقال : وأما

(١) في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٥ : ٣٩٤١ : كيقباز .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١٤ : ٣٨١ (ج) .

إلى جهة حلب ، فتسرح من دِمَشْق إلى قارا^(١) (كذا) ، ثم من قارا إلى حِمَص ، ثم من حِمَص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب .

وقال^(٢) في الكلام على نيابات حماة : وليس بخارجها نيابات ، بل يقتصر فيه على ثلاث ولايات ، ولاتها أجناد ، يوليهم النائب بها ، الأولى ولاية بَرِّها كما في دمشق وحلب ، الثانية ولاية بارين ، الثالثة ولاية المعرة ، وليس بها عرب ولا تُزَكِّمان .

واجتاز بالمعرة السائح التركي أوليا چلي^(٣) سنة ١٠٥٩ هـ وذكرها في رحلته المطبوعة في الأستانة ، وهذه خلاصة ترجمتها : المعرة قاعدة لواء يرأسه باشا ، ويتبع إيالة حلب ، وهذا اللواء منح بطريقة الأربلق^(٤) إلى الدفتردار^(٥) إبراهيم باشا ، أخي أحمد باشا الهزاربارة^(٦) ، وذلك حين كان ذا ثلاثة أطواغ .

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤ : ١٢ ، ١٣ : قارة .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٤ : ٢٣٩ .

(٣) اسمه محمد ظلي .

(٤) أي عيناً أو نقداً .

(٥) هو مدير المال .

(٦) أي صاحب الألف قطعة .

وكان يُحصل للدفتر دار المذكور منه أربعون ألف قرش ،
ومقدار الخاص العائد لباشا هذا اللواء (٢٣٠٠٠٠) آقجة ^(١) ،
وفيه سبع زعامات ، وسبع وثمانون تيارا ^(٢) ، ورئيس جند ،
وأمر لواء ، ورئيس مئة . ويبلغ عدد جنده مع ما يجتمع
من الجيجية وجند الباشا نحو (١٥٦٠) ، وقضاؤه شريف يبلغ
مرتبه ثلاثمائة آقجة ، ويحصل لقاضيه ستة أكياس . وفيه شيخ
إسلام ، ونقيب أشراف ، وكان أهله فقراء ، ولذلك لم يكن
عندهم حكام زائدون . وقلعة المعرة خراب ، والبلدة في مكان
محجر ، وفيها (٨٠٠) دار مشيدة بالحجر جميلة ومختصرة
في الجبل ، وفيها ستة وعشرون معبدا ذا محراب . وماؤها نبع
يكون في شهر تموز بارداً كالثلج ، وهذا الماء هو أحد المياه
ذات الرائحة ، وقد اشتهر بذلك في كل مكان .

ثم سرد حكاية أبي العلاء المغربي لما كان ببغداد ، وأتوه بماء
المعرة والتذبه ، وقال : سبحان الله لا بد أن يكون هذا ماء المعرة ،
أو أن ماء المعرة أتى به إلى هنا ، لذلك اشتهر بين أهل البلاد العربية
مثل : سبحان الله هذا ماء المعرة ، فأين هواؤها . وفي الحق
أن ماء المعرة وحلب وهواءهما لا نظير لهما في الأقاليم السبعة ،

(١) هي قطعة من النقد الصغير المتداول في ذلك العصر .

(٢) هو محصل الاعشار من الأرضين .

وفي المعرة خان وحمام وأربعون إلى خمسين دكاناً ، وفيها
انتشرت كروم التوت والزيتون ، وفي أرض المعرة القديمة
دفن يوشع بن نون عليه السلام ، عاش مائة وعشرين عاماً ، وقد
رأيت له قبرين ، الأول في طَرَأْبُلس الشام ، والثاني في المعرة ،
ولعل أحدهما مقام له . وفي المعرة مقام ومزار حضرة
أبي العلاء المعري . ٥١ .

ما تعاقب عليها من الحوادث والكوارث ، وما حدث فيها الى عهد جديد ،

الترك عنها :

قد رأيت ما عثرنا عليه في كلام المتقدمين من وصف
المعرة وضاحتها بما يمثل لنا شبحاً ضيقاً بما بلغت إليه من
الحضارة والعمران ، وكنا نود أن نقسم الكلام في ذلك إلى
أنواع ، نبين في كل نوع حالتها السياسية والاجتماعية والعقلية ،
ولكن قلة المأخذ ، وفقدان تاريخ خاص بها ، اضطرنا إلى
الاكتفاء بما أوردناه على النمط الذي تخيرنا . وقد تعاقب على
هذه البلدة الطيبة ضروب من الكوارث والمصائب التي طمست
معالمها وشوهت نضرتها من -روب طاحنة وقتن مدمرة ،

وقاسى أهلها من العذاب والهون والسيى والقتل والنهب من المتغلبين والخارجين على السلطان وغيرهم ما لم يقاسه أحد . ولم يسعفنا التاريخ بالاطلاع على تلك الحوادث تامة ، حتى نورد لها متناسقة ، ونميز كل نوع من غيره ، فبين كلا منها في فصل على حدة ، ونضيف إلى ذلك فصلاً فيمن وليها من الأمراء ، وآخر فيمن تغلب عليها ، وآخر في القضاة وغيرهم . ولكننا نزلنا على حكم الضرورة ، فسررنا الحوادث المختلفة على ترتيب السنوات ، وسلكنا سبيل الإيجاز بقدر الطاقة .

في سنة ١٤١ هـ أسكن أبو جعفر المنصور بعض العشائر في البلاد الخالية المجاورة بلاد المردة في لبنان ، فجلا الأمير فند بن مالك وأخوه الأمير أرسلان بجماعة من عشيرتهما من بلاد المعرة ، فنزلوا في وادي التيم في الحصن المعروف بحصن أبي الجيش ، ثم تفرقوا في جبل لبنان ، وعمروا الخالي من أرضه ^(١) .

في سنة ٢٠٨ هـ قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين وزير

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ١ : ٦٨ (ج) .

المأمون لهدم حصون الشام ، فهدم سور المعرة ، وحصن الكفر ، وحصن حنّاك^(١) ، وغيرهما من حصون المعرة^(٢) .

وفي سنة ٢٢٦ هـ قلد الراضي محمد بن رائق أمير الأمراء ببغداد طريق الفرات ، وديار مضر ، وجند قنسرين والعواصم ، - وقد بينا أن المعرة منها - .

وفي سنة ٢٣٢ هـ ولي ناصر الدولة بن حمدان على أعمال ابن رائق كلها .

وفي سنة ٢٤٥ هـ حدث زلزال عظيم في الشام في شباط ، وسقطت من ذلك كنيسة حنّاك الكبرى وغيرها .

وفي أيام المستعين بالله وثب بالمعرة المعروف بالفصيص ، وهو يوسف بن ابراهيم التنوخي ، فجمع جموعاً من تنوخ وصار إلى مدينة قنسرين ، فتحصن بها ، ولم يزل بها حتى قدم محمد المولد مولى أمير المؤمنين ، فاستماله واستعمل عطيف بن نعمة ، وصار إليه ، ثم قتل عطيفاً وهرب إلى الجبل الأسود ، وكانت خلافة المستعين من سنة ٢٤٨ هـ إلى سنة ٢٥٢ هـ تقريباً .

(١) سيأتي بيانها . (ج)

(٢) وجد في هامش الدر المنتخب لابن الشحنة ان ذلك كان سنة ٢٠٧ هـ (ج) .

وفي سنة ٢٧٦ هـ ملك الثغور والعواصم والرقّة أحمد بن طولون ، ثم ملكها اسحق بن كنداج بعد وفاة ابن طولون ، بعد أن استأذن الموفق بذلك .

وفي سنة ٢٨٨ هـ حفر لؤلؤ^(١) والي المعرة غلام وصيف ابن صوراكين أمير حمص ، خندقاً على المغرة ، وحاصرها جيهير بن محمد التنوخي ، وبنو كنانة ، وطال الحرب بينهما ، ثم انصرف عنها ، ولم يستطع فتحها .

وفي الانصاف لابن العديم أن جيهير بن محمد التنوخي ولي معرة النعمان .

وفي سنة ٢٩٠ هـ حضر القرمطي ، واسمه الحسين ، ثم تسمى أحمد أبا العباس الملقب بصاحب الشامة المهدي ، لشامة كانت في وجهه ..

وأغرى أبا الحجر المؤمل بن المصباح ، وهو رجل كردي تولى أقالمة من قبل الخليفة نجو أربعين سنة ، فأوقع بأهل المعرة ،

(١) لعل لؤلؤا هذا هو الذي اخرج من حمص من قبل الإخشيدية لقتال المتني ، حين ادعى النبوة في بادية السماوة ونحوها ، كما ذكر ذلك التنوخي صاحب نشوار المحاضرة ص ٦٠٩ (ج) .

حتى قتلهم قتلاً ذريعاً ، ثم لما قتل القرمطي أسرى إلى هذا
الكردي ابراهيم وأنجوا إبن الفصيبي فأوقعا به ، فهرب
حتى ألقى نفسه في بحيرة أفامية فأقام بها أياماً ، وقتل ابنه ،
فقال فيه بعض شعراء المعرة :

تَوَهَّمَ الْحَرْبَ شَطَرْتَجاً يُقَلِّبُهَا لِلْقَمَرِ يَنْقُلُ مِنْهُ الرِّيحُ وَالشَّاهَا
بَجَازَتْ هَزِيمَتُهُ أَنْهَارَ فَامِيَةٍ إِلَى الْبُحَيْرَةِ حَتَّى غَطَّى فِي مَاهَا

وذكر ابن خلدون في تاريخه^(١) : أن القرمطي هذا استباح
حِمص وحماة والمعرة ، وخطب له فيها . وقال ابن المذهب المعري
في تاريخه : إن القرمطي قتل في معرة النعمان بضعة عشر ألفاً ،
وأقام يقتل وينهب ويحرق خمسة عشر يوماً ، وأنه التقى سنة
٢٩١ هـ بعساكر الخليفة المكتفي في تمنع ، وهي من المعرة
على الطريق الآخذة من حماة إلى حلب ، فانهزم أبو شامة ،
وابن عمه المدثر ، وغلाम رومي ، ثم أمسكوا ، وقتلهم الخليفة
في بغداد .

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤ : ٨٦ (ج) .

وذكر ابن خلدون في تاريخه^(١) : أن ذُكِرَ وَثِيَه بن مَهْدِيَه^(٢) .
داعية القرامطة سار من حنص إلى حماة والمعرة وبَغْلَبَك ،
ثم إلى سَلَمِيَّة ، فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان
والبهائم ، ونهب سائر القرى من كل النواحي .

وفي (إعلام النبلاء)^(٣) : أن المكتفي لقي القرامطة ، بين تل
بنش وكفر طاب في عشرة آلاف فارس ، فنصره الله عليهم ،
وما ذكرناه أقرب إلى الصواب وإلى ما ذكره المؤرخون ،
ولعله تل مَنَس ، ولعل تمنع هي القرية المعروفة الآن
بالتمانعة ، وهي قرب خان شيخون شرقي طريق السيارات
الآخذة من المعرة إلى حماة .

وفي مجلة المجمع العلمي العربي^(٤) : نحو ما ذكرناه عن
ابن المهذب وابن خلدون وكذلك في الشذرات^(٥) في حوادث

(١) ابن خلدون : العبر ٤ : ٣٠٩ (ج) .

(٢) وفي أعلام الزركلي : زكروية بن مهرويه .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ١ : ٢٣٢ .

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ : ٦٠٨ (ج) .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ٢ : ٢٠٦ .

سنة ٢٩١ هـ ، وفي (مرآة الجنان) لليافعي^(١) أيضاً : أن القِرْمَطي قتل وسبى في المعرة .

وفي سنة ٣٢٣ هـ عملت الجهة القبلية في المسجد الجامع في المعرة بالرخام والفصوص والجص ، وقد صنع ذلك أخوان من دمشق ، اسم أحدهما متوكل ، وبقي إلى أن أحرقه نقفور سنة ٣٥٧ هـ^(٢) .

وفي سنة ٢٢٥ هـ وردت بنو كلاب من نجد ، وأغارت على المعرة ، فخرج إليهم والي المعرة مُعَاذ بن سعيد بجنده ، وتبعهم إلى البراغيثي ، فعطفوا عليه وأسروه وأكثر جنده ، وأقام فيهم أياماً يعذبونه حتى خلاصه والي حلب أبو العباس أحمد بن سعيد ابن الكلابي^(٣) .

وفي سنة ٣٣٢ هـ استعمل ناصر الدولة بن حَمْدَان محمد بن علي بن مُقَاتِل على قَنَسَرين والعواصم ورحمنص

(١) اليافعي : مرآة الجنان ٢ : ٢١٨ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣٦٨ (ج) .

(٣) راضب الطباخ : إلام النبلاء ١ : ٢٤٠ .

ثم استعمل بعده في السنة المذكورة ابن عمه الحسين بن سعيد
ابن حمدان على ذلك ^(١) .

وفي أبي الفداء ^(٢) في حوادث سنة ٣٥٦ هـ : وقيل :
إن أول من ملك حلب من بني حمدان الحسين بن سعيد وهو
أخو أبي فراس حمدان .

استيلاء سيف الدولة على المعرة :

وفي سنة ٣٣٢ أو ٣٣٣ هـ استولى سيف الدولة على
حلب ودمشق وما بينهما ، وأقام حيناً في دمشق ، ثم
خرج إلى الأعراب ، فلما عاد منعه أهل دمشق من دخولها
فبلغ الإخشيد ذلك ، فسار من الرملة ، وتوجه يطلب سيف
الدولة ، فلما وصل طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب بغير
حرب ، لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الإخشيد إلى
أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم ، فخرج سيف الدولة

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٩٦ ، ٩٧ . وابن الوردي :
التاريخ ١ : ٢٧٦ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١١٣ .

ولقيه بأرض قنشرين ، وكان الاخشيد جعل مطارده وبوقاته في المقدمة ، وانتقى من عسكره عشرة آلاف سباهم الصابرية فوقف بهم في الساقة ، وحمل سيف الدولة على مقدمة الاخشيد فهزمها ، وقصد قبته وخيمته ، وهو يظنه في المقدمة ، فحمل الاخشيد ومعه الصابرية ، فاستخلص سواده ، ولم يقتل من العسكرين غير مُعَاذ بن سعيد والي معرة النعمان من قبل الاخشيد ، فانه حمل على سيف الدولة لياسره ، فضربه سيف الدولة بمستوفى ، وهو عمود من حديد طوله ذراعان ، مربع الشكل ، له مقبض مدور في وسطه كان معه ، فقتله وهرب سيف الدولة ، فلم يتبعه أحد من عسكر الاخشيد ، وسار على حاله الى الجزيرة ، فدخل الرقة ^(١) .

وفي سنة ٣٣٨ هـ احترق حصن أفامية .

وفي سنة ٣٣٩ هـ نزل بسيل ملك الروم على افامية ، وسيأتي الكلام في هاتين الحادتين .

(١) يشوف : محفة الأنبياء في تاريخ حلب الشهاب ٣٣ . راغب الطباخ :

إعلام النبلاء ١ : ٢٥١ - ٢٥٦ .

وفي سنة ٣٣٩ هـ يبس شجر الزيتون في المعرة من البرد الذي
نجم عن الثلج والجليد اللذين لم ير لهما مثال ، حتى قيل :
إن الفرات جمد ومشى الناس عليه ، وكانت القدور وهي
على النار يحمد أعلاها .

وفي سنة ٣٤٩ هـ جاء الجليد والبرد حتى جمد الفرات
والقدور على النار ويبس الزيتون في المعرة وكَفَرَطَاب^(١).

وفي سنة ٣٥٤ هـ عصى أهل أنطاكية على سيف الدولة ،
وسبب ذلك أن رجلاً من أهل طَرَسُوس يسمى رَشِيقا النَسِيمي ،
كان مقدماً فيها ، وكان من جملة من سلمها الروم ، ثم خرج
إلى أنطاكية ، فلما وصلها خدمه انسان يعرف بابن الأهوازي ،
كان يضمن الأرحاء^(٢) بأنطاكية ، فسلم إليه ما اجتمع عنده
من حاصل الأرحاء ، وحسن له العصيان ، وأعلمه أن سيف
الدولة بَمِيَّافَارِقِينَ قد عجز عن العود إلى الشام ، فعصى
واستولى على أنطاكية وسار إلى حلب ، وجرى بينه وبين

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٥٩ (ج) .

(٢) لعلها جمع رَحَى التي يطحن بها ، انظر معجم البلدان لياقوت ١ : ١٩٦ .

تا (٨)

النائب عن سيف الدولة ، وهو قَرْعُونَه ، خروب كثيرة ، صعد
قرعونه إلى قلعة حلب فتحصن بها ، وانفذ سيف الدولة
عسكرياً مع خادمه بشارة نجدة لقرعونه ، فلما علم بهم
رَشِيق انهزم عن حلب ، فسقط عن فرسه ، فنزل إليه انسان
عربي فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى قرعونه وبشارة ، ووصل
ابن الأهوازي إلى انطاكية ، فظهر إنساناً من الدَّيْلَم اسمه
دِزْبَر ، وسماه الأمير ، وتقوى بانسان علوي يقيم له الدعوة ،
وتسمى هو بالأستاذ ، فظلم الناس وجمع الأموال ، وقصد
قرعونه إلى انطاكية ، وجرت بينها وقعة عظيمة ، فكانت على
ابن الأهوازي أولاً ، ثم عادت على قرعونه ، فانهزم وعاد إلى
حلب . ثم إن سيف الدولة عاد من مَيَّافَارِقِينَ عند فراغه
من الغزاة إلى حلب فأقام بها ليلة ، وخرج من الغد فواقع
دزبر وابن الأهوازي ، فقاتل من بها ، فانهزموا وأسر دزبر
وابن الأهوازي ، فقتل دزبر وسجن ابن الأهوازي مدة ثم
قتله ^(١) . وقد ذكر ياقوت ^(٢) في معجم البلدان في «حندوثا» :

(١) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٢٢١ (ج) .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٤٧ .

أن مقدمي المعرة عضوا مع ابن الأَـهـوازي على سيف الدولة ،
ولم يسم منهم إلا محمد بن إسماعيل الخندوثاني أحد وجوه المعرة
وأعيانها ، كما سيأتي ذلك في ترجمته .

وقال العُكْبَرِي^(١) في (شرح ديوان المتنبي) : شبيب بن جرير
العقيلي ، من قوم كانوا من القرامطة ، وكانوا مع سيف الدولة ، وولي
شبيب معرة النعمان دهرأ طويلاً ، واجتمع إليه جماعة من العرب
فوق عشرة آلاف ، وأراد أن يخرج على كافور ، وقصد دَمَشَقَ
فحاصرها ، فيقال : إن امرأة ألفت عليه رحي فصرعته ،
وذكر العكبري أقولاً آخر في موته .

وشبيب هذا ذكره أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي يمدح
بها كافوراً ، وأولها :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
فقال :

بِرَّغَمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ وَكَانَ عَلَى الْعِلَاتِ يَصْطَلِحَانِ^(٢)

(١) العكبري : شرح ديوان المتنبي ٢ : ٤٣٨ .

(٢) ابراهيم اليازجي : العرف الطيب ٥١٢ .

وفي سنة ٣٥٦ هـ مات سيف الدولة ، وملك بعده أبو المعالي سعد الدولة شريف ، وكان له غلام يقال له : قرعونه ^(١) ، فتغلب عليه واستولى على حلب ، وأخرجه منها سنة ٣٥٨ هـ إلى حماة ، ثم صالحه سنة ٣٥٩ هـ ، وكان أبو المعالي في حِمص ، وخطب له في حلب ، ثم اتفقا على أن يخطب كل منهما في عمله للمُعِزِّ العلوي صاحب مصر ، وكان لقرعونه غلام اسمه بكجور ، فاستنابه قرعونه ، فلما قوي أمره قبض على قرعونه ، وحبسه في قلعة حلب ، وأقام بها ست سنين ، ولما استبد بكجور بالأمر كتب أهل حلب إلى أبي المعالي شريف أن يقصد حلب ، فسار إليها ، فحصرها أربعة أشهر ، ثم ملكها سنة ٣٦٦ هـ ، وبقيت القلعة بيد بكجور ، ثم طلب الأمان على أن يوليه حِمص ، فأجابه إلى ذلك وسيره إليها واستلم القلعة . وكان بكجور يتقرب إلى العزيز صاحب مصر ، وطلب منه أن يوليه دِمَشق فوعده بذلك .

(١) كتبه بعضهم قرعوية . وآخر فرغوية وآخر . وآخر . وقد ضبطه ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ٦٣ : بفتح القاف واسكان الراء وضم العين ثم وار ثم نون ثم هاء اخره (ج) .

وفي سنة ٣٥٧ ^(١) افتتح نقفور ملك الروم المعرة ، وأحرق
المسجد الجامع فيها وأكثر الدور ، وهرب الناس إلى الحصون
والبراري والجبال ، ثم سار إلى كَفَرطَاب ، وشيزر ،
فحاة ، فحمنص .

وفي سنة ٣٥٩ هـ ^(٢) ملك الروم أنطاكية وقتلوا أهلها ،
وسبوا عشرين ألف صبي وصبية ، ثم قصدوا حلب فلكوها ،
وحصروا القلعة ، ثم اصطلحوا على مال يحمله قَرُوعُونَه غلام
سيف الدولة بن حَمْدَان المتغلب على حلب إلى ملك الروم في
كل سنة ، وكانت المصالحة على أن يحمل المال المقرر على حلب
وما معها من البلاد ، وهي حماة ، وحمص ، وكَفَرطَاب ،
والمعرة ، وأقامية ، وشيزر ، وما بين ذلك من الحصون والقرى ،
وعلى أن لا يمكن قرعونه أهل القرى من الجلاء إذا أراد
الروم الغزو ليبْتَاع الروم منهم ما يحتاجون إليه ، ودفع أهل

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٢٩٥ ، ابن تغري بردي : النجوم

الزاهرة ٤ : ١٩ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ٢٠٧ (ج) .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١١٦ ، كامل القزي : نهر

الذهب ٣ : ٦٥ ، إعلام النبلاء ١ : ٢٥٣ (ج) .

حلب الرهائن بالمال إلى الروم ، فرحلوا عن حلب ، وعاد المسلمون إليها ، والمال الذي اصطالحوا عليه ثلاثة قناطير ذهباً عن حق الأرض ، وسبعة قناطير ذهباً عن خراج بلاد حلب ، وقنشرين ، وحمص ، وحماة ، وجوسية ، والمعرة ، وكفرطاب ، وأفامية ، وشينز ، وجبل السماق ، ومعرة مصرين ، والآثار وغيرها . وعن كل حالم دينار في السنة ، سوى ذوي العاهات ، وأن يكون للملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها . وقد عقدوا هدنة مؤبدة ، ولكن سعد الدولة لم يعترف بهذه المعاهدة التي جرت بين قرعونه والروم ، وظل في معرة النعمان ، فأخرب الروم حمص ليحملوه على الاذعان ، ولكن جاءته نجات فعمرها .

وفي سنة ٣٦٤ هـ خلع بكجور قرعونه وأسره ، وحاصر المعرة ، وكان فيها عامل قرعونه ، وأحرق أحد أبوابها المسمى باب حمص ، ونهب جيشه بنو كلاب .

وفي شوال سنة ٣٦٦ هـ سار أبو المعالي سعد الدولة من حلب وفتح المعرة وما يليها ، ونزل إلى حلب ومعه بنو كلاب ، ووقع القتال بينه وبين بكجور .

وفي ابن القلانسي^(١): ملك أبو المعالي المعرة ، وأخذ غلاماً كان غلب عليها يقال له : زهير ، فقتله وسار عنها . وفيها خرج ملك الروم بانس بجيوش جناحها في عقاب الرّوج ، والآخر في الفرزّال من علاّة معرة النعمان ، ونزل على أقامية .

وفي سنة ٣٨١ هـ توفي سعد الدولة ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل سعيد الدولة ، ووصى به لؤلؤ بن عبد الله السيّفي الكبير ، وهذا كان مولى لسيف الدولة مقدما عنده وعند ولده سعد الدولة ، وقد قدمه على أصحابه وجعله مدبر الملك بعده . فلما ولي أبو الفضائل كان هو المدبر للملكه ، وقد تزوج أبو الفضائل ابنته وأقام بحلب إلى أن توفي سنة ٣٩١ هـ مسموماً ، ويقال : إن لؤلؤاً سمّمه وسمّ ابنته زوجة أبي الفضائل فماتا من ذلك . واستولى لؤلؤ بغد موت أبي الفضائل على تدبير ابنه أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف ، ثم استقل بالأمر وأخرجها إلى مصر سنة ٣٩٤ هـ ، وبقي إلى أن مات سنة ٣٩٩ هـ .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٨ .

وفي سنة ٣٨٢ هـ وقع قتال بين منجوتكين والحمدانيين على أقامية ، فانهزم الحمدانيون .

وفي سنة ٣٨٣ هـ عاد منجوتكين فنزل على أقامية ، فسلمها إليه وفاء خادم سيف الدولة .

وفي سنة ٣٨٤ هـ عاد منجوتكين فحاصر حلب ، وقلت الأتوات ، فكان العزيز يمد عسكره بالميرة من غلات مصر إلى طرابلس ، ومنها على الظهور إلى أقامية .

وفي سنة ٣٨٦ هـ نزل الدوقس^(١) صاحب الروم على أقامية ، ووقعت حروب بينه وبين جيش بن الصنصامة ، ثم قتل الدوقس .
وفي سنة ٣٨٨ هـ وقعت النار في أقامية ، واحترق ما كان فيها من الأتوات ، ونشبت فيها حرب بين الدوقس وجيش .
وسياقي تفصيل هذه الحوادث .

وفي سنة ٣٩٣ هـ خرب لؤلؤ السيفي المعروف بالحراحي كَفَرُ رُوما ، وهي قرية من قرى المعرة ، وكانت حصناً حصيناً ،

(١) وفي قاموس الاعلام لشمس الدين سامي ٣ : ٢١٨١ : دوقس .

وخرب حصن عار ، وحصن أَرْوَح^(١) ، مخافة أن يقصدها^(٢) .
وفي سنة ٣٩٨ هـ سافر أبو العلاء المعري إلى بغداد ، وعاد
سنة ٤٠٠ هـ بعد أن أقام سنة وبضعة أشهر .

ولما مات لؤلؤ سنة ٣٩٩ هـ ملك حلب بعده ابنه منصور
أبو نصر مُرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ، فلقبه
مرتضى الدولة ، ثم فسد ما بينه وبين الحاكم .

وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح ، وكان دزدار^(٣) قلعة حلب ،
فعصى على استأذه وكاتب الحاكم وخطب له وأخذ منه
صِنداء ، وَيَزُوت ، وكل ما في حلب من الأموال ، واستولى
على حلب ، ثم سلمها إلى نواب الحاكم ، ولقب بمبارك الدولة
وسعيدها وعزها ، وسار مولاه أبو نصر بن لؤلؤ إلى أنطاكية ،
وكانت للروم ، فأقام عندهم ، وذلك في سنة ٤٠٦ هـ ، وقال
في النجوم الزاهرة^(٤) : استولى الحاكم على حلب ، وزال ملك
بني حمدان عنها في سنة ٤٠٤ هـ .

(١) وفي معجم البلدان ١ : ٢٢٤ : أروخ .

(٢) ابن الردي : التاريخ ١ : ٣١٨ .

(٣) أي محافظ قلعة حلب .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤ : ٢٣٥ .

ثم تولى حلب جماعة من نواب الحاكم ، منهم : مختار الدولة والي طَرَابُلُس ، ومُرْهَف الدولة والي صَيْدَاء ، ثم صارت بيد رجل من الحمدانيين يعرف بعزير الدولة أبي شجاع فاتك بن ابن الأثير . ولعل الصواب أنه عزير الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي مولى منجوتكين ، وكان أبو شجاع والي حلب من قبل المصريين في بعض أيام الحاكم ، وأيام الظاهر قتله بملوك له سنة ٤١٢ هـ أو سنة ٤١٣ هـ بقلعة حلب ^(١) .

وولي الظاهر مكانه رجلاً يعرف بابن شُعْبَانَ الكَتَّامِي ^(٢) ، وولي القلعة خادم يعرف بمَوْصُوف ، وبقيا فيها إلى أن انتزعاها صالح بن مِرْدَاس .

وفي سنة ٤١٤ هـ دخلت المعرة في حوزة آل مِرْدَاس ملوك حلب الذين تغلبوا على أعقاب بني حَمْدَانَ ، وانتزعوا سلطانهم من حلب والمعرة وغيرهما .

(١) وهذا الف له أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج والقائف وذكره في

رسالته إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحى (ج) .

(٢) وهذا عمل له أبو العلاء الرسالة السندية (ج) .

الدولة المرداسية :

كان أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس من بني كلاب بن ربيعة من عامر بن صعصعة من مُضر ، ومن عرب البادية. وكان بالرحبة رجل من أهلها يعرف بابن محكان^(١)، فملك البلد واحتاج إلى من يستعين به على من يطمع فيه ، فكاتب صالح ابن مرداس فقدم عليه وأقام عنده مدة ، ثم تغير صالح وسار إلى ابن محكان وقاتله على البلد ، ثم تصالحا ، وتزوج ابنة ابن محكان ودخل البلد ، إلا أن أكثر مقامه كان بالحلة . ثم راسل ابن محكان أهل عانة فأطاعوه ، ونقل ماله وأهله إليهم ، ثم خرجوا عن طاعته ، وأخذوا ماله ، واستعادوا رهائنهم ، وردوا أولاده ، فاتفق هو وصالح على قصد عانة ، وسارا إليها ، ثم دبس صالح إلى ابن محكان من يقتله ، فقتله غيلة ، وسار صالح إلى الرحبة فملكها وأخذ أموال ابن محكان ، واستمر على ذلك ، ولكن الدعوة كانت للمصريين .

وفي سنة ٤٠٢ هـ فسد ما بين الحاكم ومُرتضى الدولة أبي نصر

(١) في محيط المحيط للفيروزآبادي ٣/٣٢٨ : رجل محكان : عسر الخلق لجوج وسموا به .

ابن لؤلؤ ، فطمع فيه صالح بن مرداس وبنو كلاب ، وكانوا يطالبونه بالصلات والخلع .

ثم اجتمعوا في خمسمائة فارس ودخلوا حلب ، فأمر مرتضى الدولة باغلاق الأبواب ، وقبض على مائة وعشرين رجلاً ، منهم صالح بن مرداس ، وحبسهم ، وقتل مائتين ، وأطلق من لم يفكر به . وكان صالح تزوج ابنة عم له تسمى جابرة ، وكانت جميلة ، فوصفت لمرتضى الدولة ، فخطبها إلى أبناء إختوتها ، وكانوا في حبسه^(١) ، فقالوا : إن صالحاً قد تزوجها فلم يقبل منهم ، وتزوجها .

وبقي صالح في الحبس ، ثم صعد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلها واختفى في مسيل ماء حتى سكن عنه الطلب ، ثم سار بقيده ولبنة حديد في رجليه إلى قرية اليأسرية ، وهي قرية على نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان فعرفه جماعة من العرب ، فحملوه إلى أهله في مرج دابق ، وهي قرية قرب حلب من عمل عزاز ، بينها وبين حلب أربعة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٩ : ٩٤ (ج) .

فراسخ ، فجمع ألفي فارس وحاصر حلب اثنين وثلاثين يوماً ، فخرج إليه مرتضى الدولة ، فقاتله صالح وأسره وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبنته ، ثم بذل له مائتي ألف دينار ومائة ثوب ، وأطلق كل أسير عنده من بني كلاب ، فأخذ صالح ذلك ، وأطلقه ، ورحل عنه .

وفي سنة ٤١٤ هـ كان للمصريين نائب بالشام ، يعرف بأنوشكين الدزبري ^(١) ، ويده دمشق ، والرملة ، وعسقلان ، وغيرها ، فاجتمع حسان أمير طيء ، وصالح بن مرزاس أمير بني كلاب ، وسنان بن عليان أمير بني كلب ، وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة صالح ، ومن الرملة إلى مصر لحسان ، ودمشق ^(٢) لسنان ، فسار حسان إلى الرملة فحصرها ، وكان أنوشكين فيها ، فسار عنها إلى عسقلان ،

(١) هو أنوشكين بن عبد الله الأمير منتجب الدولة ، ولد ببلاد الترك ورحل إلى بغداد ، ثم إلى دمشق سنة ٤٠٠ هـ فاشتراه القائد دزبري ، ثم اتصل بالحاكم ، فبعثه إلى دمشق سنة ٤٠٦ هـ ، ثم أرسله إلى قتال صالح (ج) .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٢ : ٥٨٧ : دمشق الشام بكسر أوله وفتح ثانيه هكذا رواه الجمهور ، والكسر لغة فيه وشين معجمة وآخره قاف .

واستولى عليها حسان ونهبها وقتل أهلها ، وذلك في سنة ٤١٤ هـ .
وحاصر سنان دمشق سنة ٤١٦ هـ وجرت بينه وبين أهلها
حروب شديدة ، وخرب داريا وأعمالها ، ومات سنان سنة ٤١٩ هـ .
وسار صالح إلى حلب وبها ابن شعبان الكتّامي ، ومؤصوف
بالقلعة ، فسلم أهل حلب المدينة لإحسانه إليهم ، وسوء سيرة
المصريين معهم ، وصعد ابن شعبان إلى القلعة ، فحصره صالح
بها ، فغار الماء الذي فيها ، فلم يبق لهم ما يشربون ، فسلم
الجند القلعة إليه ، وذلك سنة ٤١٤ هـ ، وملك من بَغْلَبَكَّ
إلى عانة ، وأقام في حلب نحواً من ست سنين .

وتد أشار أبو العلاء إلى ما فعله صالح وسنان وحسان في مواضع
من شعره . كقوله في اللزوم :

أَرَى حَلَباً حَازَهَا صَالِحٌ وَجَالَ سِنَانٌ عَلَى جِلْقَا^(١)
وَحَسَّانٌ فِي سَلَفِي طِيءٍ يُصَرِّفُ مِنْ عِزِّهِ أَبْلَقَا
إلى آخر الأبيات .

(١) انظر لزوم ما لا يلزم ص ٣٠٥ .

وقوله فيه :

وَالرَّمْلَةُ الْبَيْضَاءُ غُودِرَ أَهْلُهَا بَعْدَ الرَّفَاةِ يَأْكُلُونَ قَفَارَهَا ^(١)
إلى آخر الآيات .

وقوله فيه :

قَدْ أَشْرَعَتْ سِنِينَ ذَوَابِلَهَا وَأَرْهَفَتْ بُحْتَرٌ عَوَامِلَهَا ^(٢)
لِفِتْنَةٍ لَا تَرَالُ بَاعِثَةٌ رَامِحَهَا فِي الْوَعَى وَنَابِلَهَا
حَسَّانُ فِي الْمُلْكِ لَا يَحْسُ هَذَا تُرْجِي إِلَى مَوْتِهَا قَنَابِلَهَا
إلى آخر الآيات .

وقوله فيه :

أَصَابَ الرَّمْلَةَ الْحَدَثَانِ يَوْمًا فَخَصَّ وَمَا يَزَالُ أَخَا اشْتِمَالِ ^(٣)
إلى آخر الآيات .

وقوله فيه :

أَلَمْ تَرَ طَيْئًا وَبَنِي كِلَابٍ مَمَّوْا لِبِلَادِ غَزَّةَ وَالْعَرِيشِ ^(٤)
إلى آخر الآيات .

(١) لزوم ما لا يلزم ص ١٤٣ وفيه : « بعد الرفافة ... » .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٨ وفيه : « ... بحتر معابله » .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٧ .

وقوله في (سقط الزند) :

وَمَا أَذْهَلْتَنِي عَنْ وِدَادِكَ رَوْعَةً وَكَيْفَ وَفِي أَمْثَالِهِ يَجِبُ الْغَبْطُ^(١)
وَلَا فِتْنَةً طَائِيَّةً عَامِرِيَّةً يُحَرِّقُ فِي نِيرَانِهَا الْجَعْدُ وَالسَّبْطُ
رَقْدًا طَرَحَتْ حَوْلَ الْفُرَاتِ جِرَانَهَا إِلَى نَيْلِ مِصْرٍ فَالْوَسَاعُ بِهَا تَقْطُو
أَرَادَ بِالطَّائِيَّةِ : قَوْمَ حَسَانَ أَمِيرِ طَنْيَّةَ ، وَسَنْبِسَ وَبُخْتَرِ : قَبِيلَتَانِ مِنْ
طَيْيَّةَ ، وَأَرَادَ بِالْعَامِرِيَّةِ : قَوْمَ صَالِحِ بْنِ مِرْدَاسَ ، وَهُمْ بَنُو كِلَابِ بْنِ
رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ .

وفي سنة ٤١٦ هـ استوزر صالح تاذرس النصراني ، وكان
عنده صاحب السيف والقلم .

وفي سنة ٤١٧ هـ^(٢) صاحبت امرأة يوم الجمعة في جامع
المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ،
وكان نصرانياً ، فنفر كل من في الجامع إلا القاضي والمشايخ
وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ، ونهبوه ، وحرقوه ، وقتلوا
الضامن ، وكان صالح بن مِرْدَاسَ صاحب جلب يومئذ في

(١) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٦٧٥ :

(٢) الظر تاريخ ابن الوردي ١ : ٣٢٨ - ٣٣٩ .

نواحي صَيناء ، وكان له وزير يقال له : تاذروس ، أو تاذرس
أو تادروس بن الحسن النصراني ، استوزره صالح سنة ٤١٦ هـ
وكان متمكناً عنده وصاحب السيف والقلم ، وكان أهل المعرة
قتلوا حماء الخوري ، فكان في نفس تاذروس شيء من أهل
المعرة من أجل حميه ، وكان يؤذيهم ويتبع قتله ،
حتى قتلهم وصلبهم . فلما أنزلوا عن الخشب ليضلى عليهم
ويدفنوا ، قال الناس : قد رأينا عليهم طهوراً بيضاً ، وما هي
إلا الملائكة ، يريدون بذلك كيد النصارى ، فبلغت هذه الكلمة
تاذروس ، فنقمها على أهل المعرة ، واعتلها ذنباً لهم وتربص
بهم السوء . فلما وقعت حادثة الماخور على ما ذكرنا وسوس
الوزير لصالح وأوغر صدره على أهل المعرة ، وكان صالح
قد وصل إلى حلب سنة ٤١٨ هـ ، فحاصر المعرة ، ونصب
المناجيق ، وشدّد الحصار عليها ، واعتقل سبعين رجلاً من
شيوخها وأعيانها في محبس الحصن ، ولبثوا سبعين يوماً ، وذلك
بعد عيد الفطر بأيام^(١) ، وكان تاذروس أشار على صالح بن
مِرْداس أن يقتل المهذب ، وهو الشيخ أبو الحسن ، وأبا المجد

(١) وفي ألواني بالوفيات : فبلغ الخبر أحد كبار كتاب صالح فقبض
على سبعين (ج) .
٩

محمد بن عبد الله بن سليمان ، أعني أخا أبي العلاء ، وأوهمه
أن في ذلك إقامة للهيبة ، فأبى صالح أن يوافقه على القتل ،
وقطع تاذروس على أهل المعرة ألف دينار .

وكان بعض بني سليمان جد أبي العلاء ممن اعتقل ، فلما
اشتد الحصار على أهلها ، وأنسوا من نفوسهم العجز عن مقاومته ،
لأنه جاءهم بما لا قبل لهم به ، جاؤا إلى أبي العلاء ، وقالوا له :
إن الأمر قد عظم وليس له غيرك ، وسألوه أن يخرج إلى
صالح بنفسه ، ويدبر الأمر برأيه إما بأموال يبذلونها ، أو طاعة
يعطونها ، فخرج أبو العلاء ، ويده في يد قائده ، فلما فتح له
باب من أبواب المعرة وخرج منه ، رأى صالح شيخاً قصيراً
يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء فجيثوني به ، فلما مثل
بين يديه سلم عليه ، ثم قال : الأمير أطال الله بقاءه كالنهار
المانع ، اشتد هجيرته وطاب أبرداه ، وكالسيف القاطع ، لأن صفحه
وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ،
فقال صالح : لا تثريب عليكم اليوم ، قد وهبت لك المعرة
وأهلها . ثم قال له : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقال أبو العلاء :

تَغَيَّبْتُ فِي مَنْزِلِي بُرْهَنَةً بَسْتِيرَ الْعُيُوبِ فَقِيدَ الْحَسَدِ^(١)
 فَلَمَّا مَضَى الْعُمْرُ إِلَّا الْأَقْلَ وَحُمٌّ لِرُوحِي فِرَاقُ الْجَسَدِ
 بَعِثْتُ شَفِيعاً إِلَى صَالِحٍ وَذَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأْيٌ فَسَدُ
 فَيَسْمَعُ مِنِّي سَجْعَ الْحَمَامِ وَأَسْمَعُ مِنْهُ زَيْبَرَ الْأَسَدِ
 فقال له صالح : بل نحن الذين نسمع منا سجع الحمام
 ونسمع منك زئير الأسد .

ثم أمر صالح بتقويض الخيام ، فنقضت ورحل ، ولم
 يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، ولو علم ذلك لسأل
 صالحاً رده .

ولما رجع أبو العلاء قال :

نَجَّى الْمَعْرَةَ مِنْ بَرَّائِنِ صَالِحٍ رَبِّ يُعَا فِي كُلِّ دَاءٍ مُغْضِلٍ^(٢)
 مَا كَانَ لِي فِيهَا جَنَاحٌ بَعُوضَةٍ اللَّهُ أَلْبَسَهُمْ جَنَاحَ تَفْضِلٍ

وبعضهم يقول : إن صالحاً استدعى إليه أبا العلاء ، وهو
 بظاهر المعرة ، وآخر يقول : استدعاه إليه ، وهو في حلب ،

(١) لزوم ما لا يلزم ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ ، وفيه : « .. رب يفرج كل أمر مغضل » .

وعلى كل رواية ، خرج إليه أبو العلاء وقال له : ما تقدم .
وقد دعي للمعتقلين على المنابر بآمد وميافارقين . وهذه القصة

رواها ياقوت في (معجم الأدباء) ، وابن العديم ، والقفطي ،
والذهبي ، وابن الوردي ، وصاحب (إعلام النبلاء) وغيرهم ،
ونقلت عن أبي غالب بن المهذب المعري في تاريخه ، وهو أوثق
الجميع ، لأن الحادثة وقعت في حياته ، وكلهم قد أخذ عنه .

وقد لخصنا ما ذكرناه من أقوال الجميع ، ولم يتبين لنا ظاهر
المعرة الذي كان فيه صالح ، هل هو في الشرق أم في غيره ، ؟
والغالب أنه الشرق ، فان لم يكن فالشمال ، لأنها أول ما يقابل
القادم من حلب إلى المعرة .

وأبو العلاء أشار إلى هذه الواقعة في اللزوميات ، حيث يقول :

أَتَتْ جَامِعَ يَوْمَ الْعُرْوَةِ جَامِعًا	تَقْصُّ عَلَى الشَّهَادِ بِالْمِصْرِ أَمْرَهَا ^(١)
فَلَوْ لَمْ يَقُومُوا نَاصِرِينَ لَصَوَّتِهَا	لَخِلَّتْ سَمَاءُ اللَّهِ تُطِيرُ جَمْرَهَا
فَهَدَّوْا بِنَاءَ كَانَ يَأْوِي فَنَاءَهُ	فَوَاجِرًا لَقَّتْ لِلْفَوَاحِشِ خُمْرَهَا

(١) م لا يلزم ص ١٣٨ .

وَزَامِرَةٌ لَيْسَتْ مِنَ الرَّبِّ بِدِخْصَبَتْ يَدَيَّهَا وَرِجْلَيْهَا تُنْفِقُ زَمَرَهَا^(١)
 أَلِفْنَا بِلَادَ الشَّامِ إِلْفَ وَلَادَةٍ نُفْلَا فِيهَا سُودَ الْخَطُوبِ وَخُمْرَهَا
 فَطَوْرًا نُدَارِي مِنْ سُبَيْعَةٍ لَيْثَهَا وَحِينًا نُصَادِي^(٢) مِنْ زَبِيعَةٍ ثَمَرَهَا
 إِلَى أَنْ قَالَ :

فَإِنِّي أَرَى الْآفَاقَ دَانَتْ لِظَالِمٍ يَغْرِهُ بَغَايَاهَا وَيَشْرَبُ خَمْرَهَا
 وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا مِنَ الْإِنْسِ لَمْ تَكُنْ سِوَى مُوسَى أَفْنَتْ بِمَآسَاءِ عُمْرَهَا
 تَدِينُ لِمَجْدُودٍ وَإِنْ بَانَ غَيْرُهُ يَهْزُلُ لَهَا بَيْضُ الْحُرُوبِ وَسُمْرَهَا
 إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

وفي سنة ٤١٩ أو سنة ٤٢٠ هـ جهر الظاهر صاحب مصر
 جيشاً إلى الشام ، أضافه إلى رافع أمير الكَلْبِيِّين لقتال صالح
 وحسان ، وكان مقدم العسكر أنوشتكين ، فاجتمع صالح
 وحسان على قتاله ، فاقتلوا بالأقحوانة على الأَرْدُنَّ عند طَبْرِيةَ ،

(١) زمر يزمر غنى في القصب وامرأة زامرة . والزماراة الزانية وزمرت

النعامة صوتت والريد النعام جمع ريداء وهي السوداء أو التي لونها

كلون الرماد أو التي في سوادها نقط بيض أو حر (ج) .

(٢) أي نداري (ج) .

فقتل صالح وولده الأصغر ، وأنفذ رأسهما إلى مصر .
ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح ، فجاء إلى حلب
فلما ، وكان لقبه شبل الدولة . فلما علمت الروم بأنطاكية
ذلك ، تجهزوا إلى حلب في عالم كثير ، فخرج أهلها إليهم ،
فحاربوهم فهزموهم ، ونهبوا أموالهم ، وعادوا إلى انطاكية ،
وبقي شبل الدولة مالكا حلب إلى سنة ٤٢٩ هـ .

وفي سنة ٤٢٠ هـ نهض أهل الغرب من ضياع المعرة ،
وأفامية ، وكفرطاب ، إلى كفرنبل ، وكان أهلها نصارى ،
فأرادوا قتلهم ، فامتعت النصارى أياها ، وأكثروا القتلى من
المسلمين ، ثم رحلوا منها سرا إلى بلد الروم ، فأعطوهم ضيعة
تعرف بنيكارين .

وفي سنة ٤٢٢ هـ ملك الروم قلعة أفامية بسبب حسان بن
مفرج الطائي أمير طيء وغنموا ما فيها وأسروا وسبوا .
وسياقي تفصيل ذلك في أفامية .

وفي سنة ٤٢٥ هـ حدث بالمعرة منصور بن علي بن منصور
أبو الحسين الهروي الواعظ غن أبي أحمد بن محمد بن
منصور الخالدي وغيره ، وروى عنه القاضي أبو غانم عبد الرزاق

ابن عبد الله بن المحسن بن عمرو التَّنُوخي المعري وغيره ، وهو
راجع من الحج .

وفي سنة ٤٢٩ هـ أرسل الدِّزْبَرِي العساكر المصرية إلى
شِبَل الدَّوْلَة ، وكان صاحب مصر حينئذ المستنصر بالله ، ولي
بعد وفاة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ ، فلقيهم عند حماة ، وقتل في
شعبان ، وملك الدزبري حلب في رمضان سنة ٤٢٩ هـ .

ولما كان أنوشتكين في دمشق كان يوجه إلى أبي العلاء
بالسلام ، ويحفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل ، فعمل
له كتاباً سماه (شرف السيف) .

وبقيت حلب في ملك الدزبري حتى توفي في جمادى الأولى
سنة ٤٣٣ هـ .

وكان أبو عَلَوَان ثَمَال بن صالح بن مِرْدَاس الملقب بِمُعِزِّ
الدَّوْلَة بِالرَّحِيَّة ، فلما بلغه موت الدزبري جاء إلى حلب ،
فلما تسامى من أهلها ، وحصر امرأة الدزبري وأصحابه في
القلعة أحد عشر شهراً ، ثم ملكها في صفر سنة ٤٣٤ هـ ، وبقي
فيها إلى سنة ٤٤٠ هـ .

وجهر ثمال إلى المعرة والياً ، فأساء التدبير ، فأنحرف عنه الناس ، وهرب ، فبادر جعفر أمير حمص ، وتجهز إلى المعرة بنفسه ، ولقيه مُقَلَّد بن كامل بن مُرداس ، فأوقع به وقتله ، وشهر رأسه بحلب .

ثم أنفذ المصريون: إلى محاربة معز الدولة أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان ، فخرج أهل حلب إلى حربه ، فهزمهم ، ثم عاد إلى مصر .

ثم أنفذ المصريون: إلى قتاله خادماً يعرف برقيق ، فقاتله أهل حلب ، فانهزم المصريون ، وأسر رقيق سنة ٤٤١ هـ ، ومات عندهم .

ثم أصاح معز الدولة أمره مع المصريين ، وأرسل إليهم الهدايا ، ونزل لهم عن حلب ، فأنفذوا إليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ، ولقبوه مَكِين الدولة ، فتسلمها من ثمال في ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ ، وسار ثمال إلى مصر في ذي الحجة ، وعمل أبو العلاء لمعز الدولة رسالة الضبعين .

وفي سنة ٤٤٠ هـ ^(١) كتب سيف الدولة مُقَلَّد بن كامل بن

(١) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣٥١ .

مِرْدَاس الكِلَابي ، وهو نازل في كَفَرطَاب في جمع من العرب ،
إلى واليه بالمعرة أبي خليفة ابن جهان ، أن يخرب سورها ،
ويهدمه كله إلا بُرْج وحيدة ، وبرج بني الحجال ، ومواضع قليلة
لעناية وقعت بها .

وفي سنة ٤٥٢ هـ جاء معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس
بجيشه إلى المعرة ، لقضاء قسم من فصل الشتاء ، وكانت وطأته
شديدة على أهلها .

وفي سنة ٤٥٤ هـ هم أهل المعرة بعمل السور ، ونصبوا عليه
المناجيق والعجل تجر الحجارة ، والجمل تحملها من شُبَيْث^(١)
وغيره ، وكان أميرها أبو الماضي ينفق عليه من ماله وجاهه ،
حتى كمل في شهور سنة ٤٥٥ هـ .

وفي تلك السنة أومض البرق ومضت وأعقبتها صيحة سقط
الناس لها على وجوههم ، وماتت بها طيور كثيرة في المعرة .

وفي سنة ٤٥٧ هـ أقطعت المعرة إلى الملك هرون بن خان
ملك الترك ، فيما وراء نهر جِيْنَحُون ، أخذها حرباً وخراجاً ،
ووصل إليها ومعه نحو ألف رجل من الترك ، والدِّيَّام ،
والكُرد ، والكرج ، مع حاشيتهم وأتباعهم ، وتعففوا فيها عن

(١) في معجم البلدان ٣ : ٢٥٧ : جبل بنواحي حلب .

الأذى ، حتى إنهم سقوا دوابهم الماء بثمره . ونزل بالمصلى ،
وجعل في حصن المعرة بعض حجابيه ، وأقام يسيراً ، ثم
نقل إلى حلب ، وعوض عن المعرة مالا ، قدم هذا إلى الشام ،
مغاضباً لأبيه ، وولي المعرة بعده الأمير فارس الدولة
يونس الصالحي .

وفي سنة ٤٦٠ هـ جاءت رعدة عظيمة في المعرة ، أغرمي على كثير
من الرجال والنساء والصبيان من صوتها ، وأعقبها سحب عظيم ،
كان معظمه على جبل بني عُليم ، وفيه برد ، فاقتلع الشجر ،
وجرى منه سيل في وادي سُنان ، الذي فيه العين ، فكان من
الجبل القبلي إلى الجبل الشمالي ، وغطى شجر الجوز ، وأخذ
صخرة يعجز عن قلبها خمسون رجلاً ، ومضى بها ، فلم يعرف
لها ذلك الوقت موضع .

وفي سنة ٤٦١ هـ جمع قطبان^(١) أنطاكية وقسها المعروف .
بالبخت جموعاً إلى حصن أسفُونَا^(٢) من قرى المعرة ، بعملية

(١) في نهر الذهب للغزي ٣ : ٧٢ : قطبان (ج) .

(٢) في تاريخ ابن الوردي ١ : ٣٧٣ أشعوبا ، وفي نهر الذهب للغزي

٣ : ٧٢ : اسقوبا ، والصواب أسفُونَا بفتح فسكون فضم الفاء

وسكون الواو ونون والفاء كما ضبطه باقوت في معجم البلدان ١ : ٢٤٩ (ج)

عملها لهم قوم يعرفون بيني ربيع من أهل جوزف ففتحوه
وقتلوا وأسروا رجاله وواليه نادراً التركي ، فانتهى خبر ذلك
إلى الأمير عز الدولة محمود بن نصر بن صالح ، وهو يسير في
ميدان حلب ، فسار إليه ولم يدخل البلد ، ومعه خمسون
ألفاً من الترك والعرب ، وأخذ من النصارى ، وقتل منهم
ألفين وسبعمئة نفس ، فقال أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين
يمدحه ويذكره :

عِدَاؤُكَ مِنْكَ فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ يُرِيدُونَ الْمَعَايِلَ أَنْ تَصُونَا
فَظَلُّوا حَوْلَ أَشْفُونَا كَقَوْمٍ أَنْتِي فِيهِمْ فَظَلُّوا آيَفِينَا

وهذا الحصن عمره حسين بن كامل بن حسين بن سليمان
ابن الدَّوح العُمرِّي المُرثدي^(١) الكِلابي ، ومعه جماعة من
المعرة ، وكَفَرطاب ، وضياعها في سنة ٤٥٦ هـ وأكمل عمارته
في مدة يسيرة ، فتعجب الناس لسرعة عمارته ، ثم إن محمود
ابن كُضر رهن ولده نصراً عند صاحب أنطاكية ، على أربعة

(١) في نهر الذهب للغزي ٣ : ٧٢ : المرشدي (ج) .

عشر ألف دينار^(١) وخراب حصن أسفونا إذا ملك حلباً ،
وأخذها من عمه عطية ، فلما ملكها أخرج عزيز الدولة ثابتاً ،
وشبل بن جامع ، وجما الناس من المعرة ، وكفرطاب ،
وأعمالهما ، وخربا الحصن المذكور ، وذلك سنة ٤٦١ هـ فقال
فيه بعض الشعراء :

وَهَدُّوا بِأَيْدِيهِمْ حِصْنَهُمْ وَأَعْيُنُهُمْ حَزَنًا تَدْمَعُ
عَجِبْتُ لِسُرْعَةِ بُنْيَانِهِ وَلَكِنْ تَخْرِيْبُهُ أَسْرَعُ^(٢)
وفي سنة ٤٦٢ هـ جاء السلجوقيون إلى أنحاء حلب ، فعاثوا
في المعرة كثيراً ، وأفسدوا .

وفي (إعلام النبلاء)^(٣) عن ابن العديم في تاريخه ، عن
أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد ، قال : كان أبو سالم

(١) في نهر الذهب للغزي : ٣ : ٧٢ ، ٧٣ : اقترض محمود بن نصر
من الروم أربعة آلاف دينار ، ورهن ولده نصراً عليها وعلى هدم الحصن
المذكور ، وما ذكرنا عن ابن الوردي في تاريخه ١ : ٣٧٣ وابن المذهب
المعري وياقوت في معجم البلدان ١ : ٢٤٩ (ج) .

(٢) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٧٣ .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٣٤١ ، ٣٤٢ .

ناجية غلام عز الدولة محمود متولي الشام ، وكان من الظلم على باب ما فتحه الحجاج ، وكان محمود قد أخرجه ليصادر الناس ، فحدثني من أثق به أنه صادر أهل المعرة ونواحيها ، ويزين ونواحيها على ستة عشر ألف دينار ، بعد ما هتك منها الأستار ، وكان ذلك لاضطراب عقل محمود من المرض الذي ناله ومات فيه وذلك في سنة ٤٦٧ هـ ومحمود هذا هو عز الدولة محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، وقيل توفي سنة ٤٦٨ هـ أو سنة ٤٦٩ هـ .

وفي سنة ٤٦٥ هـ هرب الأمير أبو الجيوش علي بن المقلد بن منقذ من حلب ، خوفاً من صاحبها الأمير محمود بن صالح ، حين عرف عزمه على القبض عليه ، ثم قصد المعرة ، وكفرطاب . وفي سنة ٤٧٢ هـ زحف تاج الدولة تئش السلجوقي بجيش من دمشق نحو شمالي الشام ، فأحرق أعمال جبل الشماق وبني عليهم ، وغرم أهل سزمين والمعرة مبالغ عظيمة ، وأنهب القرى في شرقي المعرة وحاصر تل منس ، ولم يظفر فيها بطائل ، وأحرق معرتاريجا في كورة كفرطاب ، ولعلها معرتارح .

وفي سنة ٤٧٩ هـ دخل الأمير كَضر بن علي بن مُنقِذ صاحب شينَزَر ، في طاعة السلطان مَلِكشاه ابن آلب ارسلان السلجوقي ، وسلم إليه اللأذِقِيَّة وكَفَرطاب وأفامِيَّة .

وفي سنة ٤٨٤ هـ ملك قسيم الدولة حصن أفامِيَّة .

وفي سنة ٤٨٨ هـ اقطع رضوان بن تُشش مدينة المعرة وأعمالها ، إلى سقمان بن أرتق أخي نجم الدين ايلغازي ، وفي سنة ٤٩٠ هـ خصب للبيدي بحلب ، وأنطاكيَّة ، والمعرة ، وشينَزَر شِهرآ ، ثم أعيدت الخطبة للعباسيين^(١) . وفي (إعلام النبلاء) : خطب له في جميع الأعمال أربع جمع ، سوى حلب^(٢) ، وأنصاكية ، والمعرة .

وفي سنة ٤٩١ هـ^(٣) خرج صنجيل في ذي الحجة ، وحصر البتارة ، وكانت من عمل المعرة ، فقل الماء على أهلها ، فأخذها بالأمان ، وغدر بأهلها ، وعاقب الرجال والنساء ، واستصفى أموالهم ،

(١) الطباق : إعلام النبلاء ٧٣/١ (ج) .

(٢) بعض المؤرخين يذكر أخذ المعرة في حوادث سنة ٤٩١ هـ ، وبعضهم يذكرها في حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ولا خلاف في ذلك ، لأن الاول نظر إلى مبدأ وصولهم إلى المعرة ، وقد كان سنة ٤٩١ هـ ، والثاني نظر إلى تاريخ استيلائهم وقد كان سنة ٤٩٢ هـ (ج) .

وسبى بعضاً ، وقتل بعضاً ، وذهبوا إلى الرُّوج بين حلب والمعة
وفي هذه السنة أخذ الفرنج أنطاكيّة ، فخرج من فيها من
الفرنج والأرمن الذين في طاعتهم ، وانضم إليهم النصارى ،
وانضموا إلى صنجيل . وكان ذلك في شعبان من السنة المذكورة
فوصلوا إلى المعة ، ونزلوا عليها لليلتين بقيتا من ذي الحجة
وقيل في اليوم التاسع والعشرين منه ، في مائة ألف ، وحاصروها
وقطعوا الأشجار ، وزحفوا إلى سور المعة من الناحية
الشرقية والشمالية في المحرم من هذه السنة .

واستغاث أهلها بالملك رِضوان ، وجنّاح الدولة ، فلم
ينجدهم أحد ، ثم اتخذ الفرنج برجا من خشب ، وأسندوه
إلى سورها ، فكان أعلى منه ، فزحفوا إلى البلد ، وقاتلوا من
جميع نواحيه ، حتى لصق البرج بالسور ، فكشفوه ، وأسندوا
السلام إلى السور فصعدوه ، وكانت رسل الفرنج تتردد إلى أهل
البلد في التماس التقرير والتسليم واعطاء الأمان على نفوسهم
وأموالهم ودخول الشحنة ، وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم
والآ يدخلوا إليهم ، بل يبعثون إليهم شحنة ، فمنع من ذلك

الحلف بين أهلها ، وثبت الناس في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب ، وقتل على السور وتحت خلق كثير ، ثم دخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرابع والعشرين^(١) من المحرم سنة ٤٩٢ هـ . وانهمز بعض الناس إلى دور حصينة ، وطلبوا الأمان من الفرنج ، فأمنوهم ، وغدروا بهم ، ورفعوا الصليبان فوق البلد ، وقطعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدور وهجموها ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطلبوا الناس بما لا طاقة لهم به .

وناموا فيها ، وجعلوا يهددون الناس حتى أصبحوا ، فاخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا النساء والصبيان ، ولم يسلم إلا القليل من كان في شينر وغيرها من بني سُليم ، وبني حُصين ، وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعاً كثيراً ، فاستخرجوا ذخائر الناس ومنعوا من الماء ، وباعوه منهم ، فهلك أكثرهم من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوماً بعد الهجمة ، ولم يبقوا بها ذخيرة

(١) قال ابن القلاسي في ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ - ١٣٦ : من اليوم الرابع عشر من المحرم (ج) .

إلا استخرجوها ، وهدموا سور البلد وبروجه ، وأحرقوا مساجده
ودوره ، وكسروا المنابر .

وفي (دائرة المعارف الفرنسية) ^(١) : أن الذي استولى على
المعرة وخربها يسمى بوهيمو سنة ١٠٩٩ هـ

وقد اختلفت كلمة المؤرخين في مقدار من جاءها من الفرنج
وأعوانهم من النصارى والأرمن ، وفي مقدار من قتل من أهلها
من يوم فتحها إلى أن جلا عنها الفرنج ، وفي مقدار إقامتهم
فيها ، فقال بعضهم ، ولم يعين بمقداراً : خرج جماعة من الفرنج
في شعبان ، وزحفوا مع أهل تل منس ونصارى المعرة فقاتلوا
ووصلت قطعة من عسكر حلب اليهم والتقوا بين تل منس والمعرة ،
فانهزم الفرنج ...

وفي سنة ٤٩١ هـ لليلتين بقيتا من ذي الحجة .. حاصروا المعرة ...
وقال في (النجوم الزاهرة) في حوادث سنة ٤٩١ هـ : إن الفرنج
ساروا إلى المعرة في ألف ألف إنسان ، وقتلوا مائة ألف إنسان ،
وسبوا مثلها ، وفعلوا مثل ذلك في كَفَرطاب .

• La grande encyclopédie 22: 851 (١)

† (١٠)

وقال ابن الشَّحْنَة في (الدر المنتخب)^(١) : تجمع الافرنج من أنطاكية والأرمن الذين في طاعتهم ، وانضم اليهم النصارى في مائة ألف ، ووصلوا الى المعرة وحاصروها ، وقطعوا الأشجار ، وعملوا برجاً من خشب ، وزحفوا الى البلد ، وقتلوا من جميع جوانبه ، ودخلوا البلد بعد المغرب ، فقتلوا نحو عشرين ألفاً من الرجال ، وقيل : مائة ألف ، وسبوا الجميع بعد أن أمنوهم ، وهدموا أسوارها ، وأحرقوا المساجد ، وكسروا المنابر ، وهدموا الدور ، وقال سبط ابن الجوزي : قتلوا من أهلها مائة ألف ، وسبوا مثل هذا العدد .

وقال ابن الأثير^(٢) في حوادث سنة ٤٩١ هـ بعد ذكر فتح أنطاكية : لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ، ساروا الى معرة النعمان ، فنازلوها وحاصروها ، وقتلهم أهلها قتلاً شديداً ، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ؛ ولقوا منهم الجِد في حربهم ، والاجتهاد في قتالهم ، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة ، ووقع القتال عليه ، فلم يضر المسلمين ذلك ،

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٢١٦ (ج) .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين ، وتدخلهم الفشل والهلع ، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فزلوا من السور ، وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ، فرأتهم طائفة أخرى ، ففعلوا كفعلهم ، فخلا مكانهم أيضاً من السور . ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول ، حتى خلا السور ، فصعد الفرنج اليه على السلام ، فلما علوه تحير المسلمون ، ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف ، وسبوا السبي الكثير وملكوه ، وأقاموا أربعين يوماً ، وساروا الى عِرْقَة ..

وقال في (النجوم)^(١) : وجاءوا الى المعرة ، فنصبوا عليها السلام ، فزلوا اليها ، فقتلوا من أهلها مائة ألف إنسان ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : وسبوا مثلها ..

وقال ابن القلاسي : ساروا اليها في ألف ألف إنسان ، فقتلوا وسبوا حسب ما ذكرنا^(٢) .

وقال ابن الغديم نحواً من قول ابن الشحنة ، وإنهم وصلوا

(١) ابن تقي بري : النجوم الزاهرة ٥ : ١٤٦ .

(٢) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦ .

المعرة لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف ، ثم قال :
وقتل على السور وتحتة خلق كثير . ثم ذكر أنهم لما أصبحوا
قتلوا خلقاً كثيراً ، وسبوا النساء والصبيان ، وقتل فيها أكثر
من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، ولم يسلم إلا القليل
من كان في شينور وغيرها ، وانهم قتلوا تحت العقوبة خلقاً كثيراً .
وأن أكثر الناس هلك من العطش ، ولكنه لم يحصر جميع العدد .
وفي أبي الفداء^(١) وابن الوردي^(٢) والكامل لابن الأثير^(٣) :
أن الفرنج استباحوا المعرة ثلاثة أيام ، ووضعوا السيف في
أهلها ، فقتلوا منهم ما يزيد على مائة ألف إنسان .

وذكر غيرهم : أنهم جاؤوها بمائة ألف من أنطاكية ، وضموا
اليوم الأرمن الذين كانوا في طاعتهم وبعض نصارى البلاد .
وقال ميشو .. : إنهم قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين
الذين اعتصموا بالمساجد ، واختبأوا في السرايب ، فأصبحت
خاوية على عروشها ، وفقد الفاتحون كل زاد ، وساءت حالهم ،

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٢١ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ١٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

ثم وقع بينهم الخلاف ، وصاروا يأكلون جثث الموتى ..
وفي (الدر المنتخب)^(١) : وملكوا معرة النعمان ، وقتلوا كل من فيها .
والذي اعتقده أن أهل المعرة لم يقتلوا كلهم في هذه الحادثة ،
بل نجى فريق منهم ، واعتصم بالبراري والجبال ، ولجأ فريق
منهم إلى شِيزَر وغيرها ، بدليل ما تقدم وما يأتي من أن
وجيها التنوخي دخلها بعد أخذ الفرنج إياها .

ففي كلام ميشو وغيره شيء من المبالغة يراد به : أنهم
قتلوا من بقي فيها ، ولم يعتصم بفرار أو لم يختبئ .
أما مدّة إقامتهم فيها ، فقد ذكر ابن القلانسي^(٢) : أنهم
دخلوها في المحرم ، ورحلوا عنها يوم الخميس السابع عشر من
صفر إلى كَفَرطاب ، ونقل عنه أنه قال : أقاموا عليها إلى أن
رحلوا عنها في آخر شهر رجب إلى القدس .

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٧٧ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٢٥ ، ١٢٦ .

وفي أبي الفداء^(١) ، وابن الوردي^(٢) ، و(الكامل)^(٣) : أقاموا فيها أربعين يوماً ، ثم ساروا إلى حِمص وغيرها .
وفي ابن العديم : وملكوها ثلاثة وثلاثين يوماً بعد الهجمة ، وهذا قريب من قول ابن القلانسي^(٤) أنهم دخلوها في الرابع عشر من المحرم ، ورحلوا عنها .
وقد استكثر بعض أهل العصر مقدار الغزاة والمقتولين من أهل المعرة .

والحق أن كون الفرنج وأعوانهم من الأرمن والنصارى ألف ألف كثير ، وأما كونهم مائة ألف أو يزيدون شيئاً قليلاً فقير كثير ، ولا يتسنى لأقل من هذا العدد العظيم أن يحصر المعرة ويفتحها لتكافؤ العتاد والعُدَد وقتل بين الفريقين ، ويزيد المعريون على أعدائهم شدة بأسهم واستماتتهم في الدفاع عن بيضتهم ، واتساع الرقعة ما بين أنطاكية مقر الفرنج

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٢١ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ١٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦ .

والمعرة ووعورة مسالكها يعوز إلى عدد كبير لمحافظة الجيش الفاتح كيلا يتخطفه أهل البلاد من أطرافه . وقد كان مثل هذا الجيش وأعوانهم يعيشون مما يغنمون من بلاد أعدائهم ، وليسوا مثل الجيوش المنظمة في هذا العصر ، تتكفل له الدولة بكل ما يحتاج إليه من عدة وعتاد ، وسلاح وذخائر ، ونفقات . ولهذا يتسنى لكل أحد أن يكون في زمرة الجيش ليغنم ويشفي غلة نفسه .

وأما كون المقتول من أهل المعرة مائة ألف ، والمسي منهم مثلها فغير كثير ، وذلك لأمر : أولها : أن المعرة كانت مدينة جليلة ، وكان أهلها كثيرين ، ولو كان عددهم قليلاً ما استطاعوا العصيان على سيف الدولة ، وصالح ابن مرداس حين حاصرها ، وقد قتل القرمطي وغيره من أهلها خلقاً كثيراً ، ولم تقفر من أهلها لكثرة الباقي منهم .

ثانيها : أن حول المعرة حصوناً كثيرة لها ، لا يزال بعضها عامراً أو ماثلاً إلى اليوم ، كحصن كَفَر رُوما ، وحصن حُنَّاك ، وغيرهما مما هدم بعد هذا التاريخ ، ومنها ما يبعد عن

المعرة في هذا العصر نصف ساعة على الفارس ، ومنها ما هو أكثر من ذلك . وقد قدمنا قولاً أن لها أبواباً سبعة ، بعد كل واحد منها ساعة ، وهذا يدل على اتساع رقعتها ، ولا يعقل أن تكون في هذه السعة مع قلة أهلها .

ثالثها : بما لا ريب فيه أن أهل القرى التي كان الفرنج يعرون بها في طريقهم إلى المعرة والقرى المجاورة إياها ، كانوا ينزحون منها إلى المعرة ليعتصموا بها ، وكذلك الأعراب الضاربون حولها ، فمن الجائز أن يكون اللاجئون من هؤلاء إلى المعرة بقدر أهلها أو أكثر ، ويجوز أن يكون جماعة أرادوا مياونة المعريين في الحرب فحاصروا مع أهل المدينة . ولا يستكثر على الفرنجة الفاتحين أن يقتلوا أضعاف هذا العدد ، بعد ما كتب لهم الظفر ، لأنهم أقسى قلوباً من الوحوش الضارية .

وخلاصة هذه الفاجعة على وجه التقریب أن الفرنج بعد أخذهم أنطاكية ، قصدوا المعرة بمائة ألف^(١) منهم أو يزيدون

(١) وفي النجوم الزاهرة ٥ : ١٦١ : ثم وردت الأخبار الى بغداد بأن الفرنج ملكوا أنطاكية وساروا الى معرة النعمان في ألف ألف انسان ، فقتلوا وسبوا حسب ما ذكرنا في أول ترجمة المستعلي هذا .

مع من انضم إليهم من الأرمن ونصارى البلاد ، فوصلوها
لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٤٩١ هـ ^(١) وحاصروها من الشمال
والشرق ، ثم حاصروها من جميع أطرافها ، وبنوا برجاً من
خشب وأسندوه إلى السور ، وارتقوا على السلام إلى السور ،
ثم دخلوا المدينة بعد المغرب من ليلة الأحد الرابع والعشرين
من محرم سنة ٤٩٢ هـ ، وقتلوا من أهلها قبل الفتح وبعده في

(١) قال ابن القلانسي : وفيها (٤٩١ هـ) توجه الافرنج الى معرة
النعمان بأسرهم ونزلوا عليها في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة وقتلوا
ونصبوا عليها البرج والسلام . . . إلى أن قال : وفي المحرم (٤٩٢ هـ)
زحف الافرنج الى سور معرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية وأسندوا
البرج الى سورها وهو أعلى منه فكشفوا المسلمين عن السور ولم يزل الحرب
عليه الى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من محرم وصعدوا السور
وانكشف أهل البلد عنه وانهزموا بعد أن ترددت اليهم رسل الافرنج في التماس
التقدير والتسليم وإعطاء الأمان على نفوسهم وأموالهم ودخول الشحنة اليهم ،
فمنعهم من ذلك الخلف بين أهلها وما قضاه الله تعالى وحكم به وملكوا
البلد بعد صلاة المغرب وقتل فيه خلق كثير من الفريقين وانهزم الناس
الى دور المعرة للاحتباء بها ، فأمنهم الافرنج وغدروا بهم ورفعوا الصليبان
فوق البلد ، وقطعوا على أهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشيء مما قرروه
ونهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به ورحلوا يوم الخميس
السابع عشر من صفر الى كفرطاب ، ثم قصدوا بعد ذلك ناحية بيت المقدس
آخر رجب من سنة ٤٩٢ هـ (ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦) .

الحرب والتعذيب والعطش مائة ألف وأكثر ، بعد أن أذاقوهم
ضروباً من العذاب ، وسبوا من النساء والصبيان نجواً من
هذا القدر ، وأنهم قطعوا الأشجار ، وأحرقوا المساجد ، وكسروا
المنابر ، وهدموا الدور والبروج والصور ، وأقاموا فيها نجواً
من أربعين يوماً ، ولم يبقوا عند أهلها ذخيرة ، حتى أصبحت
يدل عليه قول قاعاً صفصفاً وخراباً يباباً .

ولعل دخولهم المعرة كان يوم الاثنين أو ليلة الاثنين كما
بعض شعراء المعرة في ذلك :

مَعْرَةُ الْأَذْكِيَاءِ قَدْ حَرِدَتْ عَنْهَا وَحَقُّ الْمَلِيحَةِ الْحَرْدُ
فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ كَانَ مَوْعِدُهُمْ فَمَا نَجَا مِنْ تَخْيِسِهِمْ أَحَدُ
وفي ابن عساكر^(١) : دخل أبو المقدم وجيه بن عبد الله بن مسعر
التنوخي المعرة بعد أن أخذها الفرنج فقال^(٢) :

هَذِهِ بَلَدَةٌ قَضَى اللَّهُ يَا صَا حَ عَلَيَّهَا ، كَمَا تَرَى بِالْخَرَابِ

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلد ٩ ق ١٨ / ٤ من مخطوطات الظاهرية .

(٢) هذه الأبيات تمثل بها وجيه وهي [والتي قبلها] لمحمد بن علي بن المهنا
المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وستأتي ترجمة كل منها (ج) .

فَقِفِ الْعِيسَى وَقْفَةً وَابْكِ مِنْ كَأَن نَّيْهَا مِنْ شَيْوِخِنَا وَالشَّبَابِ
وَأَعْتَبِرْ: إِن دَخَلْتَ يَوْمًا إِلَيْهَا فَهِيَ كَأَن تَمَنَّا الْأَحْبَابِ
وإذا نظر الإنسان إلى مدينة الفرنجة الحاضرة في القرن
العشرين ، ربما أنكر ما نسب إليهم من الفظائع والمنكرات
التي ارتكبوها في المعرة وغيرها في الحروب الصليبية ، ولكن
من استقرى أحوالهم لا يجد بينهم وبين الوحوش الضارية فرقاً
كبيراً ، وتبين أنهم كانوا بعيدين عن كل حضارة ومدنية ، وإليك
قصة ذكرها أسامة بن منقذ^(١) في كتاب (الاعتبار) ، تدل على حالة
الفرنجة الذين فتحوا المعرة وقوضوا عمرانها وحضارتها. قال أسامة :
كان عندنا رجل حمامي يقال له : سالم من أهل المعرة في حمام
لوالدي قال : فتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها ، فدخل إليها
فارس منهم (أي الفرنجة) ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه
المثزري في الحمام ، فمد يده فجذب مثزري من وسطي ورماه ،
ورآني وأنا قريب عهد بحلق عاني ، فقال : سالم فتقربت منه ،
فمد يده على عاني ، وقال : سالم جيد وحق ديني اعمل لي

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ١٣٦ (ج) .

كذا ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ،
فحلقتة ، فمر يده عليه ، فاستوطأه ، فقال : سالم بحق دينك
اعمل « للداما » ، والداما بلسانهم « الست » يعني امرأته ، وقال لغلام
له : قل للداما تجيء ، فمضى الغلام وأحضرها ، وأدخلها
فاستلقت على ظهرها ، وقال : اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك
الشعر ، وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ، ووهبني حق خدمتي .
وانما أوردت هذه القصة لأجمع فيها بين النادرة وبين ما كان
الفرنجة يكلفون به الناس من الأعمال التي تتقزز منها نفوسهم ،
وتأبأها عاداتهم وتقاليدهم ، وبين ما كانوا عليه من الهمجية .
على أن لهم من الفضائع والمنكرات التي ارتكبوها بعد ذلك
في الأندلس وغيرها في العصور الخالية ، وفي بلاد الشام وغيرها
في العصر الحاضر ، ما هو أشد من هذا وذاك ، كما سنقف
عليه إن شاء الله تعالى .

وذكر في كتاب (البستان الجامع)^(١) : أنه في سنة ٤٩٢ هـ نقل
مصحف عثمان إلى دمشق من المعرة ، ولعل ذلك كان بعد
خروج الفرنجة منها ، ويحوز أن يكون وقت دخولهم .

(١) البستان الجامع ص ٨٠٧ (ج) :

وفي سنة ٤٩٣ هـ^(١) وصل مبارك بن شبل أمير بني كلاب ، في جمع كثير من العرب ، فخالف الملك رضوان ، ورعوا زرع المعرة ، وكفّر طاب ، وحماة ، وشيّز ، والجسر ، وغير ذلك ، وخلت البلاد ، ووقع الغلاء في حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، ثم سيطر الله الوباء على العرب ، فمات شبل ومبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب ، ثم التقى رضوان مع الفرنج ، فانهزم واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير ، وأخذ الفرنج برج كفر حلب ، وبُزج الحاضر ، وصار لهم من كفر طاب إلى الحاضر ، ومن حلب غرباً ، سوى تل مئس ، فان أصحاب جناح الدولة كانوا بها .

ثم تجمع الفرنج بالجزر ، وسرمين ، وأعمال حلب ، وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة ٤٩٥ هـ ، أو قبلها ، فبلغهم أن أنوشتكين الدانشمند نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية ، فعادوا للدفاع عنها ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا ما كانوا أعدوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال

(١) الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٣٨٧ عن ابن العديم (ج) .

التي جمعوها ، ونزل سَرْمِين ، وسار جناح الدولة إلى أَسْفُونَا ،
وبه جماعة من الفرنج فهجمه ، وقتل جميع من فيه ، وسار
إلى سَرْمِين فكبس عسكر الملك رِضْوَان ونبيه ، وانهزم رِضْوَان
وأكثر عساكره ، واستغل جناح الدولة سَرْمِين ومعرة النعمان ،
وكفَرطَاب ، وحَمَاة .

وفي سنة ٤٩٣ هـ أيضاً سار يميند الفرنجي صاحب أنطاكية
إلى قلعة فامية^(١) فحصرها وقتل أهلها أياماً ، وأفسد
زرعها ، ثم رَحَلَ عنها^(٢) .

وفي سنة ٤٩٦ هـ وقع بين الفرنج وبين سكان وجكرمش
وقعة عظيمة ، استظبر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر
القَمَص ، فأنفذ الملك رِضْوَان إلى الجزر وغيره من أعمال
حلب التي في أيدي الفرنج ، يأمرهم بالقبض على من عندهم
من الفرنج ، ففعل ذلك أهل القُوَّة وسَرْمِين ، ومعرة مَصْرِين ،
وغیرها ، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجبل ، وهَاب ، وحصون

(١) وتسمى : أقامة .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٢٥ .

المعرة ، وكَفَرطاب ، وَصُورَان ، فوصل شمس الخواص ، وفتح
صوران ، فهرب من كان بَلْطَمِين ، وكفرطاب ، وبلد المعرة
والبَارَة إلى أَنْطَلِكِيَة ، وسلموها إلى رِضْوَان ما خلا هاب .
وفي سنة ٤٩٧ هـ أرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور
صاحب حماة ، يبذل له مَنَبِج ، وقلعة نجم ، على أن يصير
معه على عمه الملك العادل ، فاعتذر إليه يمين في عنقه للملك
العادل ، فسار إلى المعرة ، وأقطع بلادها .

وفي سنة ٤٩٩ هـ نزل الفرنج على أَفَامِيَة وحاصروها
حتى جاع أهلها ، ثم ملكوها ، وقتلوا قاضي سَرْمِين المتغلب
عليها ، وابن الصائغ الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام وقيل :
إن ابن الصائغ قتله رئيس حلب ابن بديع سنة ٥٠٧ هـ ، وستأتي
هذه الحادثة في الكلام على أفامية .

وفي سنة ٥٠٥ هـ جهز السلطان محمد العساكر الاسلامية
لقتال الفرنج ، وفيهم الأمير مَودود ، والأمير سَكان^(١) ،
والأمراء : ايليكي ، وزَنكي ، وغيرهم .

(١) لعله سَكان كما في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٤ : ٢٥٨٥ .

فوصلوا إلى حلب ، فأغلق الملك رِضوان أبواب البلد ، ولم يجتمع بهم ، فرحلوا إلى المعرة في أواخر صفر سنة ٥٠٥ هـ ، وأقاموا عليها أياماً ، ووجدوا حولها ما لا صدورهم مما يحتاجون إليه من الغلات ، وما عجزوا عن حمله ، ثم تفرقوا لأسباب وبقي مودود وطغتكين بالمعرة ، ثم رحلوا إلى شيزر ، وفي الروضتين ^(١) : أن مودوداً حصر معرة النعمان سنة ٥٠٢ هـ وسيأتي تفصيلها في الكلام على أفامية . وذكر غير واحد هذه الحادثة في سنة ٥٠٤ هـ ، فلعلها انقضت ، ودخلت السنة الثانية أي سنة ٥٠٥ هـ .

وفي سنة ٥٠٦ هـ حمل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ، ومعرة النعمان ، ومعرة مَضْرِين ، على حصن شيزر في فصح النصارى فرتب فيه مائة راجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن ، وأخرجوهم منه ، وأغلقوا أبوابه . ثم قتلهم بنو مُنْقِذ عن آخرهم .

(١) أبو شامة : الروضتين ٢٧ (ج) .

وفي سنة ٥٠٨ هـ ^(١) بلغ السلطان محمد بن مَلِكْشاه أن أميريه أَقْسَنْقَرُ الْبَرْسُقِي ، وَطَغْتِكَيْنَ صاحب دمشق ، اتفقا مع صاحب أَنْطَاكِيَةِ الْفَرَنْجِي ، فجهز في السنة المذكورة عسكرياً كثيراً ، وجعل مقدمهم الأمير بَرْسُقُ صاحب هَمْدَانَ ، وأمرهم بقتل ايلغازي وطغتكين ، فاذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وحصروا بلادهم ، فساروا في رمضان سنة ٥٠٨ هـ وخبروا الْفُرَاتِ آخر السنة وأرادوا أخذ حلب ، فراسلوا متولي أمرها لَوْلُؤَا الخادم ، ومقدم عسكريها شمس الخواص ، فاستنجدوا بإيلغازي وطغتكين ، فسارا إليهم بِالْفِي فَارِسَ ، فأعرض برسق عن حلب وسار إلى حماة ، وهي في طاعة طغتكين وبها ثقله ، ففتحها عنوة ونهبها ، وسلمها إلى قرجان صاحب حِمَصَ ، وسار ايلغازي ، وطغتكين ، وشمس الخواص ، إلى أَنْطَاكِيَةِ ، واستجاروا بصاحبها روجيل ، وسألوه أن يساعدهم على حفظ مدينة حماة ، فلما بلغهم فتحها ، ووصل إليهم بِأَنْطَاكِيَةِ بَغْدَوِيْنَ صاحب القدس ، وصاحب طَرَابُلُسَ ، وغيرهما ، اتفق رأيهم على ترك اللقاء ،

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٤٢١ - ٤٢٣ ملخصة عن ابن الأثير وغيره (ج) .
تا (١١)

لكثرة المسلمين ، واجتمعوا في أفايية ينتظرون تفرق المسلمين في الشتاء ، فلمّا رأوا عزمهم على المُقام عاد ايلغازي الى ماردين ، وطُغَتِكِين الى دِمَشق ، والفرنَج الى بلادهم ، فقصد المسلمون كَفَرطاب وكانت بيد الفرنج ، وحصروا حصناً كان للفرنج عمروه بجامعها وأحكموه فأخذوه ، ثم ذهبوا الى المعرة ، وهي للفرنج أيضاً ، وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة يسلبون وينهبون . ثم سارت العساكر عن المعرة الى حلب ، يتقدمهم ثقلهم ودوابهم ، والعساكر في اثرها متلاحقة مطمئنة .

وفي أبي الفداء^(١) : وفي سنة ٥٠٩ هـ أرسل السلطان محمد ابن مَلِكشاه عسكرياً لمحاربة طغتكين صاحب دمشق ، ففتحوا حماة عنوة ونهبوها ، ثم سلموها الى قيرخان بن قراجا صاحب حِمص ، وأقام العسكر بحماة ، واجتمع بفامية ايلغازي وطغتكين ، وملوك الفرنج صاحب طَرَابُلُس ، وصاحب أنطاكية وغيرهما ، وأقاموا بها ينتظرون تفرق المسلمين . فلما أقام عسكر المسلمين

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

إلى الشتاء ، تفرق الفرنج وسار مُلغَتُكِين إلى دِمَشْق ، وابلغازي إلى مارِدِين ، ثم سار المسلمون من حماة إلى كَفَرطَاب ، وهي للفرنج ، فاستولوا عليها ، وقتلوا من بها من الفرنج ونهبوهم . ثم سار المسلمون إلى المعرة ، وهي للفرنج ثم ساروا منها إلى حلب ، فكبسهم صاحب أنطاكية في أثناء الطريق ، فانهزم المسلمون ، وقتلهم الفرنج ونهبوهم ، وهرب من سلم منهم إلى بلاده .

وستأتي في الكلام على أفاميّة رواية ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

وفي سنة ٥١٣ هـ خرج الفرنج إلى المعرة ، فسنّبوا جماعة وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا . ثم خرج بغدوين من أنطاكية ، فنزل على حصن روزا^(١) غربي البصرة ، وهو حصن كان لابن مُنْقِذ وقد سلمه إليهم ، ولما جرت الوقعة الأولى على البلاط عاد فأخذه ، فحاصره بغدوين ، وأخذه في جمادى الأولى من السنة المذكورة ، رُلق من كان فيه ، ثم رحل إلى كَفَرزُومًا ،

(١) في إلهام النبلاء للطباخ ١ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ : زور (ج) .

فأخذها بالسيف وقتل جميع من فيها ، ووصل إلى كَفَرطَاب ،
وكان ابن مُنْقِذ أحرق حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفاً عليهم ،
فرمموه ورتبوا رجاله فيه .

وفي سنة ٥١٤ هـ تشاحن صاحب الأتارب بلاق بن إسحق صاحب
ايلغازي والفرنجة ، فأسرى بجماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية ،
فلقيهم عسكرها وكسرهم وعادفتبعوه . ثم التقوا بين ترمانين
وتَلَّ أغدى ، فانهزم ايلغازي ، وصالحهم إلى آخر السنة على
أن لهم المعرة ، وكفرطاب ، والجبل ، والبارة ، وضياعا من
جبل الشَّماق ^(١) وكيَلُون ، واعزاز ^(٢) .

وفي سنة ٥١٩ هـ في أواخر المحرم ، رحل البُرُسقي إلى تَلَّ
الشَّطَّان ، ومنها إلى شَنِزَر ، ثم أقام بأرض حماة أياماً حتى
وصل إليه أتاك طُغْثَكِين . فبرحل في عسكره الذي لا يحد
كثرة ، ونزل كَفَرطَاب . ت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع
الآخر ، وسلمها إلى صَفْصَام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان

(١) في الإعلام للطباخ ١ : ٤٣٧ عن ابن العديم : من جبل الشَّماق

برسم هاب وضياعا من كيلون برسم تل اغدى وضياعا من بلد عزاز .

(٢) وتسمى عزاز .

قد وصل إليه من جِمنص والتقاء بَتلَّ السلطان . وقال في
(الروضتين^(١)) نقلاً عن العماد الكاتب : أن زَنكي استولى على
الشام من سنة ٥٢٢ هـ إلى أن توفي في ٥٤١ هـ .

وفي سنة ٥٢٦ هـ نزل التُّركُهم على بلد المعرة ، وكَفَرَطاب ،
وقسموا المَدَلَّات ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد .

وفي سنة ٥٢٩ هـ^(٢) أخذ عماد الدين زَنكي والد نور الدين
المعرة وكفرطاب من الفرنج ، وخرب أتابك زَنكي سورها
لما استولى عليها ، ولم يعد كما كان . وكان الفرنج استصفوا جميع
أملاك المعرة ، وأخذوا كل ما لهم وكتب أملاكهم ، فحضر
أهلها ، أي من بقي من أهلها ، ومعهم أعقاب من هلك منهم
إلى نور الدين ، وطلبوا تسليم أملاكهم التي أخذها الفرنج ،
فطلب منهم كتب أملاكهم ، فقالوا : إنها عدمت . فكشف من
ديوان حلب عن الخراج ، وأفرج عن كل مُلك كان عليه
الخراج لأصحابه وأعادهم إليهم ، ويقال : إن عماد الدين
نقض أسوار المعرة كلها .

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٥ (ج) .

(٢) كذا في الرفيات . وفي تاريخ أبي الفداء ٣ : ١٢ سنة ٥٣١ هـ (ج) .

وفي سنة ٥٣١ هـ رحل ملك الروم إلى المعرة ، ورحل عنها
يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى شَيْزَرٍ وَكَفَرطَاب ، ورموها
بالمناجيق ، فسلمها أهلها في نصف شعبان .

وفي ابن القَلَانِسِي في سنة ٥٣٣ هـ ^(١) رحل ملك الروم
عن المعرة ، فهرب من كان مقيماً في كَفَرطَاب من الجند خوفاً
على نفوسهم .

وفي (الروضتين) ^(٢) : إن أتابك الشهيد سار في سنة ٥٣٤ هـ
وحاصر حصن بارين وكان للفرنج ، وكان من أضر بلاد
الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة
وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل . وفي مدة مقامه
على حصن بارين ، سير جنده إلى المعرة ، وكفرطاب ، وتلك
الولاية جميعها ، فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كبيرة
وقرى عظيمة .

(١) وفي ذيل تاريخ دمشق لابن القلاني ص ٢٦٦ : وفي يوم الاثنين
(٥٣٢ هـ) رحل ملك الروم عن بلد المعرة فهرب من كان مقيماً في
كفرطاب من الجند خوفاً على نفوسهم .

(٢) أبرشامة : الروضتين ١ : ٣٤ (ج) .

وفي سنة ٥٤١ هـ قتل عماد الدين زُنكي ، وسار ولده نور الدين محمود إلى حلب فملكها .

وفي سنة ٥٤٤ هـ ^(١) سار نور الدين إلى حِصْن فَامِيَّة ، وهو للفرنج ، وبينه وبين مدينة حماة مائة مرحلة ، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، من أحسن القلاع وأمنعها . وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة ، وشيْزَر ، وينهبونها . فحصره نور الدين وضيق على من به وتابع قتالهم حتى ملكه وفتحها ، وشحنه بالذخائر والسلاح والرجال . وسيأتي في أقامية رواية ابن الأثير ، وأبي الفداء .

وفي (الروضتين) ^(٢) : أن نور الدين حين خرج لأخذ شَيْزَر ، أمر بكتابة منشور باطلاق المظالم في حلب ، ودمشق ، وحمص ، وحرّان وغيرها . وكان ما أسقطه عن المعرة ثلاثة آلاف دينار في كل سنة .

وذكر بعض المؤرخين أن خراج المعرة بلغ في عهد نور الدين محمود (٧٠٠٠) دينار وكفر طاب (١٠٠٠) دينار .

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٦٢ (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ١٦ (ج) .

وذكر إبراهيم الحصري قاضي المعرة الآتي ذكره : أنه اجتمع بالملك العادل نور الدين بقلعة دِمَشْق ، وأن نور الدين قال لكتابه : اكتب إلى كاتبنا بمعرة النعمان ليقبض على جميع أملاك أهلها ، فقد صح عندي أن أهلها يتقارضون الشهادة ، فيشهد بعضهم لصاحبه في ملك ، ليشهد له ذلك في ملك آخر ، فجميع ما في أيديهم بهذا الطريق ، قال : فقلت له : اتق الله فانه لا يتصور أن يتهاون أهل بلد على شهادة الزور ، فقال : صح عندي ذلك ، فكتب الكاتب الكتاب ودفعه إليه ليعلم عليه ، وإذا بصبي راكب على بهيمة على نهر بَرَدَى ، وهو ينشد هذه الأبيات :

إِعْدِلُوا مَا دَامَ أَمْرُكُمْ نَافِذًا فِي النَّفْعِ وَالضَّرَرِ
إِحْفَظُوا أَيَّامَ دَوْلَتِكُمْ إِنَّكُمْ مِنْهَا عَلَى خَطَرٍ
إِنَّمَا الدُّنْيَا زِينَتُهَا حُسْنُ مَا يَبْقَى مِنَ الْخَبَرِ

قال : فاستدار إلى القبلة وسجد واستغفر الله ، ثم مزق الكتاب ، وتلا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ . ﴾

وفي (الإعلام) ^(١) عن (المختار من الكواكب المضية): أن نور الدين كان قاعداً في دِمَشْق على طيارة مشرقة على بَرَدَى ، فوصل إليه كتاب من المعرة يذكر فيه : أن جماعة من أهل المعرة تغلبوا على كروم وزيتون وأملاك لبست لهم ، ويستأذنه في قبضها ، فمن أحضر بيئة أو حجة سلم إليه ما كان بيده ، وإن لم يحضر بقي في ديوان بيت المال . فأمر بكتب مرسوم بذلك، فشرع الكاتب يكتب، فسمع منشداً ينشد الأبيات المذكورة، فقال نور الدين : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . الآية . ثم أمر بإبطال ذلك الكتاب وجعل يكي .. والبيت الثالث من الأبيات المذكورة على هذه الرواية جاء هكذا :

إِنَّمَا يَبْقَى لَكُمْ أَبَدًا طِيبُ مَا يَبْقَى مِنَ الْخَيْرِ
وفي سنة ٥٥٢ هـ وقعت في الشام زلازل ، وخرب أكثر مدنها ، مثل كَفَرطاب ، والمعرة ، وحنص ، وحماة ، وأفاميّة وحنص الأكراد ، وعِرقة ، واللّاذقيّة . وكان أشدها بمدينة حماة وحنص شيزر ، فانها خربا بالمرّة ، وكذا ما جاورهما

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٢ : ٦٩ ، ٧٠ .

كحصن بارين ، والمعصرة ، وغيرهما من البلاد والقرى ،
وهالك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله وتهدمت
الأسوار والدور والقلاع .

وقد قيل : إن بعض المعلمين في حماة ذكر أنه فارق المكتب
لمهمته ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور ، وسقط المكتب على
الصبيان جميعهم ، فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له
في المكتب .

ويفهم من كلام أسامة بن مُرشد بن مُنقذ ، أن الزلازل
التي أهلكت كثيراً من أهل الشام كان ابتداءؤها في شهر رجب
سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

ويدل كلام صاحب (الروضتين) على أن زلزلة حدثت ليلة
التاسع عشر من صفر سنة ٥٥٢ هـ ثم أعقبها زلزلة في صفر
وأخرى في جمادى الأولى والآخرة ، وفي رجب ، وفي رمضان ،
وشوال ، وذو القعدة ، وقد تكون في بلد أشد منها في غيره ،
وقد سكن الناس في أكواخ عملوها من خشب ، وتفصيل

ما أثرته هذه الزلازل في (الروضتين) ^(١) ، وابن الوردي ^(٢) ،
وابن الأثير ^(٣) ، وغيرهم .

وقال ابن العديم : كانت كَثْرَطَاب مشحونة بأهل العلم ،
وكان بها يُقرأ الأدب ويُشتغل به ، وهي على مقربة من
معرة النعمان خربت أواخر القرن الخامس ، ويقول المؤرخون :
لأنه لم يسلم أحد من كفرطاب في زلزال سنة ٥٥٢ هـ .

وفي ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ توفي نور الدين محمود ، وجلس
ابنه الملك الصالح إسماعيل في الملك ، وهو لم يبلغ الحلم ،
وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المُقَدَّم .

وفي سنة ٥٧٠ هـ قدم صلاح الدين يوسف بن أيوب بلاد
الشام فاتحاً ، فلما كان في حِمَصْ جمر عليه سيف الدين
صاحب الموصل عسكرياً عظيماً ، وقدم عليهم أخاه مسعوداً ،
فوصل الى حلب ، وانضم اليه من كان في حلب من العسكر ،
والتقى الفريقان ، فانكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ،

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ١٠٤ (ج) .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٧ : ٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١ : ٨٨ .

وذلك عند قرون حماة ، في التاسع عشر من شهر رمضان .
ثم سار الى حلب وصالحوه على ان يأخذ المعرة وكَفَرَطَاب
وبارين ، وقد اشار الى هذه الواقعة عماد الدين الكاتب في
قصيدة مدح بها ناصر الدين محمد بن شيركوه حيث قال :
لَمَّا جَرَى الْعَاصِي هُنَا لِكَ طَائِعًا بِدِمَائِهِمْ فَجَرَتْ بِهِ الْأَنْهَارُ
وَتَحَطَّمَتْ عِنْدَ الْقُرُونِ قُرُونُهُمْ بَلْ كَلَّتِ الْأَنْيَابُ وَالْأَظْفَارُ
عَبَرُوا الْمَعْرَةَ مَا لِكَيْنَ مَعْرَةً وَالْعَارُ يُمْلِكُ نَارَةً وَيُعَارُ
وقد ذكر صاحب (الروضتين) ^(١) : تفصيل هذه الحوادث ،
وما وقع من مصالحة ونقض .

وفي سنة ٥٧٢ هـ ملك صلاح الدين مُؤَيَّد الدَّوْلَةِ أَسَامَةَ بن
مُرْشِد... بن مُنْقِذ ضيعة من أعمال المعرة، زعم أنها كانت قديماً
تجري في أملاكه ^(٢) .

وفي سنة ٥٧٤ هـ حاصر صلاح الدين بَغْلَبَكَّ ، وكان بها ابن
المُقَدَّم ، ثم رحل عنها الى دِمَشْق ، وترك من يحصرها بالمنع

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٨ فما بعدها (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٦٤ (ج) .

من الدخول والخروج من غير قتال ، ثم رضي ابن المُقَدَّم بتسليم بَغْلَبَك ، وأن يأخذ حِصْنَ بَغْرَيْن وأعماله ، وكَفَرطَاب ، وأعيان نواحي ، وقرى من بلد المعرة بدلاً منها ^(١) .

وفي (مرآة الجنان) ^(٢) : في سنة ٥٧٤ هـ أطلق السلطان حماة عند موت صاحبها خاله شهاب الدين لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، وأطلق له أيضاً المعرة ومنبج ، وفاء منه ، فبعث اليها نوابه .

وفي سنة ٥٧٧ هـ كان تقي الدين يتولى لعمه صلاح الدين المعرة وحماة ^(٣) .

وفي صفر سنة ٥٧٩ هـ فتح صلاح الدين حلب ، وقرر ولده الظاهر سلطاناً بها ، ثم كتب اليه الملك العادل نائبه بمصر أن يجعل له حلب ، فقرر صلاح الدين ولاية حلب وأعمالها الى رَعْبَان ، الى الفُرات ، الى حماة ، للملك العادل واستدعى

(١) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٥ (ج) .

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ٣ : ٣٩٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٢٣ (ج) .

ولده الظاهر من حلب ، ودخلها العادل في رمضان ^(١) .
وفي (الخطط) ^(٢) : في سنة ٥٧٩ هـ نزل ابن المَقْدَم عن أَفَامِيَّة ،
فأقطعه الظاهر الرَّاوَنْدَان وكَفَرطَاب ومفردة المعرة ، وهي عشرون
ضيعة معينة من بلاد المعرة ، فدعى ابن المقدم بالراوندان فسار
إليه الظاهر فأبعده عنها . وسيأتي ذلك .

وفي سنة ٥٨٢ هـ أعاد صلاح الدين حلب إلى ولده الظاهر
غازي غياث الدين .

وفيهما أعاد إلى تقي الدين ما كان من البلاد، ومَشَبَج، والمعرة ،
وسائر أعمالها ^(٣) .

وفي سنة ٥٨٤ هـ سار صلاح الدين من حلب على طريق المعرة ،
وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر
ابن عبد العزيز ، فتبرك بزيارة الميت والحي ^(٤) .

(١) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٥٢ (ج) .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ٢ : ٧٩ (بج) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٧٠ (ج) .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٢ : ١٣٤ (ج) .

وفي سنة ٥٨٧ هـ جعل صلاح الدين المعرة ، وكَفَرطَاب ،
إلى المنصور بن تقي الدين بعد موته ، وفي (الدارس) ^(١) : في سنة
٥٨٧ هـ أنعم صلاح الدين على ابن أخيه تقي الدين عمر بحماة ،
والمعرة ، وفَامِيَّة ^(٢) ، وَمَنْبِج ، فتسلمها وبعث إليها نوابه ،
والأول أصح .

وفي سنة ٥٨٩ هـ أرسل سيف الدين غازي صاحب المتوصل
جيشاً عظيماً ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً إلى حلب
للقاء صلاح الدين ، فلما بلغه ذلك رحل عنها الى حماة
وأخذ قلعة حِمَص . ولما وصل عز الدين الى حلب ، أخذ
معه عسكر ابن عمه المالك الصالح ، وخرجوا الى حماة ،
فوافاهم صلاح الدين على قرون حماة ، وطلب إليهم أن
يصلحوه فأبوا ، فالتحم القتال بين الفريقين ، فانكسر عز الدين
ورجاله وانهزموا ، وأسر منهم جماعة ، ثم سار ونزل على

(١) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٢١٧ .

(٢) وتسمى أيضاً أفامية .

حلب ، فصالحوه على أخذ المعرة ، وكَفَرَطَاب ، وَمَارِدِين ، كذا قال في (مرآة الجنان) ملخصاً^(١) .

ولما مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ كانت كفرطاب ، وأفامية بيد عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم .

وفي سنة ٥٩٦ هـ ولي قضاء المعرة ابراهيم الحِصْنِي من فقهاء دمشق ، وقد ترجمه ابن السُّبْكِي^(٢) في (طبقات الشافعية) ، وتوفي سنة ٦١٥ هـ . وقد ذكرنا قوله لنور الدين الشهيد حين عزم على أن يقبض على أملاك أهل المعرة .

وفي هذه السنة أيضاً كانت أفامية ، وكَفَرَطَاب ، وخمس وعشرون ضيعة من المعرة لعز الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المُقَدَّم .

وفي سنة ٥٩٧ هـ مات عز الدين ابراهيم المذكور ، وصارت البلاد بعده لأخيه شمس الدين عبد الملك .

(١) اليافعي : مرآة الجنان ٣ : ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٢) في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤ : ١٩٩ ، ٢٠٠ : ابراهيم بن الحسن بن طاهر أبو طاهر الحموي المعروف بالحِصْنِي ، من فقهاء دمشق ولد في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة بحماة وتلقاه ببغداد ، وتوفي بدمشق في صفر سنة إحدى وستين وخمسمائة .

وفيها : سار الظاهر ملك حلب إلى المعرة ، وأقطع بلادها واستولى على كَفَرطاب ، وأفامية ، وقد كانت لشمس الدين المذكور ، وسيأتي أن قراقوش نائب ابن المُقَدَّم ، امتنع عن تسليم أفامية ، وخل عنها الملك .

وفي سنة ٥٩٨ هـ وصل الملك العادل حماة ، وبلغ الظاهر في حلب أن قصده محاصرته ، فلاطفه وأهدى إليه ، فوقع الصلح بينهما ، وانتزعت مفردة المعرة ، وهي عشرون ضيعة معينة من بلد المعرة ، واستقرت للمنصور صاحب حماة .

وفي سنة ٦٠٩ هـ ولي التدريس في المعرة شمس الدين ابراهيم البارزي .

وفي سنة ٦١٧ هـ صارت المعرة للملك الناصر بن الملك المنصور .

وفي سنة ٦١٩ هـ ^(١) فوض طغريل مدير المملكة الحلبية أمر الشفر وبكاس إلى الملك الصالح أحمد بن الملك الظاهر بن صلاح الدين ، فسار الملك الصالح إليهما ، وأضاف إليه الرُّوج ، والمعرة ، ومَصرين .

(١) كذا في نهر الذهب للغزي ٣ : ١١٢ ، ١١٣ (ج) .

وفىها قصد الملك المعظم عيسى صاحب دِمَشْقُ المعرة
فاستولى عليها ، وأقام فيها والياً من قبله ، وقرر أمورها ، لأن
الملك الناصر لم يف له بما التزمه من المال .

وفى سنة ٦٢١ هـ كتب الملك الكامل ملك مصر إلى أخيه
ملك دمشق ، أن يرسل عن سَلْمِيَّة^(١) ويعفو عن الناصر
ملك حماة ، فأعاد له المعرة .

وفى سنة ٦٢٦ هـ صارت المعرة للملك المظفر محمود بن
المنصور صاحب حماة .

وفى سنة ٦٣١ هـ نزلها الملك المظفر بعد رجوعه من محاربة
كَيْقْبَاز . وفى هذه السنة تم بناء قلعة المعرة ، وكان قد أشار
عليه ببنائها سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني^(٢) ، وهو
الذي تسلم أمور حماة وتدير شؤونها من قبل المظفر . وقد
أشرنا إلى ذلك فيما مضى ، وسنزيد القول فى هذا فيما يأتى .

(١) فى معجم البلدان ٣ : ١٢٣ : ولا يعرفها أمل الشام إلا بسَلْمِيَّة .

(٢) فى تاريخ ابن الوردي ٢ : ١٦٠ : المزباني ، وفى غيره الهذباني (ج) .

وفي سنة ٦٣٥ هـ ^(١) حاصر الحاميون قلعة المعرة بعد وفاة الملك الكامل صاحب دمشق ، وكان مقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، ثم أخذوها وخربت المعرة بسببها ، وملكوها أيضاً ، وخرج عسكر المعرة حيلئذ إلى حلب ، ثم سار عسكر حلب ، ومقدمهم توران شاه إلى حماة .

وفي كتاب (السلوك) ^(٢) : أن أهل حلب استنجدوا عسكراً من الخوارزمية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباز ملك الروم ، فأمدهم بخيار عسكره ، فملكوا المعرة سنة ٦٣٥ هـ .

وفي سنة ٦٣٨ هـ نهبها الخوارزمية بعدما خربوا حلب ، وأسروا توران شاه وارتكبوا من الزنا والفحش والقتل ما ارتكبه التتر ، وقد عبروا الفرات من الرقة إلى الجبول ، إلى تل أعرن ، إلى سزمين ، إلى المعرة ، وهم ينهبون ، وفزع الناس منهم .

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٧٠ . وابن الوردي : التاريخ

١٦٦ : ٢ .

(٢) القرطبي : السلوك ١ : ٢٦٩ (ج) .

وفي سنة ٦٤٦ هـ^(١) ولي قضاء المعرة قوام الدين أبو العلاء
المفضّل ابن السلطان المعروف بابن حادور الحموي ، ثم عزل
عنها ، وولي المدرسة الشيعية في حلب ، ثم قضاء حنص سنة
٦٥٥ هـ ، ثم عزل عنها ، وتوفي في حماة سنة ٦٦٠ هـ .

وفي سنة ٦٤٦ هـ^(٢) ولي قضاء المعرة موفق الدين أبو القاسم
الكردي الحميدي .

وفي سنة ٦٥٨ هـ^(٣) قدم التتر على المعرة ، وخربوا قلعتها وأسوارها .
وقد بينا أن القلعة قد تم بناؤها سنة ٦٣١ هـ ، وهدمت
سنة ٦٥٨ هـ ، فتكون مدة بقائها عامرة سبعا وعشرين سنة ،
وبهذا يتضح بطلان ما زعمه بعض الكاتبين في هذه القلعة
من أنها قبل الإسلام ، أو من بناء الصليبيين ، أو غير ذلك . وزعم
أصحاب مجلة العاديات أنها من بناء الملك الظاهر ، وزعموا في دائرة
المعارف الفرنسية^(٤) أنها من آثار الصليبيين وهو باطل كما تقدم .

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٤ : ٢٦٠ (ج) .

(٢) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٤ : ٣١٦ (ج) .

(٣) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

(٤) La grande Encyclopédie 22 : 851 .

وفي سنة ٦٥٨ هـ أخرج الملك قُطَاوُ المعرة من يد الحلبيين
وأعادها إلى الملك المنصور صاحب حماة ، وكانت في أيدي
الحلبين من حين استولوا عليها سنة ٦٣٥ هـ ، وهناك الشيخ
شرف الدين بعودها إليه بقصيدة منها :

وَكَذَا الْمَعْرَةُ إِذْ مَلَكَتْ قِيَادَهَا دَهَشَتْ سُرُورَ آسَارٍ فِي مَدْهُوشِهَا
طَرِبَتْ بِرَجْعَتِهَا إِلَيْكَ كَأَنَّمَا سَكِرَتْ بِخَمْرَةِ حَاسِهَا أَوْ حِشِهَا
وفي سنة ٦٦١ هـ أغار صاحب سِيس^(١) الأرمي على
العمق ، والمعرة ، وسَرَمِينَ ، والفَوْعَةَ .

وفي سنة ٦٦٤ هـ رحل للظاهر بَيْنَرَسْ من دمشق إلى
حماة ، ثم إلى أَقَامِيَّة ، وسيأتي ذلك .

وفي (الشذرات)^(٢) : أن ابن البارزي قاضي حماة شمس الدين
إبراهيم بن المسلم بن هبة الله الحموي ولي تدريس معرة

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٢١٧ : سِيسِيَّة وعامة أهلها يقولون
سيس بلد من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس
على عين زربة .

(٢) ابن العباد : شذرات الذهب ٥ : ٢٢٨ (ج) .

النعمان ثم تحول إلى حماة ودرس بها ، وتوفي سنة ٦٦٩ هـ ،
ولكنه لم يذكر أية سنة ولي تدريس المعرة .

وفي سنة ٦٩١^(١) هـ نزل الملك الأشرف صلاح الدين خليل
بالمعرة ، ورفع إليه أهلها قصصاً يسألونه لإبطال الخمار فيها ،
فأمر بإبطالها ، وخربت في تلك الساعة .

وفي سنة ٦٩٩ هـ أخذ التتر المعرة مع البلاد الشامية .
وفي سنة ٧٠٠ هـ عادوا إلى المعرة وأكثروا فيها القتل والنهب ،
ثم رحلوا .

وفي سنة ٧٠٢ هـ رجعوا إليها وفعلوا ما فعلوه أولاً .
وفي سنة ٧١٠ هـ صارت حماة ملكاً للملك المؤيد إسماعيل
أبي الفداء بن علي ، وأضيفت إليه المعرة ، ثم خرجت هي
وأفرادها عن حماة ، وأضيفت إلى حلب وصارت لبعض
الأمراء فيها .

وفي سنة ٧١٣ هـ^(٢) خرجت معرة النعمان من حماة ،

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٣٧ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٤ : ٧١ (ج) .

وأضيفت إلى حلب ، وسبب ذلك أن الأمراء الذين كانوا بحماة ،
ثم انتقلوا إلى حلب « قبل سنة » استقرت اقطاعاتهم بحماة ،
لعدم اقطاعات تفي بجملته ما لهم . . وصارت أطماعهم معلقة
بالعودة إلى حماة ، وهم يجتهدون على ذلك تارة بالثقل على
السلطان بالشفائع ، وتارة بالسعي في ذهاب حماة مني^(١) ، فلم
أجد لذلك ما يحسمه إلا بتعيين المعرة وبلادها للأمراء المذكورين
واضافتها إلى حلب ، ثم صدر المرسوم بذلك .

وفي سنة ٧١٦ هـ أعادها الملك الناصر بن المنصور قلاوون
إلى أبي الفداء ، وامتدحه شهاب الدين محمود كاتب الانشاء
الحلي بقصيدة ، منها قوله :

بِكَ تُرْهِى مَوَاكِبُ وَأَسْرَةٌ وَلَكَ السُّمُرُ وَالْعَوَاصِبُ أَسْرَةٌ
وَبِأَيَّامِكَ الَّتِي هِيَ رَوْضٌ لِلْأَمَانِي تَجْنِي ثِمَارَ الْمَسْرَةِ
بِكَ كُلُّ الدُّنْيَا تُنْهَى وَيُضْجِي قَدْرُهَا عَالِيًا وَكَيْفَ الْمَعْرَةِ

ثم زاده على المعرة بجملته خلال بلادها .

وفي سنة ٧١٨ هـ زاده السلطان عدة قرى من بلد المعرة
على ما كان مستقراً بيده .

(١) أي من الملك أبي الفداء صاحب بجة .

وفي سنة ٧٤٨ هـ أصاب أهل المعرة من النهب وقطع السابلة ورعي الكروم والزروع والقطن والمقائى ، وغير ذلك من ضروب الاعتداء شيء كثير من قبل أصحاب سيف بن فضل أمير العرب وأتباعه ، وأحمد وفاض بعد ما انكسر بقرب سلمية .

وفي سنة ٧٤٩ هـ وقع طاعون عمّ البلاد الشامية ، ونجت منه المعرة وحدها ، ولكنها كانت تكابد من الظلم والعسف ما هو أشد من الطاعون ، وقد أشار إلى ذلك عمر بن الوردى المعري بقوله :

رَأَى الْمَعْرَةَ خَوْذًا زَانَهَا حَوْرٌ لَكِنْ حَاجِبَهَا بِالْجَوْرِ مَقْرُونٌ^(١)
مَاذَا الَّذِي يَفْعَلُ الطَّاعُونَ فِي بَلَدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلْمِ طَاعُونَ
وفي سنة ٧٦٢ هـ توفي بالمعرة القاضي شرف الدين موسى ابن سنان بن مسعود بن شبل الجعفري الشلمي ، وله نيف وستون سنة^(٢) .

(١) ديوانه ص ١٨٥ وروايتها فيه :

رَأَى الْمَعْرَةَ عَيْنًا زَانَهَا حَوْرٌ لَكِنْ حَاجِبَهَا بِالْجَوْرِ مَقْرُونٌ
مَا الَّذِي يَصْنَعُ الطَّاعُونَ فِي بَلَدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلْمِ طَاعُونَ

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ١٣٢ (ج) .

وفي سنة ٧٤٤ هـ حدث في المعرة زلزال عظيم ، فذهب
بكثير من محاسنها .

وفي سنة ٧٤٥ هـ استرجع السلطان الملك الصالح بن اسماعيل
ابن الناصر محمد بن قلاوون ما كان باعه الملك المؤيد وابنه
الأفضل في حماة والمعرة من أملاك بيت المال بأموال
عظيمة ، وكان غالب الملك قد طُرح على الناس غصباً ، واشترت
به تقادم إلى الملك الناصر ، فقال بعض شعراء المعرة في ذلك :
طَرَحُوا عَلَيْنَا الْمُلْكَ طَرَحَ مَصَادِرِ نُمِّ اسْتَرَدُّوهْ بِلَا أَثْمَانِ
وَإِذَا يَدُ السُّلْطَانِ طَالَتْ وَأَعْتَدَتْ فَيَدُ الْإِلَهِ عَلَى يَدِ السُّلْطَانِ
وكانما كشف هذا القائل ، ونظر إلى مصير الساطان بعين
الغيب ، لأن مدة السلطان لم تطل بعد ذلك .

وفي سنة ٧٤٨ هـ اقتتل سيف الدين بن فضل أمير العرب
مع أحمد فياض من الأمراء قرب سَلْمِيَّة ، فانكسر سيف ،
وجرى على المعرة وحماة وغيرها من العرب أصحاب سيف
وأحمد فياض من النهب وقطع الطريق ما لا يوصف ، وكانوا
يغيرون على حماة ، والمعرة ، فقر الفلاحون ودرست القرى .

وفي سنة ٨٠٣ هـ قدم تيمورلنك بثمانمائة ألف مقاتل ، فوقعت بينه وبين عسكر الشام حرب طاحنة خارج سور حلب ، ثم كان له النصر ، وفرّ عسكر الشام إلى المعرة ، فتبعه بجيشه العرمرم ونازلها ، وكانت تابعة لحماة ، وكان دقاق في ذلك الحين والياً على حماة ، فسارت أعيان حماة بمفاتيح البلد إلى تيمور واستأمنوه فأمّنهم . وفي هذا الوقت انفصلت المعرة عن حماة ، وصارت تابعة لحلب ، وأهل المعرة يقولون : إن تيمور شدد الحصار على المعرة ، ووقع بين أهلها وبين عساكره معارك شديدة ، ثم إن رجلاً من أهلها من قوم يعرفون ببني عازار أرشد تيمور إلى موضع استطاع أن يدخل البلدة منه بغير قتال ، فلما دخلها وضع السيف في أهلها وقتك فيهم فتكا ذريعاً ، ولا تزال إلى يومنا هذا بقية في المعرة يعرفون ببني عازار ، وأهلها يضمنونهم بهذا العار الموروث والشنار التليد ، والله أعلم بالحقيقة .

وفي سنة ٩٢٠ هـ توجه بدر الدين سليمان بن عبد الجبار وسرباريك ابن عمه مع جماعة من التتركمان إلى المعرة ،

فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ،
وأسروا جفري بلنك صاحب بَسْرُفُوث^(١) . من جبل بني عُلَيْنِم^(٢)
واودع سجن حلب .

وفي سنة ٩٢٢ هـ استولى السلطان سليم الأول العثماني على
بلاد الشام ، وملك المعرة في جملة ما ملكه منها ، وأصبحت
منذ ذلك العهد خاضعة للدولة العثمانية .

وفي سنة ١٠١١ هـ خرج نصوح باشا والي حلب ، ومعه
حسين باشا ابن جانبولاذ ، لقتال الخارجين على الدولة ، مثل
خداوردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي ، فالتقوا عند المعرة
ثم فروا إلى حماة وأخذ ما وجده من أموالهم وأثقالهم .

وفي (إعلام النبلاء) في حوادث سنة ١٠١٤ هـ^(٣) في ترجمة
ابن جانبولاذ ، وأما ذكر أصله ومنزعه ، فجده جانبولاذ هذا
كان يعرف بابن عربو ، وكان أمير الأكراد بحلب ، وولي
حكومة المعرة وکلز وعزاز ، وكان له صيت شائع . اهـ

(١) حصن من أعمال حلب في جبال بني عليم .

(٢) المعروف اليوم بجبل الزاوية .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٣ : ٢٣٣ (ج) .

وفي المعرة الآن قوم يعرفون بابن عربو ، يزعمون أن لهم نسباً يتصل بابن عربو السابق ذكره ، ولكني لا أعلم حقيقته من غيرهم ، وقد ذكرناهم في أسر المعرة .

وفي (سلك الدرر)^(١) أعطي منصب حماة إلى الشريف سعد ابن زيد شريف مكة المكرمة سابقاً ، وكان ولي أولاً معرة النعمان بأمر من الدولة لاختلاف الحجاز في ذلك الحين ، وما جرى بينه وبين الشريف بركات شريف مكة ، فضبط حماة لكنه كان شديد الحلف كثير التعدي بحيث أن أهل حماة قاموا عليه وأخرجوه من البلد قهراً ، فوصل إلى معرة النعمان ، وكتب يشتكي عليهم للدولة ، وأسند ما جرى إلى حسن أفندي الدفتري ، وتمة الحادثة فيه ، وقد قتل الدفتري المذكور سنة ١١٠٦ هـ في حماة ، وأظن أن ولاية سعد بن زيد المعرة كانت سنة ١١٠١ هـ .

وفي سنة ١٢٢٨ هـ ثار أهل المعرة عو^ن من بني العظم ، يقال له : يحيى بك ، كان متسلماً « حاكماً إدارياً » في المعرة ،

(١) المرادي : سلك الدرر ٢ : ٣٢ (ج) .

وسبب ذلك أن داره ^(١) التي كانت مسكنه داخلًا ، ومقر حكمه خارجًا ، كانت متصلة بحمام يقال له : الحمام التحتاني ، فثقب جدار الحمام ، وجعل ينظر إلى النساء وهن عاريات ، فن أعجبه توسل بكل ما أوتيه من حول وطول إلى الاتصال بها ، فشر أهل المعرة بذلك ، واتفقوا على قتله ، وانتدبوا من كل أسرة رجلاً ليكونوا شركاء في دمه ، فذهب المندوبون إلى داره ليلاً ، وطرقوا الباب فخرجت جارية فسألوها عنه فادعت أنه ليس في الدار ، فدخلوا الدار عنوة ، ونقبوا فيها ، فلم ينفقوا له على أثر ، واشتدوا على الجارية لتدلهم عليه ، فلم تغير قولها ، فخرجوا يتعثرون بأذيال الخيئة .

وكان يحیی رأى هذا الجمهور على باب داره ، فعلم أنهم يريدون الفتك به ، فتدلى إلى بئر في داره واختفى فيها ، وأمر

(١) وهذه الدار يحدها من الشرق الحمام التحتاني المذكورة والطريق الآخذ إلى السوق والجامع ، ومن الشمال الطريق الفاصل بينها وبين المسجد المعروف بالداودية ، ومن الغرب الطريق الآخذ إلى المحلة القبلية ومقامه الدار التي كانت دار حكومة « سراية » ، ومن الجنوب الطريق المذكور والدار المذكورة « السراية » (ج) .

الجارية أن تقول : إنه ليس في الدار ، ولم يظن المتدبون لذلك فلما قفلوا راجعين ، استنفر أعوانه وجنوده وبطانته ، وأراد أن ينتقم من أعدائه في صبيحة اليوم الثاني ، فثار في وجوههم جمهرة الناس ، وحصروه هو وأشياعه في داره ، فلما ضاق بهم ذرعاً خرج إلى سطح دار مصابقة لداره ، وتدلى بهبل من السطح المتصل بسطح الحمام المذكورة ، وكان الناس أقاموا له الرقباء والأرصاد ، فرآه الرقباء الذين كانوا في منارة الجامع الكبير ، وأنذروا به الرقباء الذين كانوا على سطح السوق وغيرها فرماه رجل برصاصة فأرداه قتيلاً ، وقد رأيت على سارية من سوارى المسجد في المعرة هذا البيت :

يَسْتَعِي بِرَجْلَيْهِ عَمْدًا نَحْوَ مَضْرَعِهِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا
وهو بخط جيد ، وفوقه تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ فحدثني كثير من الناس أن ذلك كتب يوم قتل يحيى بك .

وفي سنة ١٢٣٧ هـ حدث زلزال عظيم^(١) في حلب ليلة الأربعاء في الثامن والعشرين من ذي القعدة الموافق شهر آب

(١) انظر تفصيل ذلك في إعلام النبلاء لراغب الطباخ ٣ : ٤٠٠ - ٤١١ .

ومكث أربعين يوماً ، وفي كل يوم تحدث هزة حتى هدم
بسيه أماكن كثيرة في حلب وغيرها من البلدان الحلبية ، مثل
كلّس ، وأنطاكية ، والمعرة ، وما جاورها ، حتى قيل : إن
عدد القتلى الذين ماتوا تحت الهدم نحو عشرين ألفاً ، وقد نظم
محمد تقي الدين بن الشيخ محمد المطالي القاطن في ديار حلب
قصيدة يصف فيها تلك الزلازل ويذكر البلاد والأماكن التي
خربتها ، وفيها يقول :

فَكَمْ خُطُوبٍ بِأَرْضِ الشَّامِ قَدْ وَقَعَتْ وَفِي حِمَاةٍ وَحِمَصٍ أَعْيُنٌ دَمَعَتْ
وَفِي الْمَعْرَةِ كَمْ مِنْ نِسْوَةٍ فُجِعَتْ وَأَرْضُ رِيحَاوَسَلَقِينَ لَقَدْ صَدَعَتْ
وَأَرْضُ عِنتَابَ مَا جَتْ فِي أَهَالِيهَا

وفي سنة ١٢٤٨ هـ استولى إبراهيم باشا بن محمد علي المصري
على المعرة ، وقد سمعت من بعض المعريين أنه لما قدمها نزل
ضيفاً في دار جد والدي محمد الجندي ، وكان مفتياً في المعرة
وكان الباشا يحبه حباً جماً ، وأرق ذات ليلة ، فرتب له مكتبة ،
وجعل لها فهرساً ، وما زال ذلك شأنه معه ، إلى أن بلغه أن
أمينا بن محمد المذكور هجاه بقصيدة ، ومدح الترك ، واستثار

الناس عليه ، فسخط على الأب والابن معاً ، وكان إذ ذاك بعيداً عن حلب ، فجاء في طلب أمين ، وبث عليه العيون والأرصاء ، وسد عليه المنافذ ، فلم يقف له على أثر ، لأنه كان محتبئاً في حلب ، ثم عاد إلى المعرة ، وقد أندر أباه بضرورة احضار ابنه لمقابلته فاحضره ، فلما قابله تناسى ما أثار سخطه عليه ، وقابله باللطف والسماح ، ولم يتصد لذكر القصيدة ، وإنما عامله وعامل أباه معاملة الملك الصفوح الكريم كما سيأتي في ترجمتها .

ولكنه في نحو سنة ١٢٥٥ أو ١٢٥٦ هـ بلغ أهل المعرة أن الترك تغلبوا على إبراهيم وكسروا جيوشه ، فهب جماعة من الرعاع ونهبوا الشونة ، واتصل به ذلك ، فبعث عليهم جنداً لينتقم منهم ، أو لما اقترب فله من المعرة شعروا بما يضمره لهم ، فجاء رجل من أهل المعرة . يقال له علي بن قندح على زعم من أخبرني ، وصعد منارة الجامع الكبير فيها ، وأندر الناس بقدم عسكر إبراهيم ، وحذروهم بأبسه وشره ، فنفر الناس نهار الابل إذا قعقع بين يديها بالشنان ، وهاموا على وجوههم في كل واد ، واعتصموا بالقرى والجبال .

ودخل العسكر المعرة ، وهي خاوية خالية ، وأطلق يده في النهب والاحراق ، حتى تركها صعيداً كأن لم تغن بالأمس ، وطمس ما أبقت الأيام من معالم مجدها وحضارتها ، وظل أهلها هارين بضعة أيام ، ثم عادوا إليها فريقاً بعد آخر . وحدثني رجل من أهل قرية معرشورين أنه كان غلاماً حدثاً ، فدخل الشوثة ^(١) مع الناهيين ، ووضع في ثوبه أزراراً من أزرار الجند وأخذها .

وأخبرتني زوجة جدي ، وكانت من أوعى الناس للأخبار وأكثرهم استقراء لها ، وكانت ممن شهد الحادثة وفر مع الفارين : أن أهل المعرة حين أنذرهم النذير بقدوم العسكر ، حملوا ما استطاعوا من أعلاقهم وعقائل أموالهم ، وخبأوا غيره تحت الأرض ، وأن جمّاً غفيراً من أهل المعرة خبأوا أموالهم في محمية كانت في دار جدي « والنحمية في اصطلاح أهل المعرة بناء تحت الأرض ، وقد يكون واسعاً ، وليس له إلا منفذ كالسرداب ، وليس له درج ينزل إليه منه ، وإنما يدلى إليه

(١) سيأتي معناها (ج) .

بجبل ، والغالب أنه بناء قديم يعثر عليه فيفتح له منفذ ،
يدخرون فيه ما يشاءون عند الفزع ، ويسدون منفذه فلا
يبتدى إليه » .

وقد خبا فريق من أهل المعرة أمتعتهم فيها ، ثم سدوا
منفذها ، وفرشوه بالبلاط كبقية ساحة الدار ، فلم يبتد إليها
الجند . ولما رحل الجند وعاد الناس إلى مواطنهم ، وجد أكثر
هذه الأموال فاسداً من تأثير الماء والرطوبة التي في المحمية ،
فكان غم إبراهيم هذا في أهل المعرة ، كعمل نمرود في
إبراهيم ، أخذ الصالحين والشيخ والأطفال والنساء عامة ، بما
فعل السفهاء خاصة .

هذا ما سمعته من أهل المعرة من شيوخ شهدوا ذلك
الحادث الفظيع ، وكهول رووه عن شيوخ غيرهم شهدوه .

وقد ذكر جد أبي محمد وابنه أمين : أن صورة نسبهم فقدت مع
ما فقد حين نهبت المعرة سنة ست وخمسين ومائتين وألف للهجرة .
وقد رأيت في ديوان عم أبي السيد أمين بن محمد الجندي ،
قصيدة يمدح بها السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود العثماني

ويذكر فيها شيئاً من أعمال المصريين في بلاد الشام وغيرها ،
ويذكر جلاءهم عنها في شهر رمضان المبارك عام ستة وخمسين
ومائتين وألف ، ويورخ ذلك في آخرها ، وقد ذكر فيها
ما أصاب المعرة وأهلها ، وذلك حيث يقول :

قَصِدُوا الْمَعْرَةَ بِالْأَذْيَةِ عِنْدَمَا	سُكَّانُهَا لَبُّوا وَلَمْ يُبْدُوا قَلَى
فَوَشَى لَهُمْ مَنْ كَانَ فِيهَا عَامِلًا	مِنْ تَحْرِيمٍ وَسَعَى بِنَا وَتَوَصَّلَا
وَاللَّهُ أَدْرَكَنَا بِلُطْفٍ مُسَبِّلٍ	إِذْ جَاءَنَا لَيْلًا نَذِيرٌ أَوَّلَا
فَوْرًا خَرَجْنَا لِلْجِبَالِ بِأَهْلِنَا	مَشْيًا وَغَادَرْنَا الْمَتَاعَ مُكْمَلَا
فَتَرَى الذَّرَارِي وَالنِّسَاءَ بَوَاكِيَا	وَالنَّاسَ مِنْ خَوْفِ الْفَضِيحَةِ جُفَلَا
فَأَتَوْا بِشِرْذِمَةٍ وَأُخْرَى بَعْدَهَا	كُلُّ عَالَى إِهْلَاكِنَا قَدْ عَوَّلَا
دَخَلُوا الْمَدِينَةَ وَهِيَ خَالِيَةٌ فَلَمْ	يُبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا سِوَى مَا أَثْقَلَا
فَرَمَوْا بِهَا النَّيرانَ حَتَّى أُخْرِقَتْ	وَعَدَتْ بِلَاقِعٍ وَاكْتَسَتْ ثَوْبَ الْبِلَى
حَرَقُوا الشُّيُوجَ وَلَمْ تَرْقُ قُلُوبُهُمْ	وَهِيَ الْحِجَارَةُ بَلْ أَشَدُّ عَلَى الْمَلَا
فَأَتَى الْعَبِيدُ لِيَنْظُرُوا مَا حَلَّ فِي	أَوْطَانِهِمْ وَجَدُوهُ أَمْرًا مُشْكَلَا
فَالْمَالُ أَتْلَفَ مُنَّمْ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ	بَلْ بِالْمَسَاجِدِ وَالْمَقَامَاتِ الْعَلَا
أَمَّا الْمَصَاحِفُ رَأَى عَيْنِي فَوْقَهَا	مَا لَا يَفْهَمُ بِهِ اللِّسَانُ تَزَلَا

بَطَلَ الْأَذَانُ مَعَ الْجَمَاعَةِ مُدَّةً بَلْ أَفْطَرُوا رَمَضَانَ مِنْ عِظَمِ الْبِلَادِ
اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا مَصَائِبُ فِي وَقْتِهَا ظَلَّ اللِّسَانُ مُحَوِّقًا
وَقَدْ انْجَلَوْا عَنْهَا وَسَارُوا جَحْفَلًا لَا سَلَّمَ الرَّحْمَنُ ذَاكَ الْجَحْفَلًا

ولما دخل ابراهيم باشا بلاد الشام ، مدحه الشيخ أمين بن
خالد الجندي الحصري بقصيدة مطلعها :

عَرَّجَ أَخَا الْبَأْسَاءِ نَحْوَ بَنِي الْعَلَا وَالْثَمَّ تَرَى أَعْتَابِهِمْ مُتَذَلَّلًا
وقد مدح فيها ابراهيم باشا ، وذكر طرفاً من أعماله ، وذم
الأتراك ، وذكر جملة من أعمالهم المذمومة .

فلما فعل ابراهيم في البلاد الشامية ما فعل ، نظم عم والدي
السيد أمين بن محمد الجندي هذه القصيدة التي قدمنا أبياتاً منها ،
ومدح بها السلطان عبد المجيد العثماني ، وذم ابراهيم ، وذكر
طائفة من أعماله الجائرة .

والقصيدتان متفقتان في الوزن والقافية ، والأولى منها تضمنت
مثالاً شيئاً من أعمال الترك في البلاد السورية ، والثانية تضمنت
مثالاً شيئاً من أعمال ابراهيم باشا وجنوده المصريين فيها ، فقاتل
الله الفريقين ، وجازى كلا منهما بما يستحقه .

وقد ذكر في (إعلام النبلاء) كثيراً من أعمال إبراهيم باشا ، منها : أنه طرح ضريبة على كل واحد ، وسماها إعانة الجيش على الحرب ، ورتب على أنواع الحبوب فريضة سماها بالشون . وجرد المسلمين من الأسلحة ، وأنه طلب أولاد الأعيان ليجعلهم جنداً له يدرأ بهم عن البلاد كل عادية ، وأنه كان مسرفاً في القتل ، وسرد جملة من أعماله ^(١) .

وذكر في (نهر الذهب) ^(٢) جملة من أعماله ، وتجنيد الصغار والكبار ، وتسخير الناس في الأعمال الشاقة ، ونحو ذلك من المنكرات والفظائع ، وما ترتب عليها من المضار والمفاسد الخلقية وغيرها .

ونما لا ريب فيه أن المعرة شاركت غيرها من البلاد الخلية في هذه الكوارث ، وأصابها منها طل وابل .

وكانت الحكومة العثمانية حين خرج إبراهيم باشا إلى بلاد الشام وقبل ذلك ، ترهق أهلها ضرباً من العسف والخسف وكان المتغلبون عليها من الولاة والعمال يذيقونها أنواعاً من العذاب ، واستصفاء الأموال ، وخراب العامر وابتزاز الأموال

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٣ : ٢٤٤ فما بعدها (ج) .

(٢) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٣٦١ في بعدها (ج) .

بطرق شتى ، وقد وصف الشيخ أمين الجندي الحصري شيئاً من
أعمالهم في القصيدة السابق ذكرها التي يمدح بها ابراهيم باشا
وأباه ، ويهنئه بفتح الشام ، منها قوله :

سَلَبُوا الْبِلَادَ مِنَ الْعِبَادِ فَلَنْ تَرَى فِي حُكْمِهِمْ ذَا نِعْمَةٍ مُتَمَوِّلًا
وقوله :

وَاللَّهُ غَيْرُ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ لَمَّا تَغَيَّرَ حَالُهُمْ وَتَبَدَّلَا
وَقَدْ اسْتَبَاحُوا الْمُنْكَرَاتِ فَلَا تَسْلُ عَمَّا تَوَقَّعَ مِنْهُمْ وَتَحْصَلَا ..
ومنها قوله :

وَقَضَاتُهُمْ لِلشُّحِّ قَدْ أَكَلُوا فَمَلَّ أَنْبَصَرَتْ حَيًّا مِنْ مَضَرَّتِهِمْ خَلَا
نَبَذُوا الشَّرِيعَةَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ وَطَغَوْا وَزَادُوا فِي الضَّلَالِ تَوَغُّلًا
وَمَشَايِخُ الْإِسْلَامِ أَصْبَحَ عَلْمُهُمْ جَهْلًا فَلَمْ تَرَ قَطُّ مِنْهُمْ أَجْهَلًا
ثم ذكر البلاد الشامية التي افتتحها ابراهيم وذكر ما وقع فيها
من المعارك والأعمال حتى قال :

وَالِىَ سَمَاءَ الشَّامِ سَارَ وَبَعْدَهَا لِمَعْرِةِ النِّعْمَانِ يَخْتَرِقُ الْفَلَا
وَعَدَا يَجِدُ السَّيْرَ فِي آثَارِهِمْ بِمَوَاكِبِ وَكِتَابٍ لَنْ تَعْطَلَا
حَتَّى أَتَى حَلَبًا فَلَمْ يَرِ مِنْهُمْ إِلَّا طَرِيحًا أَوْ جَرِيحًا مُبْتَلَى

ولما كان محمد نجيب باشا مشيراً في الشام ، وردت أوامر
التنظيمات الخيرية إلى معرة النعمان ، وكانت توليته سنة ١٢٥٧ هـ
فتليت في الجامع الكبير العمري على الناس ، وقد عهد بتبليغها
إلى السيد أحمد أبي المواهب المالكي ، والسيد أحمد الجيلاني ،
وهذا بلغها أهل المعرة ، وقد ذكر هذه الحادثة السيد أمين
الجندي في قصيدة مطلعها :

سَحَرَ الْعُقُولَ بِلَحْظِهِ الْقَتَانِ وَفَضَائِلَ الْأَحْدَاقِ سَيْفَ يَمَانٍ

وفيها يقول في مدح السلطان عبد المجيد :

عَبْدُ الْمَجِيدِ بِمَجْدِهِ سَارَتْ إِلَى أَقْصَى الْبِلَادِ مَدَائِحُ الرُّكْبَانِ
نَزَعَ الْبِلَادَ مِنَ الْخَوَارِجِ عَنُودًا وَأَقْرَأَ أَعْيُنَ عِصْبَةِ الْإِيمَانِ

ويقول في المشير محمد نجيب باشا :

وَحَبًّا دِمَشْقَ بِعَامِلٍ مَا إِنَّ لَهُ فِي عَقْدِ أَرْبَابِ الْوَزَارَةِ ثَانٍ
وَهُوَ النَّجِيبُ مُحَمَّدُ زَاكِي الْحِجَا وَبُجْنَدِيلُ الْأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ

ويقول في الأوامر والتنظيمات الخيرية وقراءتها في المساجد :

تَلَيْتُ جِهَادًا فِي الْجَوَامِعِ لِلْوَرَى بِرَأْسِ التَّعْظِيمِ وَالْإِيمَانِ

ويقول فيمن تولى ذلك :

وإلى حماة وخصّ ثمّ معرة النعمان... نعمان كان سفير هذا الشأن
المالكي أبو المواب أحمد والجهبذ البدر الجليل الثاني
والله خصّ معرة النعمان بالبدر المنير سميّه الجيلاني
وفي أن كلاً منها اسمه أحمد :

هذا لعمر كخير فآل جاءنا بالأحمدين فقلّ هما بدران
وفي سنة ١٢٦٠ هـ نزلت جماعة من الفلاحين في بلاد
حماة والمعرة عن قراهم ، فأصدر علي رضا باشا والي إيالة
الشام أمراً إلى جد والدي محمد ، وكان مفتياً بالمعرة ، وإلى
ولده أمين ، وكان قاضياً فيها أن يذهبا إلى حلب ومعهما
خليل آغا رئيس جردة عساكره لاسترجاع الفلاحين النازحين
فكثروا شهراً ، وقد استطاعوا أن يرجعوا فريقاً من النازحين ،
فجعل خليل آغا متسلماً للمعرة .

وبالنظر لصعوبة طبعه وقع بينه وبين المفتي محمد الجندي
نفار شديد ، واشتكى إلى الوالي المذكور ، فطلب المفتي إلى
الشام ، وفي أثناء غيابه في الشام فرسكان القرى في المعرة ،

فعزل خليل آغا من المتسلمية ، وعين بدلاً منه عبد الله بن حسين ابن عثمان بن عبد الرزاق بن محمد الجندي الحصي أحد القبوجي باشية للباب العالي ، وكان ابن اخت المفتي محمد المذكور ثم عاد المفتي إلى المعرة ، وحضر ابن أخته المتسلم بعده وكان دخوله المعرة في اليوم الخامس من شوال سنة ١٢٦١ هـ .

وكان عبد الله حديث السن ، وكان في طبعه صعوبة بقدر ما كان في طباع أهل المعرة من الصعوبة ، وأراد أن يسلك بالناس طريقة عادلة ، فتكرت له خصومه ، واستثاروا عليه الدهماء والرعاع ، وحصروه في بيت خاله يوماً كاملاً ثم اضطروه إلى الخروج من البلدة قهراً .

ثم خرج في إثره مفتي المعرة المذكور ، ونقيب الأشراف فيها ، واجتمعا به خارج المدينة ، وازداد تعصب الناس على قاضي المدينة أمين ابن مفتيها ، وكتبوا شكايات إلى الوالي ذكروا فيها ما شاءوا ، ونسبوا إليه من الأعمال ما أحبوا ، ثم كلفوا القاضي أمين الجندي أن يوافقهم على ذلك ، فخرج من المعرة يوم الاثنين التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٦١ هـ

وأراد اللحاق بأبيه وبالنقيب والمتسلم ، وذلك بعد خروجهم
بسته عشر يوماً ، وبات تلك الليلة في قرية كفر زيتا ، وفي
اليوم الثاني صلى بهم صلاة العيد وذهب إلى حماة ، ثم إلى
حنص ، ثم طلب إليه أبوه ونقيب المعرة أن يذهب إلى
دمشق ، فدخلها في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة
 واجتمع بوالها علي باشا الكوتاهيلي ، وكان هذا قد طلب
خصوم المفتي والقاضي وجماعتهما من أهل المعرة ، فحضروا
ودفعوا أموالاً جزيلة رشوا بها الحكام ، ثم سعوا لعزل المفتي
والقاضي من منصبيهما ، وصدرت إرادة سنية باقامتهما في
دمشق ، وأن لا يخرجاً منها بدون فرمان عال من السلطان
وبقيا فيها حتى صدر فرمان بإطلاق سراحهما في غاية المحرم
سنة ١٢٦٣ هـ ، فخرجوا من دمشق في اليوم الرابع والعشرين
من صفر من السنة المذكورة ، ودخلا المعرة في غرة ربيع
الأول ، ثم أعيد كل منهما إلى منصبه السابق ، فكان الأب
مفتياً والابن قاضياً ، وسيأتي تفصيل ذلك في ترجمتهما .
وفي سنة ١٢٦٤ هـ ولت الحكومة الحاج أحمد بك بن نصوح

باشا مديرية حماة وحمص والمهرة . وقد مدحه السيد أمين
الجندي بقصيدة أرّخ فيها ذلك بقوله :

لَكَ الْحَمْدُ يَا ذَا الْجُودِ لَا زَالَ سَرْمَدًا

والقصيدة موجودة في ديوانه الخطي المحفوظ في مكتبي ومطلعها:
جَبِينُكَ أَمْ نُورُ الصَّبَاحِ لَنَا بَدَأٌ وَلَحْظُكَ أَمْ سَيْفٌ لِقَتْلِي تَجَرَّدَا
وفي سنة ١٢٦٥ هـ طبعت الحكومة العثمانية القانون السلطاني
المبين فيه دخول ذوي الأسنان العسكرية إلى القرعة من
المسلمين القاطنين في الممالك السلطانية ، وقد سمته في آخره
التعرفة في بيان القرعة العسكرية .

وقد رأيت بخط جدي سليم بن محمد الجندي على صفحة
من آخر التعرفة المذكورة جملة خلاصتها أنه يقول : قد تسلمت .
هذه التعرفة في مدة ولايتي الفتيا في معرة النعمان ، وذلك
في ٢٠ رمضان سنة ١٢٦٦ هـ ، وكان محمد سعيد باشا والياً
في الشام ، وكان قائم مقام المعرة في وقت تسلمه التعرفة
المذكورة عثمان بك محمد باشا انجي ييرقدار زاده ، ثم ختم
ذلك بخاتمه الرسمي .

وكتب على الوجه الثاني من جلد التعرقة المذكورة جملة
يبين فيها أن الذي أخذ من المعرة للصنف العسكري في سنة
١٢٦٦ هـ ستة عشر رجلاً منهم ستة من المحلة الشمالية ، وعشرة
من المحلة القبليّة ، وقد ذكر أسماءهم جميعاً وأن ذلك تم عن
يد المأمور بها مصطفى باشا ومحبي الدين أفندي ميمر الطلبة .
ورأيت بخطه على جلد التعرقة الأخير جملة يقول فيها :
في السابع من ربيع الأول سنة ١٢٦٧ هـ جاءه الشيخ يوسف
الشُّخنة ويده مراسلة قضاء المعرة ، وكان إذ ذاك السيد محمد
ابن عبد الله العلوان منصوباً وكيلًا بعد وفاة ابن عمه السيد
حسين العلوان ، فبرز جميع أهل المعرة ومنعوا الشيخ يوسف
ونزعوا المراسلة من يده ، ودفعوها إلى السيد محمد العلوان
شفقة عليهم لئلا يغلق قوناقهم « وهو المحل المعد لنزول الضيوف »
لأنهم جماعة فقراء أصحاب عيال .

وفي سنة ١٢٧٠ هـ دخلت سكاير الدخان أي اللفافات
وكان الناس قبلها يستعملون الدخان بالغليون الذي له قصبة
وكانوا يتنافسون في الغليون كما يتنافسون في القصبات

فيتخذون الغليون من فخار ، ويتخذون القصبات من يسمين
وأبئوس وغيرهما ، ويسمونها أمزك ، ويجعلون في رأسها قطعة
من الكهرباء الجيد ، وقد تكون قدر بيضة الدجاجة ، ويغالون
في ترصيعها وتزيينها بالفضة والذهب وألماس والفيرزج وغيرها
وقد أنكر الناس استعمال اللقائق أولاً ، ثم ألفوه لحفة مؤوته
وحمله ، وهجروا الغليون وما يتعلق به .

وفي سنة ١٢٧١ هـ جاء إلى حلب بزر البندورة ، وتسمى
الطماطم ، وزرع فائمر ، وكان الناس يأكلونه ما دام أخضر
فاذا احمر أنفوا من أكله ، ثم ألفوا أكله بعد احمراره واقتنوا
في أكله واتخاذ عصير منه واتخاذ دبس أيضاً ، وقلما خلا
طعام فيه خضر أو لحم من البندورة ، ودرج أهل المعرة على
آثار الحلبيين في ذلك .

وفي سنة ١٢٧٦ هـ وضع نظام البرق في الدولة العثمانية .
وفي سنة ١٢٨٦ هـ وضع نظام البريد ، وكان بريد الحكومة قبل
ذلك بواسطة السعاة والنجاين . وقد سمى الحكومة العثمانية

الأول تلغرافاً ، والثاني بوسطة ثم استعمل الناس كلمة البرق بدلاً من تلغراف ، وكلمة بريد بدلاً من كلمة بوسطة ، وذلك بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ .

وفي المعرة مركز للبريد والبرق ، ولكنني لا أعلم على التحقيق في أية سنة أنشأتها الحكومة .

وفي سنة ١٢٨٠ هـ دخل البترول ومصايحه مدينة حلب ، وكانوا يسمونه الكاز أو الغاز ، ويقال لمصباحه لمبة ، ومن عادة المعرة أن تحتذي على مثال حلب في كل شيء ، وكان الناس يخشون من استعماله على صدورهم أن تنأذى برائحته ، ويخافون على أبصارهم من شدة نوره .

ثم اقتصروا عليه ، وهجروا ما كانوا يستصحبون به من الشمع والزيت والشحم ، واستغنوا عن السراج والقنديل والفنار وغيرها من أدوات الاستصباح

وفي (نهر الذهب)^(١) في سنة ١٢٨٤ هـ أعلنت الدولة العثمانية النفير العام في بلادها لمحاربة روسيا ، وحشدت عساكر من جميع بلادها ، ومنها المعرة .

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٠٤ .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ ألحقت معرة النعمان بولاية حلب
وكانت قبلاً ملحقة بولاية دمشق مضافة إلى حماة .

وقد ذهب إليها والي حلب يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول
من السنة المذكورة ، فرتب أمورها وطاف في قراها .

وفي سنة ١٢٩٦ هـ أعلنت الحكومة التركية النفي العام
في البلاد العثمانية لمحاربة الروس ، وهذه الحرب المعروفة
بحرب القرم والقريم ، وقد كانت الغلبة فيها للدولة العثمانية
وحليفاتها انكلترا وفرنسا ، وقد عاد المتطوعون بعد ستة أشهر .

وفي شهر رمضان من سنة ١٣٠٨ هـ كان رجل يحرق أرضاً
على مقربة من مزار أو مسجد الشيخ حمدان في شرقي المعرة ،
فاستعصت سكة الحرث ، وأخذ يعالج إخراجها ، فوجدها
داخلة في طرف حجر كبير منحوت ، فأخبر صاحب الأرض
بذلك ، فأخذ يكشف التراب عن هذه الحجر ، فسقطت وسقط
معه عدة أحجار مثلها ، وهي كلها مربعة مستطيلة ، طولها
أكثر من أربعة أمتار ، وعرضها دون المتر ، فكشف عنها
التراب ، وأخرج الردم ، فأنحسر عن باب من الحجر الأسود

المحفور عليه نقوش وكتابة لم تمكن معرفتها ، وإذا في داخله غرفة كبيرة تحت الأرض منقورة في الصخر ، سقفها وأرضها وجدرها من صخرة واحدة ، وعلى سقف الباب وكثير من الأحجار أنواع من الرسوم ، وفي صدر الغرفة مقابل الباب قبران محفوران في الصخر ، وعن يمين الداخل قبران ، وعن يساره قبران ، كلها منحوتة من صخرة الجدار ، وعلى كل قبر غطاء من الحجر على قدره ، لا زيادة ولا نقص ، وبين الصندوقين المقابلين للباب عمود من الحجر قطعة واحدة مطوق من طرفيه بطوق معدني ، وبقرب العمود كوزان من الحجر ، متصل بعضهما ببعض ، ويقال : إن أصحابها أخرجوا ما في القبور من عاديات وحلي .

وأهل المعرة يسمون القبور المحفورة في الصخور خَشْخَاشَة ومنهم من يسميها ناووساً إذا كان فيها قبر أو قبران .

وفي أول ذي الحجة سنة ١٣٠٨ هـ عاد إلى المعرة داء البَيْضَة «الكوليرا» ، وضرب عليها الحجر الصَّحِّي عشرة أيام ، وظل هذا الداء يفتك في البلدة من أول ذي الحجة إلى أواخر صفر

لجمل الناس بمداواته ، وبأسباب التوقي منه ، وجعل الحكومة
وقلة عنايتها بذلك .

وفي هذه السنة جمعت أموال من أهل الحمية والغيرة ، ورُمم
المسجد الذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز في القرية المسماة بالدير
الشرقي من عمل المنعزة .

وفي رمضان سنة ١٣١٠ هـ منع قاضي المعرة ابراهيم الصوفي
اللاذقي الناس من الصعود إلى منارة الجامع الكبير وقت أذان
العصر مع المؤذنين ، وكان من العادة أن يصعد إليها فريق من
الشباب في ذلك الوقت في رمضان للتسلي ، فحظر عليهم ذلك
مدعياً أنهم يشرفون على مقر نسائه في داره القريبة من المسجد
فلم يمتنعوا ، وقالوا : لنا أسوة بالمؤذنين ، وفي وسع النساء أن
يمكنن في غرفهن حتى ينتهي الأذان ، فأحضر قوة من الجند ،
وكان هذا الجند ضبطية ، والعامية تقول ضبطية بمعنى درك في
هذا العهد ، ووقفوا على باب المنارة ليقبضوا على غير المؤذنين ،
فجعل الناس يلقون بأنفسهم من نوافذ المنارة على سطح السوق
المتصل بها من الغرب والجنوب ، حتى ضاقوا ذرعاً بذلك ،
وأصيب بعضهم برض أو كسر في رجله ، فثار عليه الناس

وقت الصلاة ، وهموا بالإيقاع به ، فترك الجامع وفر إلى دار الحكومة ، فاحتسى بها وحمته الجنود ، وتبعه الناس إليها ، ولكنهم لم يتمكنوا من ضربه وقتله ، وإنما ملؤه سباً وشتماً ، وكنت ممن شهد ذلك وتبعه إلى دار الحكومة .

وفي سنة ١٣١١ هـ ^(١) سعى الشيخ أبو الهدى الصيادي لدى الحكومة ، فبنى مسجداً وتكية في قرية حيش من عمل المعرة وزعم أن موضعها مرقد لأحد أجداده المسمى علي من آل خزام . وفي سنة ١٣١٢ هـ تفشى مرض الجدري ^(٢) في المعرة ، وذهب بعيون كثير من الناس ، وعمى كثيرون بسببه لفقد الأطباء . وفي سنة ١٣١٤ هـ ^(٣) فرضت الدولة العثمانية على المملكة إعانة ، سميت إعانة التأسيسات العسكرية ، فأصاب قضاء المعرة (١٧٣٧٥٠) درهماً ، وهذه الإعانة لتستعين بها على حرب اليونان في السنة المذكورة ، وكانت الحكومة تفرض من حين

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٢٣ (ج) .

(٢) في الصحاح للجوهري ١ : ٢٩٥ : والجدري بضم الجيم وفتح الدال والجدري بفتحها لقتان .

(٣) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٢٧ (ج) ..

إلى آخر ضرائب تسميها بأسماء مختلفة ، منها إعانة المعابد
الاسلامية وإعانة مهاجري كريد .

وفي سنة ١٣١٥ هـ كثر الثلج والبرد في المعرة ، واشتدت
وطأته فيها .

وفيها أو في سنة ١٣١٦ هـ حدث زلزال عظيم في المعرة ،
سقط بسببه بعض الدور ، وبات الناس في قلق عظيم أياماً
لتكرر الزلزال فيها ، ولم يحدث ضرر في النفوس .

وفي سنة ١٣١٧ هـ قتل أمير من أمراء الموالي يقال له :
عز و قتله الجند ، وكانت وطأته قد اشتدت على الناس ، واستطار
شره على القاصية والدانية ، فكان يأتي القرية ، فيأمر شيخها
أن يقدم إليه ما يطلب من ملابس وقهوة وحنطة وشعير وغير
ذلك ، فاذا امتنع أو تأخر أصلى القرية ناراً حامية ، وقتل
من وقع عليه بصره من انسان أو حيوان ، وقد أرسلت الحكومة
قوى متعددة للقبض عليه فلم توفق ، لأنه كان يدبر المكلف بالقبض
عليه ويرضيه حتى يدعي أنه لم يره أو لم يجده . ثم تعقبته
قوة في قرية الحيصنة من عمل حماة ، وأمنه قائدها ، فاستسلم
إليه ، فقاده إلى حماة ، حتى إذا كان بالقرب من مكان يقال

له : الدفّاعي ، قتله ورمى بغلاً للجند برصاصة في رجله ،
وادعى أنه عصى على الجند وحاربهم ، فأصاب بغلاً لهم
فقتلوه ، وهذا القائد كانت الحكومة أنفذته مع قوة من
الجند ، ليقبض على الأمير المذكور في البادية ، فامتنع عن
الاستسلام ، ووقعت بينه وبين القائد المذكور معركة شديدة ،
اتتهت بانزاع القائد وجنده ، وتبعه الأمير ورجاله إلى أبواب
حماة ، ولذلك احتال عليه هذه المرة ، وأمنه بواسطة مختار القرية
الذي نزل عنده ضيفاً ، فأخبر الحكومة بذلك ، فأرسلت
القائد مع جند ، ولكن لباسهم غير لباس الجند ، فجمعوا عليه
وهو لا يشعر ، وقد كان نزع سلاحه ، فلم يسعه إلا الاستسلام
للقوة ، فأمنه القائد ، ثم قتله كما قلنا .

وقد كان قتله راحة لاقليم حماة والمعدة وحلب ، لأنه كان
يسلب قراها طوعاً وكرهاً ، ويأخذ أثاثاً غير معدة بمقدار
أو زمن ، ويستخف بأشراف البلاد وأصحاب القرى ورجالها .
وفي سنة ١٣٢٠ هـ تفشى الهواء الأصفر في دمشق ، فأنبأت
حكومة حلب بذلك ، فأرسلت ضابطاً مع قوة من الجند
الدرك ، إلى كل موضع من حدود ولاية دمشق ، وهي قرية خان

شيخون ، والهبيط ، وقلعة المضيق ، والحراء ، لتكون تحت إمرة الضابط . ثم فُتح في خان شيخون مَخْرَجٌ صِحِّي ، فيه أطباء وأدوات للتبخير والتعقيم ، وفحص من يمر من ولاية دمشق إلى ولاية حلب ، وضرب على بقية القرى المذكورة النطاق الصحي . وفي شهر شباط من السنة المذكورة ذهب هذا المرض من دِمَشق ، وأزيلت الحواجز والمهاجر من الأماكن المذكورة . وفي هذه السنة عملت الحكومة احصاء للمولودين والمتوفين في ولاية حلب ، فكان عدد المولودين في المعرة ٣٦٦ ، والمتوفين ١٩٠ .

وفي سنة ١٣٢٣ هـ فرضت الحكومة ضريبة جديدة اسمها ويركو شخصي ، فطرحت على كل رجل بالغ مقداراً من المال ، بقدر يُسْره وعسره ، على أن لا تقل عن خمسة عشر قرشاً في السنة إلى مائتين .

وفرضت على كل موظف في أعمالها ، أن يحسم عن كل سنة مقدار راتب يومين ، إن كان راتبه لا يتجاوز خمسمائة قرش ، فإن تجاوز يحسم مقدار راتب أربعة وعشرين يوماً ، فامتنع أهل أرض الروم عن دفعها ، وهجموا على الوالي وأهانوه ،

فخافت الحكومة أن يستشري الشغب ، ويعم البلاد كلها ،
فأصدرت أمراً بإبطال هذا المكس .

وفي هذه السنة ١٣٢٣ هـ اتفقت الحكومة العثمانية ، وشركة
سكة حديد حماة وحلب^(١) ، التي شرعت في مد الخط الحديدي
ما بين حماة وحلب ، على أن تدفع الحكومة ثلاثة عشر ألف
فرنك وستمائة وستة وستين فرنكا ، باسم تأميمات عن كل كيلو
متر ، والمسافة ١٤٣ كيلو متراً .

وفي هذه السنة اشتدت وطأة الجراد في المعرة وغيرها من
أعمال حلب .

وفي سنة ١٣٢٤ هـ تم مد الخط الحديدي بين حلب وحماة ،
واحتفلت الحكومة بذلك في محطة حلب في ١٦ شعبان من السنة
المذكورة ، وقد ذهب هذا الخط من حماة إلى حلب في البادية
ولم يمر بالمعرة لأسباب كثيرة ، من أعظمها : جهل الحكومة
بما هو أصلح لها وأنفع لبلادها ، ومنها : أن الخط في هذا
الطريق يمر على قرية لأخي أبي الهدى الصيادي ، وقرى لبعض

(١) انظر تفصيل ذلك في نهر الذهب لكامل الغزي ٣ : ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

أعيان حماة والمعرة وحلب ، ولو مر بالمعرة لأبعد عن تلك القرى ، وحرّم أصحابها الفائدة التي يتوقعونها من مروره ، مع أن الفرق بين الطريقين قليل من حيث المسافة ، ولو مر بالمعرة لمر على قرى كثيرة ومزارع متعددة ، وأحيا هذه المدينة ، وجعلها من أممات المدن الشامية .

وفي سنة ١٣٢٦ هـ أعلن الدستور العثماني .

وفي سنة ١٣٢٧ هـ في السابع من شهر ربيع الأول خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وخلفه أخوه محمد رشاد . وابتهج الناس وظنوا أنهم خلصوا من جور عبد الحميد وعمله ولكنهم لم يلبثوا أن بكوا على عبد الحميد وأيامه ، لأنهم رأوا في كل موظف اتحادي ألف عبد الحميد .

وقد أصاب المعرة نصيب وافر من عسف الاتحاديين واقتنائهم في النهب والسلب باسم الحكومة أو بطريق آخر .

وفي سنة ١٣٢٩ هـ اشتدت وطأة الثلج في المعرة وغيرها حتى وقف القطار عن السير بين حلب ودمشق ، وسدت الطرق بين البلاد ، وارتفعت أسعار الوقود من الحطب والفحم ، ومات كثيرون من المسافرين في الطرق ، ودام ذلك أكثر من شهر

وزعم بعض المؤرخين أن نهر العاصي جمد على مقدار أربعة أذرع من جانبيه ، وأن الفرات جمد كله من بعض جهاته ، وأن كثيراً من الأعمدة الحجرية والحجارة والرّخام في المساجد والآنية الزّجاجية في البيوت تصدعت وتحطمت ، وأن البقول والخضراوات وأشجار التين والجوز والزيتون والرّمان أتلفه الصقيع في كثير من الأماكن .

وفيها شتت الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية ، وانتهت سنة ١٣٣٠ هـ باستيلاء إيطاليا على طرابلس الغرب ، وجزيرة رودس^(١) ، وغيرها من جزر بحر إيجه .

وفي سنة ١٣٣٠ هـ ابتدأت حرب البلقان بين تركيا ودول البلقان : بلغاريا والصرب واليونان . ولم يبق لتركيا في البلقان إلا أدرنة وقرق كليسا .

وقد حشدت تركيا جيشاً كبيراً من أبناء العرب في البلاد الشامية ، وكان لأبناء المعرة حظ وافر من ذلك ، وقد أصابوا

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢ : ٨٣٢ : رودس قال القاضي عياض : هو بضم أوله ضبطناه عن الصدي والأسدي وغيرهما إلا أن الخشني والتميمي فانه عندهما بفتح الراء ولم يختلفوا في الدال أنها مكسورة .

عناء كبيراً من المشاق من تعب وبرد وجوع ، وزادهم ضِعْفاً على إِبْالة ما كانوا يرونه من الضباط والأمراء من الإهانة والقسوة والغِلظة .

وفي سنة ١٣٣١ هـ سمحت الحكومة بأن تقبل الرفيعة (الاستدعاء) باللغة العربية في البلاد التي يكون أكثر أهلها عرباً ، وكذلك سمحت بالتدريس باللغة العربية في المكاتب التي في البلاد العربية .

وفيها صدر أمر بجعل الساعات على الزوال ، بدلاً من الغروب ، أي جعل الزوال مبدأً للتوقيت في جميع البلاد . وفيها شرعت الحكومة تجد بجمع إعانة الأسطول في سائر بلاد الدولة العثمانية .

وفي ١٠ رمضان سنة ١٣٣٢ هـ الموافق ٢١ تموز سنة ١٩١٤ ميلادية أعلنت في حلب وملحقاتها الحرب العامة ، واشتركت الحكومة العثمانية فيها ، فكان نصيب المعرة من سوق أهلها للجندية والاستيلاء على أرزاقهم وغلاتهم ، باسم الاعاشة والإعانة المختلفة الألوان ، نصيب بقية الأمصار الشامية ، وأصاب أهلها من الجوع والضغط والحيات وما شاكلها ما أصاب غيرها في

ذلك العهد ، وقد باغني أن كثيراً من الأسر الكريمة في المعرة لم تطل أيديهم إلى خبز الشعير ، فكانوا يعيشون بما تنبت الأرض من البقول والنبات في الربيع ، ويدخرون منه للشتاء ، وكثير من ذهب ضحية الفقر والجوع .

وفي ١٢ رمضان أعلنت الإدارة العرفية في حلب وملحقاتها وفي هذا الشهر بدأت الحكومة بأخذ الأموال من التجار ، باسم التكاليف الحربية بالقيمة التي تقدرها لجنة تسمى لجنة المبايعات ألفت لهذا الغرض ، فكانت تقدر قيمة البضاعة وتأخذها وتعطي صاحبها مضبطة بقيمتها ، على أن تدفع له بعد مدة غير معلومة . وكانت الضباط تطوف على مخازن التجار وتكتب ما عند كل واحد من بضاعة أو غلة لتلا يخفيها أو يبيعها .

وفي سنة ١٢٣٣ هـ وصل الورق النقدي العثماني المسمى بانقوت ، ووضع موضع التداول بين الناس ، بدلاً من النقود المعدنية ، فأقبل الناس على تداوله ، ثم امتنعت إدارة حضر الدخان عن قبوله ، وكلفت الحكومة التجار أن تبدله بالذهب فأدى ذلك إلى هبوط قيمته ، حتى بيعت الورقة في آخر الحرب بأقل من عشر قيمتها .

وفيها فرضت الحكومة ضريبة ستمتها إعانة نقدية ، باسم الكسوة الشتوية للجند ، واستمر جمعها إلى نهاية الحرب .

وفيها أُنجلت الحكومة العثمانية الأرمن عن بلادهم ، وفرقتهم على البلاد السورية ، وأقام في المعرة منهم فريق عظيم ، وادعوا الاسلام ، فلما وضعت الحرب أوزارها ارتدوا إلى دينهم الأول . وفي رجب سنة ١٣٣٤ هـ ومايس سنة ١٩١٦ م خنقت الحكومة العثمانية واحداً وعشرين رجلاً من زعماء الجمعية اللامركزية التي عقدت في باريس قبل أربعة أعوام مؤتمراً عربياً ، غايته إعطاء البلاد السورية الحكم اللامركزي تحت سيادة الدولة العثمانية ، قتل منهم شقناً أربعة عشر رجلاً في يَزْزُوت ، وسبعة في دِمَشْق .

وفي سنة ١٣٣٤ هـ ثار على الحكومة العثمانية الشريف حسين بن الشريف علي ، واستولى على مكة المكرمة ، وجُدَّة ، والطائف ، وَيَنْبُع ، وطرد الجيوش التركية منها . وفيها شرعت الحكومة العثمانية باجلاء بعض الأسر الكريمة من دِمَشْق ، من أقرباء زعماء الجمعية اللامركزية الذين خنقتهم شقناً .

وفي سنة ١٣٣٥ هـ في اليوم السادس من المحرم نودي في مكة والبلاد الحجازية بأن الشريف حسين أمير مكة ، أصبح ملكاً على البلاد العربية العثمانية .

وفيها أقر مجلس النواب العثماني توحيد أوائل الأشهر الشمسية الشرقية والغربية ، فاعتبر رأس السنة الشمسية الشرقية أول شهر كانون الثاني أسوة بالغربيين ، إلا أنه أبقى عدد السنين كما كان ، واعتبر أول سنة ١٣٣٣ الشرقية ابتداء من كانون الثاني ، واسقط ثلاثة عشر يوماً من كانون الأول ، وهي الفرق بين السنة الغربية والشرقية .

وبعد خروج العثمانيين من بلاد الشام ، جرت الحكومة العربية التي خلفتها على التاريخ الغربي الميلادي .

وفيها أصدرت الحكومة قانوناً ، يقضي بالصاق طوابع على علب الكبريت (الثُّقَاب) ودفاتر ورق السيكرة .

وقد قل المطر في هذه السنة أي سنة ١٣٣٥ هـ وخاف الناس من القحط والجذب ، ويسوا من حياة الزرع ، فارتفعت أسعار القمح إلى درجة غير متوقعة ، وأعظم الأماكن التي كان

ففيها الخُلجُ جمة الأَحَصِّ وقضاء المعرة . وكانت أواخر هذه السنة وأوائل السنة التي تليها أشد أيام الحرب على الفقراء حتى أنهم كانوا يقتاتون من الحشيش ، فيسلقونه ويأكلونه كما كانوا يأكلون قشور الفواكه والبقول وكل ما تنبت الأرض . وكان تجار الحنطة والطحانون والخبازون ، يخلطون دقيق البرِّ بدقيق الشعير والذرة البيضاء والصفراء والثرْمس والثخالة والترابُ والرماد وبزر المكاس وما أمكن خلطه، ويبيعون الخبز بأسعار باهظة وهو غير ناضج . وكان الجزارون يخلطون لحوم الحمير ونحوها بلحوم الغنم والبقر .

وكانت الأزقة والمنازل تعج بالأنين والبكاء من الجوع من الاطفال والكهول والشيخوخة ، وكانت بعض الطرق تنقص بالموتى من الجوع ، يجري هذا كله والتجار والمحتكرون يحملون قلوباً كالخجارة ، بل هي أشد قسوة ، فلا ترثي لشاك ، ولا ترق لباك ، ورجال الحكومة شركاء المحتكرين في القسوة ، وشركاؤهم أيضاً في طلب السعادة من شقوة الناس ، والتماس الشعب من جوعهم ، فيتعامون عن هذه المشاهد المؤلمة ، ويتصامون عن سماع تلك الأنات المحزنة .

وبمثل هذه الفصول الموجعة المخزية ابتدأت هذه الحرب ،
وبمثلها اختتمت ووضعت أوزارها ، وبمثلها مرّ ما مرّ من
الأيام السود بين أولها وآخرها ، وبمثلها انتهت أيام الدولة
العثمانية .

وقد قوض الله دعائم هذه الدولة الجائرة ، وطوى سجل
أعمالها على مثل المخازي التي دونت في أول صحيفة من حياتها .
وفي سنة ١٣٣٦ هـ اشتد الغلاء والقحط على ما ذكرنا ،
وزاد على ما كان في السنة السابقة .

وفي هذه السنة في ٢٤ رمضان توفي السلطان محمد رشاد
الخامس ، وتبوأ السلطان محمد وحيد الدين عرش السلطنة
العثمانية بدلاً منه .

وفي اليوم الثاني من المحرم سنة ١٣٣٧ هـ استولت على
دمشق عرب الشريف حسين ، الذين هم مقدمة جيش بريطاني
ودخل الجيش البريطاني والعربي أول تشرين الأول سنة
١٩١٨ م ، وقد رحل عنها معظم رجال الترك من موظفين
وعسكريين قبل ذلك .

وفي اليوم العشرين من المحرم دخل الجيش العربي مدينة حلب يرأسه الشريف مطر نائب الشريف فيصل ونزل في دار الحكومة ، وتيقن الناس أن ظل الحكومة التركية تقلص عن بلاد الشام .

وفي يوم ٢١ منه وصلت إلى حلب الجنود الانكليزية ، على اختلاف أنواعها من فرسان ومشاة ، واختلاف أديانها وأنواعها . وقد مر العرب والانكليز بالمعرة في طريقهم إلى حلب .

وفي يوم الثاني والعشرين منه وصل إلى حلب الشريف ناصر وكيل الشريف فيصل ، وبعد وصوله بيومين ألف مجلس شورى لينتخب الدرك والشرطة أولاً ، ثم ينتخب موظفين لأعمال الحكومة ، وكان عدد أعضائه اثني عشر عضواً فانتخبوا كامل باشا القدسى رئيساً لهم ، ثم انتخبوا الموظفين . ثم عين شكري باشا الأيوبي حاكماً عسكرياً على حلب من قبل حكومة دمشق ، وعين كامل باشا القدسى قائداً عاماً وحاجباً فخرياً للملك العرب .

وفي اليوم السادس من صفر وصل الأمير فيصل إلى حلب ،
ومعه الوفد الذي صحبه من دمشق ، والوفد الذي ذهب إلى
حماة لاستقباله .

وأول شيء فعله هو حل مجلس الشورى ، لما بلغه عنه
من سوء إدارته ، وأمر أن تؤلف لجنة من كبار الموظفين
في الحكومة .

وفي اليوم الثامن منه حضر فيصل في موكب حافل إلى
نادي العرب ، فجلس في مكان أعد له فيه ، وصار الناس
يتقدمون إليه زمرة بعد زمرة ، يبايعون أباه على أن يكون
ملكا للعرب .

ثم بعد أن أخذ البيعة لأبيه ، قام إلى مكان آخر أعد له ،
وسمع أقوال الشعراء والخطباء ، ثم خطب في الجمع خطبة
ذكر فيها ما وقع بين والده وبين الترك ، وذكر الأسباب
التي ألجأته إلى الخروج عليهم ، وما وقع بينه وبين دول
الغرب من المحالفات والعدود ، وما حدث منهم من المساعدات
المادية والمعنوية ، ثم حضّ على التمسك بأهداب الوحدة

والمحافظة على الاستقلال ، وطلب منهم أن يعنوا بحفظ الأمن وترقية المعارف ، وكانت هذه الخطبة جامعة لكل ما ينوي عمله من وجوه الاصلاح ، ومن الوسائل التي تحفظ استقلال الأمة وتعلي شأنها بين الأمم .

وفي اليوم العاشر من صفر وردت إلى فيصل برقية تقضي بشخصه إلى مكة المكرمة ، ليقابل والده فيها ، ثم يذهب إلى باريس ليمثله في مذاكرات الصلح ، فذهب فوراً .

وفي ٢٩ رجب من سنة ١٣٣٧ هـ و ١٩ نيسان سنة ١٩١٩ م عاد من أوروبا ، فوصل إلى بيروت في اليوم المذكور ، وشخص إلى دمشق .

وفي يوم ١٢ رمضان وصل إلى حلب الأمير فيصل قادماً من دمشق في القطار ، ونزل في الدار المعدة لنزوله في محلة العزيزية .

وفي اليوم التالي أقام له نادي العرب حفلة حضرها الجم الغفير من الحليين ، وألقى خطاباً أشار فيه إلى أن الحلفاء الظافرين أرسلوا لجنة لتبحث عن رغائب السوريين في نوع
١٥ (١٥)

الحكم الذي يريدونه ، بعد جلاء الترك عن بلادهم ، وحضهم على التآلف والتكاتف ، والابتعاد عن كل ما يدعو إلى تفريق الكلمة ، والتمسك بالعروبة ، وتوحيد الكلمة والرأي ، ثم عاد إلى دِمَشق .

وقد وصلت برقية من المارشال أللني ، يقول فيها : تصل إلى الشرق عما قريب اللجنة التي تبحث في الأمور المتعلقة بمستقبل سورية وفلسطين والعراق السياسي ، وذلك بعد أن يكون المندوبون الأمريكيون قد تحقق سفرهم إلى هذه الأقطار وعندما تنتهي هذه اللجنة من فحص الحقائق المتعلقة بهذا الشأن يقدم أعضاءها رأيهم إلى مجلس الدول المتحالفة العظمى ، فيقرر المجلس الأمر تقريراً نهائياً .

وفي اليوم السادس عشر من رمضان اجتمع في دار الحكومة في حلب المنتخبون الثانويون ، وانتخبوا أعضاء ليمثلوا حلب وملحقاتها في المجلس العمومي ، والمؤتمر السوري الذي تقرر اجتماعه في دمشق .

وفي اليوم التاسع من شوال دعا الأمير فيصل أعضاء المؤتمر

السوري إلى النادي العربي في دِمَشق ، ولما اجتمع الأعضاء
خطب فيهم خطبة بيّن فيها أن الغرض من اجتماع المؤتمر
تمثيل الامة السورية أمام اللجنة الامريكية ، وإيضاح مطالب
السوريين لتقدمه اللجنة إلى مؤتمر السلام ، ووضع قانون
أساسي يكون دستوراً لأعمال الامة في المستقبل .

وبعد مدة يسيرة اجتمع أعضاء المؤتمر وقرروا أن يكون
جوابهم واحداً إلى اللجنة الامريكية ، وهو عبارة عن طلب
الاستقلال التام لسورية بجميع حدودها الطبيعية المعروفة وعدم
تجزئتها ، ورفض كل حماية ووصاية عليها ، ومنع الهجرة
الصيونية ، وإقامة حكومة دستورية ديمقراطية يرأسها الأمير
فيصل ، ووضع قانون أساسي تراعى فيه حقوق الأقليات .

وإذا لم يكن بد من انتداب دولة على سورية لأسرار لا
ندرك غايتها ، فلتكن هذه المساعدة من دولة أميركا البعيدة
عن المطامع الاستعمارية بشروط معينة ، على أن لا تمس
هذه المساعدة استقلال سورية السياسي ، بل تكون عبارة عن
مساعدة فنية علمية لمدة عشرين سنة ، وإذا أثبت أميركا ذلك

فلتكن هذه المساعدة من انكلترا بالشروط المتقدمة ، واننا نرفض كل حق تدعيه دولة فرانسة ، كما نرفض كل مساعدة تقدمها لسورية ، ولم يكن قرارهم هذا عن اجماع ، بل أقره ٤٦ عضواً وخالف فيه ١١ عضواً ، وعُدَّ ١٦ عضواً مستكفين .
وفي ليلة ١٦ شوال سنة ١٣٣٧ هـ وصل أعضاء اللجنة الأمريكية الى حلب بالقطار .

وفي صباح يوم ١٧ منه أخذ شيوخ العشائر ووجهاء المحلات في حلب ووجهاء الأقضية يفتدون على اللجنة على سبيل الانفراد ، فتسألهم عن مصير بلادهم ، فكان كل واحد يصرح بما يطلبه، وكانت مطالب هؤلاء لا تخالف ما قرره المؤتمر السوري .
وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٧ هـ سافر فيصل الى أوروبا ، ليحضر في باريس اليوم السادس عشر من ايلول سنة ١٩١٩ م ، وهو اليوم الذي عُنِيت لتبحث فيه المسائل السورية .

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ انسحب الجيش الانكليزي من دِمَشق وحلب ، وأصبحت محافظة الأمن منوطة بالحامية الوطنية المتطوعة ، الى أن يقرر مصير البلاد في مؤتمر الصلح الدولي .

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني من سنة ١٣٣٨ هـ عاد الأمير فيصل الى بيروت ، فدِمَشَق .

وفي اليوم التاسع من جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ هـ وصل الى حلب في قطار خاص ، وفي اليوم العاشر ألقى خطاباً في حفلة أقيمت له في نادي العرب حض فيها على توحيد الكلمة والتجديد ، وقال فيها : إن البلاد لا تتخلص إلا بقدرة الله وقوة التجديد ، وإن الجند حرس الاستقلال ، ثم عاد في اليوم العاشر الى دمشق . وفي جمادى الأولى من هذه السنة ، عين عبد الحميد باشا القَلْطَقْجِي حاكماً عسكرياً على حلب ، وأحدث فيها متصرفية مستقلة ، ثم بعد قليل عادت حلب ولاية كما كانت في السابق . وفي الثامن عشر من جمادى الآخرة من سنة ١٣٣٨ هـ والموافق ٨ آذار سنة ١٩٢٠ م أعلن استقلال سورية ، وتوج الملك فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، وأخذت وفود المهثين من البلدان السورية تفد على دِمَشَق ، وكان المؤتمر السوري قد قرر إعلان ملكية فيصل .

وفي اليوم العشرين من رجب سنة ١٣٣٨ هـ عين رَشِيد طليع والياً على حلب .

وبعد مبايعة الملك فيصل شرعت الحكومة السورية تدعو إلى التجنيد ، وأخذت تزيد الضرائب .

ومنذ شعر السوريون أن الحكومة الافرنسية ستتولى الانتداب على جميع سورية ، كما تولته على لبنان ، وعلى المنطقة الشرقية من سورية ، تألفت في هذه المنطقة عصابات ، واستفحل أمرها ، حتى جهز الافرنسيون جيشاً عظيماً لتفريقها ، ولم تخمد ثورتها إلا بعد عناء وجهد .

ثم انتشرت العصابات في جميع الحدود السورية ، فأقلق ذلك الافرنسيين ، وارتأبوا في الملك فيصل ، واعتقدوا أن ذلك من تديره وعمله ، وكان الجنرال غورو المفوض للجمهورية الافرنسية بلبنان يعزز جيوشه في الساحل ، ويعد العدد للاتقضاض على سورية .

ثم أرسل في ١١ تموز سنة ١٩٢٠ م إلى فيصل كتاباً يقول فيه : كانت السكينة سائدة في سورية أثناء الاحتلال الانكليزي ، فلما حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ، ابتداءً الفساد ، ولا يزال آخذاً في الازدياد

وفي ١٤ تموز أرسل إلى الملك فيصل بلاغاً يكلفه فيه أن يعطي فرنسا الخط الحديدي من رياق إلى حلب ، وأن تلغي الحكومة السورية القُرعة العسكرية ، وأن يقبل الانتداب الافرنسي والنقود السورية ، ويضرب على أيدي الاشقياء ، فطلب منه فيصل أن يمهله أربعاً وعشرين ساعة ، فلما انقضت مددت أربعاً وعشرين ساعة أخرى ، ثم مددت مرة ثانية ، ولم يجب لانقطاع الاسلاك البرقية ، وأكثر الناس يقولون : إن مدير البرق والبريد آخر إرسال جواب فيصل عمداً لغرض في نفسه ، وكان الجنرال غورو أتم تأهبه واستعداده ، فسار بجيوشه إلى دِمَشْق ، والتقى الجيش الافرنسي والجيش العربي في ميسلون ، وكان مع الجند العربي فئة من متطوعة دمشق وجماعة من البدو ، فكانت الغلبة للجيش الافرنسي ، لوفرة عدده وعدده ، ووحدة قيادته وحسن تدريبه ، ولأن جيش فيصل كان مؤلفاً من اخلاط أكثرهم كان قلبه مع الافرنسيين . ويقال : إن الجنرال غورو أعلم الملك فيصلاً بأنه يتوقف عن الزحف ، إذا قبل بالمواد التي ذكرها في البلاغ . والانذار

الذي أرسله إليه مع شروط أضافها إلى ذلك ، فتأخر جواب الملك ، فزحفت الجيوش الافرنسية ، ودخلت دمشق في اليوم الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٢٠ م بعد معركة شديدة قتل فيها من الجيش العربي والمتطوعين عدد عظيم ، وأسر عدد كبير. هذا ما حدث في جهات دِمَشْق ، أما ما كان في حلب فقد جاء أمر من قائد الجيوش في دمشق إلى قائد الجيش في حلب بأن يستعد إلى مقاومة الجيوش الافرنسية ، فأخذ يعد جيشاً من الجند الوطني واستطاع أن يضم إليه بضع مئات منه واستدعت الفئة القائمة على الأمر بعضاً من الأعراب واستنفرت العامة ، فخرج فريق منهم إلى الثُّكْنَة العسكرية وطلبوا من القائد السلاح فلم يعطهم ، وطلب الجند عدداً من المدافع فقال لهم : ان المدافع التي في الثكنة مختلة لا تصلح للاستعمال .

ثم ورد أمر من القائد العام في دمشق إلى قائد حلب بالتسليم وعدم مقاومة الافرنسيين ، ثم جاء أمر بمقاومة الافرنسيين .

ولما رأت حكومة حلب هذا التناقض ، وتيقنت عجز الأمة عن المقاومة عقدت مجلساً مؤلفاً من وجهاء حلب ، واستشارتهم

في ما يجب أن يفعلوا ، فاختلقت الآراء بقدر اختلاف العقول والمدارك ، ثم رأى كامل باشا القدسي ان محاربة الافرنسيين تضر البلاد ولا تنفعها ولا توصل الأمة إلى غايتها المطلوبة ولما كان من رجال العسكرية وأمرائها ، وكان عالماً بما عند الأمة من عدد وُعدد أجمع الناس على قبول رأيه ، وقرروا التسليم للجيش الافرنسي عن طوع ورضى .

وقبل أن يصل الجيش الافرنسي إلى مدينة حلب ، حلقت فوقها طائرة افرنسية وألقت نسخاً من منشور باللغة العربية ، جاء فيه : ان دولة فرانسة لا تتعرض إلى استقلالكم بسوء ، ولا تدعو أحداً منكم إلى الجندية ، وانها ستخفف عنكم الضرائب وتبقي كل موظف منكم في عمله .

وان مقاومة جيشها بالقوة يضر بالمدينة وأهلها ويضطر الجيش الافرنسي إلى أعمال لا تحمد مغبتها ، والمنشور والبيان طويل طافح بالوعد والوعيد .

وفي صباح الجمعة وهو اليوم الثامن من ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ٢٣ تموز سنة ١٩٢٠ م دخل الجيش الافرنسي مدينة حلب ، واحتل المراكز التي أرادها في أطراف المدينة ،

ثم جرى احتفال عظيم بقدوم الجنرال دي لاموط قائد الجيش
الافرنسي في المنطقة السورية الشمالية ، ثم زار مقر الولاية ،
والقى خطاباً قال فيه : إن فرانسة وجيوشها لم تدخل هذه
البلاد بصورة عدائية لأهلها ، وليست غايتها الاستيلاء على
البلاد واستعمارها ، بل إن الواجب الوطني هو الذي ألقى على
عاتقها لترقية البلاد واسعادها ، وابلاغها الدرجة القصوى من
الرقى والعمران . وعلى هذا فان الحكومة ستبقى على ما هي
عليه محافظة على شكلها وموظفيا وقوانينها وأحكامها ، وان جميع
الضباط والقوات الافرنسية يحترمون هذه الاحكام والقوانين
وسيكونون مؤيدين لتنفيذ أوامر الحكومة وأحكامها . ثم طلب
من رؤساء الاديان والاعيان والاهلين دوام الالفة والمحبة واطاعة
الحكومة ، لانهم يكونون سعداء بذلك ، لا سيما إذا تحققت
أمانهم ورأوا بلادهم سعيدة حرة مستقلة .

وفي اليوم التاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هـ الموافق
٣ آب سنة ١٩٢٠ م عين كامل ياشا القدسى الحلبي والياً
على حلب .

وفي اليوم العشرين من حزيران سنة ١٩٢١ م أعلن الجنرال غورو في دِمَشق أساس الوحدة السورية ، بإنشاء مجلس اتحاد لها يتألف من دولة دمشق وحلب والعلويين ، أعضاؤه خمسة عشر عضواً ، من كل دولة خمسة ، والاعضاء يختارون منهم رئيساً . وقد عين صبحي بركات الخالدي رئيساً ، واختار لدوائر الاتحاد جماعة من الاتراك والارمن والروم مع العرب ، فاستاء الوطنيون لذلك .

واجتمع هذا المجلس في السنة الاولى في حلب ، ثم نقل إلى دمشق ، وبقي فيها إلى انتهاء حياته .

وفي يوم ٢٦ حزيران سنة ١٩٢٤ م و ٤ ذي القعدة سنة ١٣٤٢ هـ أعلن المفوض السامي الجنرال ويغاند في دمشق الوحدة السورية ، وتأليف الدولة العربية السورية من حكومتي دمشق وحلب فقط ، واخرج بذلك دولة العلويين ودولة جبل الدروز ودولة لبنان .

وفي اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م الموافق سنة ١٣٤٣ هـ أعلنت الوحدة بين دمشق وحلب فقط ، وعينت

الوزارة برئاسة صبحي بركات الخالدي ، على أن لا تسأل وزارته أمام مجلس النواب ، وتستمد قوتها من المفوض السامي ويكون للمستشارين الكلمة النافذة في كل أمر .

وفي حزيران سنة ١٩٤١ م الموافق جمادى الاولى سنة ١٣٦٠ هـ دخل الجيش الانكليزي مدينة دمشق بعد حرب مع الجيش الافرنسي الذي كان في بلاد سورية ولبنان، ثم طلب المفوض السامي للجمهورية الافرنسية في سورية ولبنان والقائد الاعلى لجيوش الشرق فيها الهدنة ووقف القتال إلى أن يتم الصلح ، فوقف ، وانتهت المصالحة بين الفريقين ، واستولى الجيش الانكليزي على الثكنات والقلاع والمساح ، ودخل مدينة حلب في الساعة ١٢/١٥ من يوم الاربعاء الموافق ١٦ تموز سنة ١٩٤١ م و ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٦٠ هـ من طريق منبج ، وطريق المعرة .

وفي سنة ١٣٦٩ هـ يبس أكثر شجر الزيتون والتين واللوز وغيرها في المعرة وحلب وإدلب وكثير من البلاد الشامية ، وذلك بسبب الصقيع ويقدر عدد الشجر الذي يبس في هذه البلاد بألوف الاولوف . وكانت التجار تنقل حطب الزيتون من حلب والمعرة وإدلب

وغيرها إلى حماة وحنص ودمشق وغيرها . ولم يعهد الناس مثل هذه المصيبة في الشجر .

ومما تقدم يتضح أن المعرة كانت حين الفتح الاسلامي من عمل حنص ولذلك اضيفت إليه . ثم جعلها الرشيد من العواصم بعد أن استخلف سنة ١٧٠ هـ . والظاهر أنها أعيدت إلى حنص ، لأن واليها لؤلؤاً كان غلاماً لوصيف بن صور اتكين ، وبني خندقا عليها سنة ٢٨٨ هـ .

ثم استولى عليها سيف الدولة سنة ٣٣٣ هـ ، فصارت تابعة لحلب ، ثم تغلب بنو مرداس عليها .

ثم تغلب عليها الفرنجة سنة ٤٩٢ هـ .

ثم استخلصها عماد الدين زنكي سنة ٥٢٩ هـ ثم ملكها سنة ٥٣١ هـ .

ثم جعلها صلاح الدين من اقطاع ابن أخيه تقي الدين عمر وألحقها بحماة سنة ٥٨٢ هـ .

ثم ملكها الحلبيون سنة ٦٣٥ هـ ، ثم أعيدت إلى ملك حماة المظفر سنة ٦٥٨ هـ . .

ثم استولى عليها التتر سنة ٦٩٩ هـ ، ثم عادت إلى ملك حماة أبي الفداء سنة ٧١٠ هـ .

وظلت حيناً من الزمن من عمل حماة . قال ابن فضل الله
العمري في حماة : وليس لها سوى عاملين عمل بارين وعمل
المعرة ، ونقله عنه ابن الشحنة ^(١) في (الدر المنتخب) .
ثم صارت من عمل حلب في أخريات العهد التركي ، [ثم
صارت من مناطق محافظة ادلب] ، ولم تزل كذلك إلى هذا اليوم .

(١) قال ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ١١ : وحماة اليوم منفردة بعمل
لكنها كانت من مضافات حلب قديماً ومضاف إليها المعرة وقرى
كثيرة من بلد المعرة .

المعزة بعد جلاء الترك

كيف ترك الترك المعزة :

اتضح لنا بما سبق ذكره أن المعزة من أكثر البلاد الشامية مصائب ونوائب ، من الغزاة والفاحين والمتغلبين والمناهيين ، والطبيعة القاسية ، وأنها أكثرها صبراً على النوائب ، وأشدّها محاسنة للزمن الجائر ، وأنها خربت مراراً وعمرت ، ونزح أهلها عنها حيناً من الزمن وعادوا إليها ، وأن أفضح ما لقيته من الكوارث من الصليبيين ، ثم من التتر ، ولكنها استطاعت بعد ذلك أن تستعيد نضرتها وعمرانها ، وأن تظل مدينة جليلة ، كما وصفها المؤرخون وأصحاب الرّحل .

ولما استولت عليها الدولة العثمانية ، كانت تباع بيع السلع للموآين من قبل الحكومة ، أو تعطى لقاء فريضة مقطوعة لمتغلب . وقد ضن علينا التاريخ بمعرفة حالتها في أول الحكم العثماني ، ولكننا لم يفتنا معرفة آخره .

فقد كانت المعرة في ذلك العهد مركز قضاء ، فيه حاكم إداري يسمى : قائم مقام ، وقاض شرعي يشرف على أعمال المحكمة القانونية ، ثم جعل فيها حاكم مدني غير القاضي يحكم بالقانون المدني وتتألف المحكمة التي يرأسها من عضوين ، وقد تغير شكل الحكام المدنيين والمحاكم المدنية أكثر من مرة . وكان الأمر كله بيد الحاكم الإداري ، فإن كان حسن السيرة ، كان ضعيف الإرادة ، ولقي من المتغلبين من أهلها ضروباً من الكيد والمعاكسة ، ثم لا يزالون يشكون أمره ، ويفترون عليه لحكومة حلب التي لا تعد أنصاراً لهم منها ينعمون بما يبذلونه إليهم من الأموال التي يبتزونها من الفقراء ، حتى يستبدلوه بغيره ، فإن كان مثل الأول صار إلى مثل ما صار إليه ، وإن كان على غير هذه الشاكلة وضع يده في أيديهم ووافق شن طبقة على السلب والنهب والعسف والتعذيب ، لامتنعاص دم الأمة فيها ، وهي تستغيث بحكومة حلب وبحكومة الاستانة^(١) أحياناً

(١) هي إستانبول وقد ذكرها شمس الدين سامي في معجميه قاموس الأعلام وقاموس تركي بمادة استانبول ولم نعث فيها على مادة استانة .

فلا نجد سامعاً ولا مجيباً ، ذلك لأن هذا العامل من بطانة والي حلب ، أو من خاصة وزير في الاستانة ، أو خاصة موظف كبير في حلب أو الاستانة ، وكان أكثر الموظفين يحرش بين أعيان المدينة وكبرائها ، ويوقع بينهم البغضاء ، فيمالىء فريقاً على آخر ، ليضعفه ويستنزف ماله ، ثم ينقلب على الآخر فلا تزال الفتن متقدة بين الأهلين ، ولكل فريق أنصار في حكومة المعرة وحلب أو الاستانة ، فيقدم لها بالجملة ما ينهبه من الناس بالمفرق . وكثير من هؤلاء الحكام من تولى هذا القضاء ، وهو صفر الوطاب ، فارغ الجراب ، فانقلب عنه بعد برهة ، وهو أغنى من كنز ، وأخصب من روضة ، بعد أن يكون أدى ما فرض عليه لموليه ، وقدم من الهدايا والتقديم لرؤسائه ، ومن يخاف شرهم من أعوانهم ، ما يقيه شرهم ، ويضمن له رضاهم وحمايتهم ومناصرتهم .

وكذلك شأن القاضي وغيره من رجال الحكومة ، يأتي أحدهم أشعث أغبر بالي السربال ، فلا يلبث أن ينقلب على أرائك النعيم والترف من أموال الفقراء ، وينفق الأموال الجزيلة في سبيل شهواته وملأذه .

وكثيراً ما مالأ هؤلاء العمال الاغنياء والاعيان ، على أكل مال الضعيف ، واغتصاب ما يملكه من عقار أو أرض .

وقد رأيت كثيراً من فقراء المعرة ورجال الطبقة الدنيا فيها تذرعوا بوسائل مختلفة ، حتى أصبحوا من أعوان الحكام ، فانتعشوا وارتاشوا ، وأصبحوا في عداد الوجهاء والاغنياء ، ولكن الواحد منهم لا يصير غنياً حتى يفقر ألزفاً من أهل المدينة أو الضاحية وكان للحكام القسم الاوفى ، والقَدَح المَعْلَى من هذا النهب . وعلى هذا النمط كانت تساس المعرة ، وتحت مثل هذه الاعباء كانت ترزح ، وكانت الحكومة ترهقها بالضرائب على فقر أهلها .

ولم تكن البلدة وضاحتها متمتعة بالأمن والنلمأينة ، وانما كانت أيدي العُتاة والبُغاة والمتمردين تعبث بها ، وقلما مر اسبوع لم تقع فيه سرقات ، أو قطع طريق ، أو نهب أو تعد على عقار أو شجر ، أو نحو ذلك ، وكان البدو يشن الغارة على نفسه ، وعلى أهل القرى التي تجاوره ، ويرعى زرعها ويفسد ضرعها .

وكانت البدأة تغير على المعرة نفسها ، فتخرج طائفة من مقاتلة أهلها ، فتصد غارتهم عنها ، وتذود عن حياضها بسلاحها وقد أخبرني والدي أنه كان وهو صغير ، يرى من سطح داره أسنة الرماح تلمع في أيدي البدو المغيرين على المعرة من الجهة الشرقية ، وهذا لم أره في عهدنا ، ولكن البدو لم يفتروا عن غزو القرى وقطع السابلة ، وقلما انقطعت الحرب بين الموالي والحديدية مدة طويلة ، وعلى هذا الأسلوب كانت تسير رجال السياسة في المعرة .

وأما الحياة العقلية في عهد الترك الذي أدركناه ، وهو أول القرن الرابع عشر للهجرة ، إلى يوم جلالتهم ، فقد كانت أسوأ ما كانت عليه في عصر من العصور ، لأن الحكومة أحدثت مكتباً رشدياً في (اصطلاحها) ، ابتدائياً في اصطلاح أهل هذا العصر ، وهو يشتمل على ثلاثة صفوف ، وقد كانت لغة التدريس فيه اللغة التركية ، كما كانت اللغة الرسمية للحكومة ، وما علمت أحداً خرج من هذا المكتب ، وهو يعلم غير الخط ، وقد كان مديره في عهدنا أي في سنة ١٣١٠ هـ فما بعدها ،

رجلاً تركيا من ديوريكي^(١) ، كان يدعي علم كل شيء ، ولم تجتن المدينة في عهده الطويل ، البالغ أكثر من خمسة عشر سنة فائدة علمية ، ولم ينبغ أحد ممن تخرج به واقتصر عليه ، ومن نبغ منهم ، فأنما حصل على ذلك من استاذ غيره .

وكان في المعرة على عهدنا شيخ يقال له : الشيخ صالح الرمضان ، وابنه محمد صالح ، كانا يحسنان النحو والفقه على مذهب أبي حنيفة والشافعي ، وقليلاً من المنطق ، فكان طلاب العلم يقرأون عليها هذه الفنون ، وكنت ممن أخذ عنهما ، وكانا يخافان أن ينبغ أحد من الطلاب فينازعهما مركزهما في المعرة .

وكان في المعرة شعراء يحسنون وزن الشعر في بعض البحور سليقة ، ويتكلفون للصناعات البديعية ، إلا أن أسلوبهم إلى العامية أقرب منه إلى اللغة الفصحى ، وما علمت أحداً في عهدي في المعرة ، يعرف شيئاً من العروض والقافية وعلوم

(١) في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٣ : ٢٢٢٠ : ديوريكي .

البلاغة وعلم الأصول وغيره من العلوم العربية ، سوى مدير
المكتب ، فانه كان يدعي معرفة العروض ، ولكنه لا يقيم
وزن الشعر ، وكان يعرف الفلك على اصطلاح المتقدمين ،
وقد قرأت عليه رسالة في الربع المجيب .

وما خلا ما أسلفنا ذكره ، لا تجد في المعرة أثارة من
علم ، أما كتابة الانشاء الصحيح فهي مفقودة ، والخاصة
والعامة منهم سواء ، في ركافة الأسلوب ، والبعد عن اللغة
الفصحى ، وكثرة اللحن ، وتمتاز الخاصة من العامة فيه بالسجع
المتكلف ، السمج الطافح باللحن والتحريف .

هذه حالة المدينة في العهد الذي خلفتها فيه ، وهاجرت إلى
دمشق ، وذلك في اليوم العشرين من جمادى الأولى سنة ١٣١٩ هـ
وظل هذا شأنها حتى جلا الترك عنها .

ولا شك أن السبب في تأخرها في مضمار العلم ، ونضوب
النبوغ فيها ، يعود إلى الحكومة والحكام الذين كانوا يصرفون
الناس عن الاهتمام بالعلم ، ومجاعة البلدان الحية فيه ، إلى
اهتمام كل بمواثبة أخيه ، والكيد له ، حتى انقسم الناس على

أنفسهم ، وتمكن الحكام من خطم أنوفهم ، وتسخيرهم في منافعهم .
وقد نبغ فيها في الأزمنة الغابرة عدد كبير ، لا يقلون عن
النابعين في الأمصار العظيمة ، يوم كانت الحكومات تعنى بشأن
العلم والعلماء ، ومن المؤسف أني لم أعر على كثرة تنقيبي
وبحي في كتب التاريخ والتراجم ، على رجل نبغ من أهل
المعرة في المعرة ، في العهد التركي يشابه أحداً من النابعين في
عصر آخر ، كأنما العبقريّة رحلت عن هذه المدينة منذ وطئتها
قدم الترك ، ومن برّز في هذا العصر ، فلما أن يكون تثقف
في مدينة أخرى ، أو أتم ثقافته فيها ، وإما أن يكون نبوغه
بالنسبة للعدم ، أو بالنسبة لآخر ، ويمكننا أن نقول : إن الحياة
العقلية في المعرة في عهد الترك ، أسوأ ما كانت عليه في جميع
العصور ، وأن جميع أهل المدينة وضاحيتها كانوا أميين أو عاميين
وقد يكون فيها رجل فقيه ، يعلم شيئاً من أحكام الفقه
كالمفتي وأمين الفتوى ، ولكن واحداً من هؤلاء لا يستطيع
أن يكتب نصاً أو حادثة أو صكاً خالياً من اللحن والركاكة
كما تشهد بذلك الآثار التي خلفها ذلك الزمن .

ماله اللغة في هذا العهد :

لغة أهل المدينة تشبه اللغة العامية في المدن الشامية ، مع اختلاف قليل ، وقد تجد فيها كثيراً من الألفاظ العربية الصحيحة الفصيحة ، منها ما هو باق على حالته ، ومنها ما حرف تحريفاً قريباً ، ومنها ما حرف تحريفاً بعيداً سيئاً .

ومخارج الحروف في ألسنة أهلها كلها صحيحة ، إلا القاف فان فريقاً منهم يجعلها بين القاف الخالصة والكاف ، وكثير منهم يجعلها بين الهمزة والقاف ، ومنهم من يجعلها همزة في قليل من الكلمات ، وأسباب هذا أن المعريين خالطوا الأتراك كثيراً ، فاقتبسوا من لهجتهم ولغتهم ، وارتضخوا لَكُنَّة تركية .

وكثر اختلاطهم بالحليين بالسفر والتجارة والمصاهرة ، وقد كانت جمهرة الموظفين في أعمال الحكومة من الترك والحليين ، فأحبوا أن يحتدوا على مثالهم في محاوراتهم ، وظهر ذلك جلياً في بعض الحروف وفي إِمالتها ، وفريق منهم خالط الدمشقيين فتأثر لسانه بتحريف بعض الحروف ، وأهل المعرفة مولعون بحب الغريب في كل شيء ، ولإِثارة علي ما لديهم ،

وهذه السجية سهلت عليهم هجر الفصح من لغتهم ، واستبداله
بالغريب الفاسد ، وتأصل الغريب في نفوسهم أكثر من غيره .
ويمكن أن يبين باختصار ما طرأ على اللغة من الدخيل
والتحريف والتبديل واللهجات التي اقتبسها المعريون المتأخرون
من غيرهم بما يأتي :

١ — ان المعريين خالطوا العثمانيين الترك ، أكثر من أربعة
قرون ، فتسرب إلى لغتهم كثير من اللغة التركية ، لأنها لغة
الحاكم ، ولغة القوي الغالب ، ولغة الغريب ، وقد جلت الترك
عن المعرفة ، ولكن لا يزال بعض الكلمات التركية متفشياً في
لغة المعرفة وضاحتها إلى هذا اليوم .

مثل لا تقارش فلاناً أي لا تخالطه ، وما له حيارة ، أي
حيلة ، وتركته آجيق أي مفتوحاً ، وقيدته في خاتته أي مسكنه
وذهب إليه دوغري أي توأ ، وامشي دوغري أي مستقيماً ،
وأكلت عرمودا أي كمثرى : انجاص ، وعمل يجابش معه أي
بادله الوظيفة ، وفلان برتبة ظابط أي ضابط ، وكره كون :
قره قول : أي مخفر ، وقناق أي مثوى ومضيف ، وجندي

زاده أي ابن الجندي ، وباشكاتب أي رئيس الكتاب ، وخوجه
أي شيخ ، وقباداي أي شجاع .

ويدخلون لفظ جي في آخر الكلمات ، للدلالة على النسبة
مثل توتنجي ، قهوه جي ، مهلبجي ، شراباتجي ، شربجي ،
عرض حالجي .

٢ - ان المعريين اقتبسوا من الحلبيين إمالة بعض الكلمات
مثل باب الجنين أي الجنان ، وطردت الذين أي الذبان ،
وأذن العشى أي العشاء .

واقتبسوا نحت بعض الكلمات وادخال بعضها في بعض ،
مثل ايش فسَطُو أي أي شيء في وسطه ، ومثل اِكُوَه خِثُو
أي اليكه يا أخي ، وَلِيكْ فلاناً وَلِيكُوأي اليك فلاناً واليكة .
واقتبس فريق قليل منهم من الدمشقيين ابدال الشين سيناً ،
والجيم زايأ ، والقاف همزة .

والسبب في ذلك كله أن فريقاً من أعيان المدينة وأغنيائها ،
كانوا يختلفون إلى حلب وحماة ودمشق ، وكانوا يتظرفون بالتشبه
بأهل تلك البلاد ، وتقليدهم في أقوالهم وأفعالهم ، وزاد الأمر

صُغْنَا عَلَى إِبَالَةٍ ، أَنْ فَرِيقًا كَبِيرًا مِنْ أَهْلِ الْمَعْرَةِ تَزَوَّجُوا مِنْ نِسَاءِ حَلَبٍ وَحِمَاةٍ وَدِمَشْقٍ ، فَتَنَبَّشَتْ لَهْجَاتُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي الْمَعْرَةِ ، بِوَاسِطَةِ هَؤُلَاءِ الزَّوْجَاتِ ، وَارْتَضَخَتْ أَوْلَادُهُنَّ لُكْنَةَ بِلَادُهُنَّ ، وَقَلَّدَ هَؤُلَاءِ الْمُتَظَرِّفِينَ فَرِيقَ عَظِيمٍ ، فَأَصْبَحَتْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ كَأَوْتَارِ الْعُودِ ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَغْمَةٌ ، وَكُنْتُ تَسْمَعُ ابْنَ الشَّامِيَةِ يَقُولُ : يَا بِي شُوفِ السَّمْسَ ، وَاشْتَرِ لَنَا مِنْ هَذَا الزَّوْجِ ، وَابْنَ الْحَمَوِيَّةِ يَقُولُ : لِي يَا خِيثُورَ زَوَّاحٍ ، وَابْنَ الْحَلَبِيَّةِ يَقُولُ : إِيْشَ فَنَسْطُو ، وَابْنَ الْمَعْرِيَّةِ يَقُولُ : يَا بُو لَيْكَ أَخُوِي تَشْطِطُ أَيَّ تَشْطِطُ .

وَهَكَذَا أَضَاعَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ لَهْجَتَهَا الْأَصْلِيَّةَ ، وَقَدْ كَانَتْ أَقْرَبَ اللَّهْجَاتِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ الْفَصْحَى ، كَمَا كَانَتْ مَخَارِجَ الْحُرُوفِ فِيهَا أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ مِنْ غَيْرِهَا ، وَأَكْثَرُ هَذَا التَّحَوُّلِ حَدَثَ فِي أَيَّامِنَا ، لِأَنَّ الْإِخْتِلَاطَ بِسَبَبِ الْمَتَاجِرَةِ وَالْمَصَاهِرَةِ كَانَ فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا قَبْلُهَا .

٣ — زَادَ الْمَعْرِيُّونَ عَلَى غَيْرِهِمْ إِبْدَالَ السِّينِ شِينًا ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِمْ شَطَحَهُ فَتَشْطِطُ أَيَّ سَطَحَهُ فَتَسْطِطُ ، وَلِبْسِ السَّرْوَالِ أَيَّ السَّرْوَالِ .

٤ — استعملوا كلمات لا تعرفها العرب ، ولا تجبروها
قواعد اللغة وأصولها ، مثل قولهم عَجَّتها إذا زاد فيها وأكثر ،
والمكان معجوق إذا كان فيه اناس كثيرون ، والأشياء معجوقة
إذا كانت غير مرتبة .

ولم أر من ذكر هذه المادة : عَجَق : ولا ما اشتق منها ،
وقد قال في (شفاء الغليل) ^(١) لا يجتمع الجيم والقاف في كلمة
عربية غير اسم جقوت . وقال في (التاج) ^(٢) القاف والجيم
لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب ومثله في (اللسان)
في مادة : قيج ^(٣) .

ومثل قولهم : فلان خَرَطِيل ، يريدون أنه أبله غبي ضعيف
العقل أهوج .

٥ — وقد أكثروا من تحويل الألفاظ إلى وزن فَعُول في
اعلام المذكر والمؤنث ، فقالوا في قاسم : قسوم ، وفي هاشم
هشوم ، وفي محمد حَمُود ، وفي بركة : برُوك ، وفي فاطمة
وخديجة وعائشة وأسماء فَطُوم وَخَدُوج وَعَيْشُوش وَأَشُوم .

(١) الخفاجي : شفاء الغليل ١٨٣ (ج) .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٢ : ٩٠ (ج) .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ٢ : ٩٦٨ .

وشاركوا بقية البلدان الشامية في تقديم بعض الحروف على بعض في الكلمة الواحدة ، حتى تخرج الكلمة من الصحيح الفصيح إلى العامي ، كقولهم : هذا جوز فلانة ، وقد جوز ابنه ، والأصل زوج فلانة وزوج ابنه .

وشاركوهم في ابدال الذال المعجمة بالdal المهملة في مثل أذن وأذان وذكر ، فيقولون : أذن ، وسمعت الأذان ، وذكر يوم الجمعة ، وكذلك يبدلون في كلمة أذن التي يسمع بها ، فيقولون : سمعت بأدني ، وملاً أداننا ، ويجمعونها على دانات ، فيقال : داناته كبيرة ، كما يقال : آدان .

وشاركوهم في ابدال الثاء المثناة بالثاء المشناة ، في مثل ثوم وكراث فيقولون : توم وكرات .

وشاركوهم في مساواة النطق في الثاء والسين والزاي والذال والطاء والضاد ، فيقولون : رجل خيس وحسه على العمل سم ضربه ، والصواب خيث ، وحته ، وثم ضربه .

وكذلك يقول : أذكر الله وذكرني بالأمر غداً ، وفلان زخر لنا ، والأصل اذكر الله وذكّرني وهو ذخر .

ويقولون اركبه على ضهره وقلم ضفره ، والصواب اركبه على ظهره وقلم ظفره .

وشاركوهم أيضاً في ابدال الفاء تاء مثناة ، مثل : فم فيقولون : تم .

وفي ادخال الباء على الأفعال ، مثل : باكل ، بقوم ، يبجي ، بنام ، بتبرد ، والأصل : أكل ، واقوم ، ويحي ، وينام ، وتبرد . وفي ادخال لفظ بدي على الأفعال ، مثل : بدي آكل ، بدي أشرب ، بدو يسافر ، بدو يكتب .

وقد ذكرنا في كتابنا (الأمثال في بلاد الشام) : أن أصل بدي ربما كان بودي ، تقول بودي أن أذهب ، فحذف العامة الواو ، وابدلت كسرة الباء فتحة ، ثم توسعت العامة بهذه الكلمة ، فاستعملتها في الأفعال والأسماء ، فقالوا : بدي أكتب ، وبدي أسافر ، وبدي الكتاب ، وبدي الأمانة ، وكلها بمعنى أتمنى وأريد ، وإذا دخلت الباء وحدها ، أو لفظ بدي على الفعل حذف حرف المضارعة منه في أكثر الأحيان ، فيقولون : كل يوم بنام ساعتين أي انام ، أو بدي نام الآن .

وشاركوهم أيضاً في ادخال لفظ عَمَال على الفعل المضارع
لتخصيصه بالدلالة على الحال ، فيقولون : عمال بصلي ، وعمال
يصلي ، وعمال يكتب ، والأصل : أصلي ، ويصلي ، يكتب ،
وقد يحذفون اللام من عمال ، فيقولون : عما يقرأ ، عما يتوضأ .
و في جعل آل للنسب بدلاً من ياء النسب ، فيقولون :
محمد الخالد ، مصطفى الأحمد ، خالد الدرويش ، ويريدون
بالأول المنسوب إلى خالد ، وبالثاني المنسوب إلى أحمد ، ومثله
على السيد يوسف ، وعثمان البم ، و خليل الخشان ، يريدون
بذلك المنسوب إلى أسرة السيد يوسف ، وأسرة البم والخشان ،
وهكذا .

ومع كل ما تقدم فان المستقري لكلام المعريين ، يجد فيه
كثيراً من الكلمات التي يتكلمون بها على وجهها الصحيح ، وفي
معناها الحقيقي ، مثل : كلمة مشمش ، فانهم يلفظونها بكسر
الميمين ، مع أن جمهرة بلاد الشام يضمنونها ، ومثل : كلمة
ضَنَى بمعنى كثرة الأولاد ، يقال : ضَنَت المرأة ضَنَى وضناء
إذا كثرت ولدها ، قال الجوهري^(١) يهمز ولا يهمز .

(١) الجوهري : الصحاح ٢ : ٥٠٨ .

وفي كلامهم ألفاظ محرقة تحريفاً قريباً ، مثل : كلمة دَرْدَك فيقال : في دار فلان دردك ، أي أطفال صغار ، وأصل هذه الكلمة دَرْدَق بالقاف ، والدردق في اللغة الصبيان الصغار ، والصغير من كل شيء ، وأصله الصغار من الغنم ، ومثل كلمة كَرَسَعَتَة لنبات معروف وأصله قَرَصَعَتَة^(١) على المشهور ، وألفاظ استعملت مطلقة ، وهي في اللغة مقيدة كلفظ العَجِي ، فانه فاقد أمه من الانسان والابل . وبعض المعربين يطلقونه على الصغير وإن لم يفقد أمه .

الحياة الدينية :

وأما الحياة الدينية فيها ، فان جمهرة أهلها مسلمون ، على مذهب أهل السنة ، وقد كان فيها طائفة قليلة من النصارى ، يعدون على الأصابع ، منهم : فريق يشتغل في الصياغة ، وآخر في الضباغة ، وكان أهل المعرة يحسنون معاملتهم ، ويعطفون عليهم لضعفهم وقلتهم ، وولي رجل منهم عملاً في دائرة المالية في القضاء ، وما رأيت ولا سمعت أن أحداً من أهل المعرة أو غيرهم ، تعدى على واحد قط في الماضي والحاضر ،

(١) وفي معجم الألفاظ الزراعية لمصطفى الشهابي من ٢٥٦ و ٤٨٢ : قَرَصَعَتَة.

بل كان النصارى في دعة وراحة أكثر من المسلمين ، وليس لهم كنيسة ولا دير ، وانما كانوا يجتمعون إلى بعضهم ، وكانت نساؤهم يحتجبن كالمسلات ، وكان الرجال والنساء يختلطون بأمثالهم من المسلمين ، ويجتمعون بهم في محافل الفرح والحزن ، ويعاملهم المسلمون بأحسن مما يعامل به بعضهم بعضاً .

وليس في المعرفة من غير المسلمين غير النصارى .

وكان أهل المعرفة وضاحتها على مذهب الإمام الشافعي ، وانما كانت الفتيا على مذهب الإمام أبي حنيفة ، لأن الحكومة التركية أوجبت ذلك في جميع البلدان الخاضعة لسلطانها من عربية وغيرها ، حتى أن المفتين فيها كانوا شافعيين ، وهم من أسرتنا إلى اليوم ، وقد كان كل من جدي وأخيه وأبيه مفتين على مذهب الحنفية ، وهم شافعيون ، وكان أكثر القضايا والخصومات التي تقع بين الناس ، يفصلها الشيوخ والعلماء على مذهب الشافعي ، يقص كل من المتخاصمين أمره على الشيخ بحضور خصمه ، فيفصل بينها صلحاً ، أو حكماً ، ويسمع البينة ، ويحلف اليمين ، إلا إذا طلب أحد الخصمين الاستفتاء

بصورة رسمية ، فان الحكم فيها يكون على مذهب أي خيفة .
وكان الصالحون من الناس يقنعون بالحكم الشرعي ،
ويحجمون عن الرجوع إلى المحاكم الشرعية والنظامية ، لأنهم
يعتقدون أن ليس للحق فيها نصيب ، وهم على صواب في
اعتقادهم هذا ، لأن المحاكم كانت خاضعة للمؤثرات ، فان
الحاكم أو العضو كان يجعل الباطل حقاً والحق باطلاً ،
تبعاً لمنفعتة الشخصية ، من مال يجره ، أو رئيس يرضيه ويسره
أو عدو يكيده ، وقد يكون التأثير من رجل عظيم في الدولة
فلإني أعلم رجلاً من خاصة أبي الهدى الصيادي قتل رجلاً
آخر على مشهد من الناس ، وجاء جمع غفير فشهدوا لدى
الحاكم بأن فلاناً أطلق رصاصة من مسدسه على فلان ، عامداً
طائماً ، فأرداه قتيلاً ، واستوفت شهادتهم جميع الشروط التي
تؤهلها للقبول ، وكانت المحكمة تحاول أن تجد فيها ما يوجب
إبطالها ، الا عضواً واحداً ، فلما أعياهم ذلك كلفوا العضو
المستنطق أن يوافقهم على ما يريدون ، فأبى ، فوردت برقية
من أبي الهدى يلح فيها إلى مساعدة القاتل ، فأبى ، فوردت
(١٧) ٤

برقية من المرجع المختص بنقل الدعوى إلى حلب ، فنقلت ،
ثم قررت براءة القاتل ، وخرج يسرح ويمرح ، وبعد حين
أخرج هذا العضو من المحكمة ، وهو من أبناء عمنا .

وليس هذا بما انفردت به المعرة ، بل كان ذلك شأن
أكثر الحكام والمحاكم في ذلك العهد ، وربما امتازت المعرة من
غيرها بتولية القضاة والحكام العاميين أو الأميين ، فقد أدركنا
فريقاً منهم لا يحسن أن يكتب غير اسمه ، ولا يستطيع أن
يقراً سطرأ صحيحاً ، وذلك لأن الوظائف كانت تباع بيع
السلع ، أو تعطى ارضاء لفلان لأنه من بطانة فلان ، وظل
ذلك حتى أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ فقل ذلك مؤقتاً ،
ولم ينقطع بتاناً .

وليس في المعرة فرق من المسلمين غير السنيين ، وانما كانوا
يكرهون غير السني ، وأكثر أهل المدينة محافظ على إقامة
الشعائر الدينية ، من صوم وصلاة وغيرهما ، وأما الزكاة فقلما
وجبت على واحد إلا قليلاً ، لأن معظمهم فقراء يرتزقون كل
يوم كالطيور ، ولهم عادات ومعتقدات سيأتي بيانها .

الطرق :

وفي المعرة طرق متعددة كالقادرية ^(١) ، والرفاعية ^(٢) ،
والنقشبندية ^(٣) ، والشاذلية ^(٤) ، ولكل طريقة آداب ونظم

(١) نسبة لعبد القادر بن موسى الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي ، وهو
من كبار المتصوفين ، وقد ولد في جيلان وراء طبرستان سنة ٤٧١ هـ ،
وانتقل إلى بغداد شاباً ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف ، وبرع في أساليب
الوعظ ، وتفقه وسمع الحديث ، وقرأ الأدب وتصدر للتدريس والإفتاء
في بغداد ، وتوفي بها سنة ٥٦١ هـ (ملخصة عن الأعلام للزركلي
٤ : ١٧١ ، ١٧٢) .

(٢) نسبة لأحمد بن علي الرفاعي المولود سنة ٥١٢ هـ وقد تفقه وتأدب
في واسط بالعراق ، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به
اعتقاد كبير ، وتوفي بأمر عبيدة بالبطائح بين واسط والبصرة (ملخصة عن
الأعلام للزركلي ١ : ١٦٩ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢ : ٢٥) .

(٣) في كتاب المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية لمحمد أمين
الكردي الاربلي ص ٩ : نقشبندية أي منسوبة إلى نقش بند ومعناه ربط
النقش والنقش هو صورة الطابع إذا طبع به على شمع ونحوه وربطه بقاؤه
من غير محو أي لأن الشيخ محمداً بهاء الدين النقشبندي كان يذكر الله بالقلب
إلى أن انتقش وظهر لفظ الجلالة إلى ظاهر قلبه فلذا سميت نقشبندية .

(٤) نسبة لأبي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي ، وهو الصوفي والفقيه
والناظم ، فقد ولد سنة ٥٩١ هـ ، وتوفي بصحراء عيذاب سنة ٦٥٦ هـ
(ملخصة عن معجم المؤلفين لكحالة ٢ : ١٣٧) .

وشيوخ وأحوال خاصة ، وأكثر الطرق انتشاراً في العهد الذي هاجرت فيه - ١٣١٩ هـ - من المعرة الطريقة الرفاعية ، والشاذلية .

أما الطريقة الرفاعية فلأن أبا الهدى الصيادي سعى لدى الحكومة العثمانية ، فاستثنت المنسوين إلى الشيخ الرفاعي من الخدمة العسكرية ، وفتحت تكايا وزوايا للرفاعيين ، ووظفت أموالاً تنفق على القائمين بها ، وكان أخو أبي الهدى يزور المعرة حيناً بعد آخر ، فيقيم الأذكار على طريقة الرفاعية ، وكان رجال هذه الطريقة يزورونه في المعرة ، ويحتمعون به ويشاركون في إقامة الأذكار حباً بالمنفعة ، فكثر انتشار هذه الطريقة . ولما مات أبو الهدى انقطعت الأذكار ، إلا التي كان أصحابها يقيمونها قبل ظهور أبي الهدى .

كيفية الذكر عند هؤلاء الرفاعيين :

للذكر طريقتان : إحداهما رسمية ، والثانية عادية .
أما الأولى فهي تكون في الغالب من قبل أهل الميت بعد موته بأيام معدودة ، يكلف الرجل شيوخ هذه الطريقة بعمل

ذكر يكون ثوابه لوالده أو غيره ، فيعين له الوقت في الجامع الكبير ، والغالب أن يكون بعد العصر ، فإذا انتهى إمام المسجد من صلاة العصر ، جلس شيوخ هذه الطريقة وخلفاؤهم ومريدوهم ، على شكل حلقة كبيرة في الجهة التي تكون غربي المنبر وجلس معهم الناس ، فأخذ أهل الطريقة يضربون بالمزاهر والصفافين ، حتى تبلغ أصواتها عنان السماء ، ويسمعا الداني والقاصي ، ثم يمسكون عن الضرب بها . ويضعون مسبحة ، أي سبحة حباتها كبيرة ، كل واحدة بقدر الجوزة الكبيرة ، فيديرونها في الحلقة ثم يبدأ أكبر الشيوخ بقوله : فاعلم أنه لا إله إلا الله بصوت ضخم ، وترتيل شديد بحيث تمتد أكثر من دقيقة ، ويهز رأسه وجسمه إلى الأمام ، ثم إلى الوراء حتى تنتهي الجملة .

فينطق الحاضرون كلهم بصوت واحد ، يشبه صوت الشيخ في جهره وترتيله ، ويميلون إلى الأمام والوراء . ثم ينشد المنشدون أبياتاً في مدح النبي (ص) على نمط الذكر ونعمته ، ويتحركون كما يتحرك الذاكرون ، وبعد أن

ينشدوا بضعة أيام ، يسرع الشيخ في لفظ الذكر قليلاً ، ويتابعه
الذاكرون والمنشدون ، ثم يسرع أيضاً ، ويجعل حركة رأسه
نحو اليمين والشمال ، ويتابعه الذاكرون في جميع أقواله وأفعاله ،
ثم ينشد رئيس المنشدين آياتاً ، ثم ينهض الشيخ والحاضرون
كلهم ، فيذكرون الله على أشكال شتى وبألفاظ شتى ، فيقولون :
لا إله إلا الله تارة على الشكل المعروف ، وتارة يضمون
الكلمات فيقولون لَوْ أَلُوهُ إِنْوَاللَّوْه ، وتارة يقولون : لا يلاه إلا الله ،
وتارة هُمْ هُمْ إِيَّا اللّوْه وتارة يَا اللّوْه ، وتارة أُمّ ، ويكررونها
 ويفصلون بينها بما يشبه النحنة ، وتارة همهمهمهم يا اللّوْه ،
وهكذا يأتون بألفاظ مختلفة .

والشيخ هو الذي ينقلهم من فصل إلى فصل ، ومن نغمة
إلى نغمة ، فيبدأ ذلك ، ثم يتابعونه ، ويشير إليهم بيده أو يديه ،
أو يضرب باحدهما على الأخرى لينتبهوا عند الانتقال من فصل
إلى آخر ، أو من حالة إلى ما هو أسرع منها ، أو أخف ،
أو للمحافظة على النغم والوحدة .

والمنشدون يستحثونهم بالمشيد ، كما يستحث الحادي الإبل

بالجاء ، فاذا انتهوا قرأوا دعاءاً موروثاً لهم ، أوله : نسأل
المولى علينا يتوب ترضي مشايخنا ، وتصفى القلوب .. وهذا
الدعاء يدعونه كلهم بصوت واحد عال ، ثم يدعو لهم الشيخ ،
وينفضّ الجمع .

وقد ينبغ بعض الذاكرين ، فيتقن الالفاظ ، والافعال ،
والحركات ، والسكنات ، ويحسن التحول والانتقال ، على وفق
النظم والاداب المتبعة عندهم ، ومن كان كذلك يسمى ذكّيراً .
وهذا الذكّير يظهر مهارته وبراعته في اثناء الذكر ، فيخالف
القوم في تحركهم من اليمين إلى الشمال ، أو من الامام إلى
الوراء ، ثم يعود بسرعة ، وإذا كانوا يميلون من الامام إلى
الوراء ، مال من اليمين إلى الشمال ، واظهر كأن يخالفهم ،
ثم عاد بسرعة إلى موافقتهم ، وقد يبطىء إذا أسرعوا ، ويسرع إذا
أبطؤا ، ويأتي بمثل هذه الاعمال للدلالة على قدرته ، ويدقق
أحوال الذاكرين والمنشدين ، فيحسبون له حساباً .

وإذا أخذ الشيخ مالا على الذكر ، أعطى منه جماعته ،
وأجزل حصة الذكّيرين ، وشيخ الطريق يقرب الذكّيرين

ويباهي بهم ، ويكرمهم ويخاف سخطهم ، فهم عنده بمثابة الأبطال
عند قائد الجيش !

ولذا أمعن الإنسان النظر في الأذكار ، وما يقع فيها من
تحريف اسم الله ، ومناداته بصور فظيعة ، وما يحدثه الذاكرون
من الأوضاع والحركات الشاذة بين يدي الله ، انكرها أشد
الانكار ، لأن الله جالس الذاكرين ، والأدب يقضي عليهم
بأن يكونوا في مجالسته على غاية من الهدوء والسكينة والأدب
مع أن هؤلاء ينادون الله بصيغ وصور ملحة متتابعة محرقة ،
واو نادوا بمثلها عبداً من عبيد الله ، وتصرفوا باسمه كما
تصرفوا باسم الله ، للطمطم في وجوههم وصفعهم في أفقيتهم ،
وسياتي لهذا الكلام ما يتممه .

وأما الشاذلية ففريقان : أحدهما ينتسب إلى الشيخ علي
الدفين في ترشيحها ، وهذا الفريق لم يكتب له التوفيق في المعرفة ،
لأنهم أنكروا عليه شيئاً من أعماله المنكرة ، ونسبوا إليه أفعالاً
مخزية ، ثم طاردوه في المعرفة ، حتى نضب معينه ، وفقد
من يعينه .

والفريق الثاني ينسب الى أبي الحسن الشاذلي^(١) ، وهؤلاء يجتمعون في كل صباح ، بعد صلاة الصبح في المسجد ، ويقرؤون ورد الشاذلية ، ثم يذكرون الله قعوداً ، ثم قياماً ويحرفون لفظة الجلالة ، فيجعلونه آ ، وتارة بين آ وأو ، وهكذا وينشد هم بعض الناكرين شيئاً من كلام القوم ، أو الغزل الذي يريدون به الله أو رسوله .

والناس يالفون هذا الفريق ، ولا يجدون ما ينكرونه عليهم ، لأنهم كلهم كهول أو شيوخ ، ولا يجتمعون في خلوات خاصة .

الحياة الاجتماعية :

وأما الحياة الاجتماعية فيها ، فهي جامعة بين الحياتين الحضرية والبدوية وفي أخلاق أهلها وعاداتهم شبه بأخلاق البدو والحضر ، نشأ من شدة اختلاطهم بهم ، فهم أصحاب نجدة وشجاعة وإباء وأنفة ، وكثيراً ما ثاروا في وجه الحكام ، أنفة من احتمال صغار أو إقامة على ضيم ، وقد كان أهل العصر الماضي والذي قبله اشد أنفة وشجاعة من أهل هذا العصر .

(١) نسبة إلى شاذلة قرية من افريقية .

الحاضر ، فإنهم كانوا يصدون غارة البدو بأنفسهم ، ويزودون عن حياضهم بسلاحهم ، ولشد ما ثاروا على الحكم وقهروهم . وقد حدثني بعض شيوخهم أن الحكومة التركية كانت أرسلت مأموراً لسحب القرعة العسكرية ، اسمه حكيمي باشا فضاقت به أهل البلد ذرعاً ، فثاروا عليه ، وحصلوه في دار الحكومة وهموا بقتله ، لولا أن حماه مفتيها وبعض أعيانها ، ثم جاءت قوة من الجند من حلب فأنقذته ، وقد أسلفنا ما لأهلها من المواقف في حرب الصليبيين وغيرهم ، بما يدل على شجاعتهم ، ولا تزال هذه السجية في أكثر أهلها .

وهم أسخياء وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على جود أهلها ، منها : ما ذكره المؤرخون ، وهو أن أبا تمام^(١) كتب

(١) هو حبيب بن أوس الطائي الشاعر الأديب . ، وقد ولد بجامم من قرى حوران بسورية سنة ١٨٨ هـ ورحل إلى مصر ، واستقدمه المعتصم إلى بغداد ، ثم ولي بريد الموصل ، وتوفي بها سنة ٢٣١ هـ (ملخصة عن الأعلام للزركلي ٢ : ١٧٠ ، ١٧١ ومعجم المؤلفين لكحالة ٣ : ١٨٣ ، ١٨٤) .

إليهم كتاباً أوصاهم فيه بالبُحْثِري^(١) ، فوظفوا له أربعة آلاف درهم في كل سنة ، وسيأتي في تراجم الرجال ما يدل على سخاء المتقدمين من أهلها .

أما في عصرنا الحاضر فقلما تجد فيهم بخيلاً ، على رقة حالهم ، وقلة ذات يدهم ، وإن أحدهم ليؤثر ضيفه على نفسه وأولاده ، وربما باع ما يملكه من اثاث ورياش ، وقدمه لضيفه أو لعافيه ، وهو طيب النفس ، مسرور مغتبط بذلك ، وأهل المدينة والضاحية في ذلك سواء ، ولا تجد إلى يومنا هذا في المعرة خانا ، أو فندقاً للمسافرين^(٢) ، إلا خاناً وقفاً للقوافل لأن بيوت أعيانها وغيرهم مفتحة الأبواب لكل ضيف أو زائر أو ماراً بالمدينة ، وربما تصدى بعضهم للمارة ليكونوا ضيوفاً عنده ، ولا ينزل في خان أحدٍ يعرف أحداً

(١) هو الوليد بن عبيد البحتري الشاعر الأديب ، وقد ولد بمنبج من أعمال حلب سنة ٢٠٦ هـ ، ونشأ بها وخرج منها إلى العراق ، وأقام ببغداد ثم عاد إلى منبج وتوفي بها سنة ٢٨٤ هـ . (ملخصة عن معجم المؤلفين لكهالة ١٣ : ١٧٠ - ١٧٢)

(٢) قد رأيت أثناء زيارتي للمعرة في كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م فندقين متواضعين ربما أسسا بعد وفاة المؤلف .

من أهلها ، وربما نزل بهم من لا يعرفهم ، فلقي من الحفاوة
وكرم الوفادة ما يبهره .

وهم أصحاب غيظ وحقد وحب للانتقام وحسد على كل نعمة .
ولقد عرفت كثيراً من الناس كان يضيق على أهله في الرزق لضيق
يده ، ويبذل الأموال الكثيرة ليضر عدواً له ، وكان الآخر لا يألو
جهداً في ذلك ، فكان هذا وذاك ، وأشياع كل منهما يسرفون
في البذل للحكومة المعرة وحلب والأستانة ، فيغني هؤلاء ويفقر
أولئك ، ويتفاقم الشر وتنمو الضغينة . وتتوارث
العداوة والأحقاد ، وكل فريق يستفرغ المجهود في ضرر
الفريق الآخر من تخريب عامر ، وقطع شجر ، وقتل دواب
وانعام ، ورعي زرع ، ولو استطاع لأحرق خصمه ، أو أكله
حياً ، والحكومة تمد كل واحد في غيه ، وتساعد على بغيه ،
حتى تقوض عمران المدينة ، وانطمست معالم حضارتها ، وأخصب
الجهل فيها وأمرع وادي الشر ، وأصبحت بعد اتساع رقعتها ،
وكثرة سكانها ، وغزارة العلم والأدب فيها ، شبيهة بالقرية
الكبيرة الخربة ، قليلة السكان ، بعيدة عن العلم والحضارة ،

مسرّحاً لا يمثل فيه إلا الروايات المحزنة ، والفواجع المخزية :
وأهل المعرة أذكاء ذوو فطنة ونباهة ، ميالون الى البطالة
وترك الأعمال في الغالب ، فلم يجدوا ما يصرفون فيه ذكاهم
ونباهتهم وأوقاتهم إلا إيداء بعضهم بعضاً ، وانتقاد كل منهم
صاحبه ، ولعل هذا الخلق فيهم كان قبل العهد التركي ، فان
صاحب قصيدة الفراسة^(١) يقول فيهم :

في شيزور وأختها المعرة خلّثق الجهل وطبع الشره
فشيزور جهل بلا مضرة والفهم والضر لدى المعرة
وينخيل إلي أن من أعظم العوامل في استفحال هذا الداء
في المعرة هو البطالة ، لأن الناس فيها طبقتان : أشراف ،

(١) هذه القصيدة نشرت في الجزء الثالث من المجلد الثاني عشر من مجلة
المجمع العلمي العربي في الصفحة ١٧٢ (ج) وقال كامل الغزي ناشر هذه القصيدة :
هي أرجوزة تعد ٢٣٣ بيتاً تضمنت ذكر فضائل الأجناس وما خص كل
جنس من جميل الطبع وقبيح الخلق وأثر كل بلدة بأهله ... إلى أن قال :
لم أرها في غير مسودة كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب لابن العجمي
المتوفى سنة ٨٨٤ هـ

وهم الأعيان ، وغيرهم وهم التجار والعمال والزراع ، فالأعيان يعيش أحدهم بما ورثه عن سلفه من مال وعقار ، ولو كان قدر ما يسد به الرمق ، أو أدنى ، ويحتفظ لنفسه بمركز آباءه السابقين ، وما كان لهم من الأبهة والعظمة ، وإن بات جائعاً ، أو يعيش مما يسلبه من الناس إن كان عاملاً في الحكومة ، وهذا يضيف الى أبهة سلفه ما عنده من عجرة وفخفة وعُجُيَّة ، ويحمل الناس على أن يسجدوا له ، لأنه جمع بين الحسب التليد والطريف ، وليس لكلا الرجلين نصيب من العلم يثقف عقله ويبين له أن ليس في عمله الا ما يندي الجبين ، ويطأطئ الرأس ، ورجال الحكومة كما قلنا يمدون كلا في ضلالتة وجهله .

وأما طبقة العمال فمنهم التاجر ، والبقال ، والسمان ، والنجار ، والحداد ، والحذاء ، ومن شاكلهم ، والمدينة لقلة أهلها ، وكثرة فقرهم ، يكفيها عدد قليل من هذه الفئة ، ولكن الطمع وحب الكسب ليس لهما حد يقفان عنده ، ولذلك ترى في سيق المعرة عدداً كبيراً من التجار ، والجزارين ، والبقالين ، والفاكهيين ، وغيرهم .

والعادة التي أدركناها فيها ، أن كل إنسان يؤم السوق في أول النهار ، فيبتاع ما يحتاج إليه ، وفي الضحوة الكبرى إلى المساء ، لا تجد غير الباعة الكثيرين يصرفون بقية يومهم في الأحاديث والتنادر والمجازرة ، حتى ضرب المثل العامي بكثرة البائعين وقلة المشتريين ، فقليل فيه : سوقُ المعرة ألف بَيَّاع ولا شَرَّاءَ ، ومن العمال : الصناع ، وهم محصورون في الحاكة ، والصباغين ، والصواغين ، والحذائين ، واللبادين ، والنحاسين . أما الحاكة فكانوا في القديم يحوكون الختام ، ويتخذ منه الناس القمص والسرراويل وثياب البدو وما شاكلها ، فغلبت عليهم البضاعات الافرنجية ، فانصرف الناس عن حياكة الختام ، واقتصروا على حياكة العباآت المخططة ببياض وسواد أو غيره ، ويسمونها العباءة المدققة ، وكانت جيدة متينة ، فاعرض الناس عنها ، واقتنوا من صنع العراق والعجم ، لأنها أحسن وأثمن ، فكادت تموت هذه الصنعة .

وأما الصباغون فهم يصبغون ملابس البدو والعمال باللون النيلي والأسود لا غير ، وهم كثيرون ، ولذلك كان أكثرهم

فقراء ، لأن المدينة يكفيها ثلاثة أو أربعة ، وفيها أكثر من ذلك ، وقد أخذ الناس يستغنون عن صبغ الثياب عند هؤلاء بالثياب الافرنجية المصبوغة ، ولا تلبث أن تموت هذه الصنعة .

وأما الصاغة فعملهم مقصور على لحم الحلي للأغنياء ، وصنع الخواتم للبادية ، وهم عاجزون عن صوغ حلي من أسورة وغيرها لقلة عملهم ، لأن معظم الناس يأخذون ما يريدون من حلب أو حماة ، وكذلك شأن النحاسين .

وأما الحذاءون فقد كانوا يصنعون الأحذية للحضر والبدو «وهي المعروفة بالصرماية والحق والجزمة» ، ثم انصرف الحضريون إلى اتخاذ أحذيتهم من حلب ، وكذلك أهل القرى والضاحية ثم انصرف الحضريون إلى لبس الحذاء المعروف بالقندرة وفروعها والسباط والبوط ونحوهما ، وأكثرهم يبتاعون أحذيتهم من حلب وحماة ، ولذلك نجد صناع هذا النوع قليلين في المعرة لأن عملهم في الغالب منحصر في الترقيع والاصلاح .

وأما صناعة اللبادين فقد أعرض أهل المدينة ، وأكثر

أهل القرى والبادية عن اقتناء اللباد ، واستعاضوا عنه بالسجاد
لرخص ثمنه وطول بقائه ، واللباد هو على شكل البساط يتخذ
من صوف منفوش ويلف ثم يوطأ بالارجل حتى يتلبد ويصير
كالسجاد إلا أنه لا خمل له ، وفي وسعنا أن نقول : لبس في
المعرة تجارة ولا صناعة يستطيع أهلها أن يعيشوا منها عيشة
راضية ، فضلاً عن أن يكونوا أغنياء منها .

وأما الزَّرَّاع فهم أصحاب البساتين وأصحاب الأرضين ،
والقسم الأول هو الذي يسقي زرعه من ركاب عميقة ، يختلف
عمقها ما بين عشرة أمتار إلى أكثر ، وأحياناً يكون أقل من
ذلك ، يجتمع فيها الماء مما يتحلب من أرضها وجدرانها ، وما
يسيل إليها من المطر ، يستخرجونه منها بواسطة دواليب تديرها
دواب ، وعلى الدولاب جبلان يتخذان من أعواد الشجر
الدقيقة ، فتلها محكم ، ويصل بين الجبلين أعواد ، وعلى كل
عود إناء يغرف الماء من الركية ، يسمونه قادوسا وبين القادوسين
نحو خمسين سانتيمتراً ، ويسمون الجبال مع ما عليها صمدة ،
وهي مستديرة تغوص في الماء ، فاذا دار الدولاب دارت
(١٨)

الصمدة ، فخرجت القواويس الغائصة في الماء مملوءة ، ودخل في الماء بعض القواويس الفارغة فيمتلئ ، وهكذا فإذا وصل القادوس المملوء إلى قرب الدولاب ، ابتداءً يصب ما فيه من الماء على صندوق من دف واسع ، فاذا وصل إلى أعلى الدولاب صب جميع ما فيه ، وسال الماء المصبوب من ثغرة في الصندوق إلى ساقية ، ثم يصب في بحيرة يجتمع فيها الماء ، ثم يسقي به صاحب البستان ما يشاء من زرعه ، وربما اتخذت الصمدة من حديد ، إلا أنها تكون ثقيلة على الدواب .

وأصحاب البساتين يزرعون أنواعاً مختلفة في الصيف والشتاء يسقونها من ماء الركايا المذكورة ، ويسقون الأشجار التي يغرسونها بين الزرع وعلى حافته ، وربما نضب الماء في السنوات التي يقل فيها المطر والثلج ، فيجف الزرع وتيبس الأشجار ، وينقلب الزارع بعد آماله الواسعة إلى يأس موجه وفقر مدقع^(١) .

(١) وقع السيد الوليد طالب وزير الشؤون البلدية والقروية عقداً في ٢٣ نيسان سنة ١٩٦٣ م مع أحد المتهمدين ، لتقديم وتركيب التجهيزات الميكانيكية والكهربائية ، لمشروع مياه معرة النعمان ، وتبلغ كلفتها ٥٨٤٥٤ ليرة سورية والجدير بالذكر أن هذا المشروع قد كلف الوزارة حتى الآن بأعماله —

وأما أصحاب الأرضين فانهم يزرعونها حنطة وشعيراً وذرة
وعدساً وجليبانا وما شاكل ذلك ، وكلها تسقى بماء السماء ،
فاذا أخلفهم الغيث حالفهم البؤس والشقاء .

وقد كانوا لا يعنون بزرع القطن والبقول والخضر الغذائية
ثم صاروا في العهد الأخير يزرعون جميع ذلك .

وقد دلت التجارب على أن تربة المعرة خصبة ، وأن مناخها
ملائم لكثير مما يغرس ويزرع ، فقد يوجد فيها شجر الزيتون
والجوز واللوز والمشمش والتفاح والتوت والفرصاد^(١)
والكمثرى والخوخ والكرز والفستق والتين والعنب والسماق
والرمان والزعرور^(٢) وغيرها .

وقد يكون من الجنس الواحد أنواع متعددة ، كالمشمش

— وتجهيزاته مبالغ ٣٦٢٦٥٣ ليرة سورية ، وهذا يكفي لارواء ٣٠ ألف مواطن
موزعين في أربعة قرى هي : معرة النعمان ، كفر نبل ، الحاس ، وكفر روما .
(عن جريدة الوحدة العربية بدمشق السنة ١ العدد ٥٠)

(١) جنس شجر من الفصيلة القراصية والقبيلة التوتية ، تزرع لشربها
يا كله الإنسان أو لورقها يطعمه دود قزينة التوت (عن معجم الألفاظ
الزراعية للشهابي ص ٤٣٩) .

(٢) في معجم الألفاظ الزراعية ص ٦٩ ، شجر مثمر معروف من فصيلة الورديات .

والكمثرى والتين والعنب والفسق ، فان في هذه الأجناس أنواعاً ، منها ما هو غاية في الجودة ، ومنها ما هو متوسط . فالشمش يكون أنواعاً منه ما يسمى شكربارة وهو أجودها ، ومنه ما يسمى اللوزي ، ومنه المرّي وغيره .

والكمثرى ويسميه بعض العامة أنجاصا ، وبعضهم عرموطا ، وهو محرف عن التركية ، كذلك يكون أنواعاً متفاوتة في الجودة والطيب .

والتفاح منه نوع يقال له : خشخاشي ، وهو حامض طيب الرائحة ، ومن الحلو أنواع متعددة .

وأما العنب فأنواعه كثيرة منه : القوعي وهو أبيض مشرب بصفرة ، حبه مستطيل قليلاً ، وقشرته غليظة ، ويشد حلاوة إذا نضج ، وأهل المعرة يكثرّون من غرسه ، لأنه يحمل كثيراً ، ويتحمل الحر والبرد ، ويتخذون منه الزبيب والدبس من عنبه وزيبه ، ومنه البلدي أو الرومي وهو أبيض رقيق القشرة ، كروي الشكل ، حلو كثير الماء ، ويتخذ منه عنب ، ومن عنبه وزيبه دبس وهو أطيب من دبس القوعي وزيبه .

والسباعي لونه أسود ، وجهه مدحرج كروي ، وقشرته غليظة ، وماؤه كثير ، وحصرمه شديد الحموضة ، ويحمل من ثلاث مرات إلى سبع .

القرميشاني لونه ضارب إلى الصفرة ، وجهه كروي ، كبير الحجم ، كثير الماء والحلاوة ، وقشره غليظ ، وهو صلب ، وقد يتخذ منه دبس .

الحفرزلي لونه أحمر ، ضارب إلى السواد ، وجهه مستطيل وقشره غليظ ، وعناقيده مستطيلة ، ويتخذ منه زيب جيد ، ودبس جيد ، وقد قلّ في المعرة في الأيام الأخيرة .

والزيني ويقال له : اصبع زيب ، أو اصبة زيب ، ولونه أصفر ، وجهه مستطيل رفيع ، وحلاوته غير شديدة ، والناس لا يتخذون منه زيباً ولا دبساً ، وبعض الناس يسميه الزيني .

الخلّي لونه أسود ، وجهه كروي ليس بالكبير ، وماؤه كثير ، ويتخذ منه الخل في الغالب ، وقد يتخذ منه دبس .

البطهاني أو الشامي لونه أبيض ، وجهه كروي الشكل ، كبير الحجم ، كثير الماء ، شديد الحلاوة ، وقد يتخذ منه زيب ودبس ، وهو قليل في المعرة .

وأكثر ما يعنى أهل المعرة بالعنب الفوعي ، لأنه كثير الحمل والماء ، سريع النضج ، طويل البقاء يصلح للزيب ، ويتخذ الدبس من عنبه وزيبه .

ولهم طريقة في حفظ العنب إلى زمن الشتاء ، وهي أن يقطع الغصن الذي فيه العنب ، ويحفظ في مكان لا تراه فيه الشمس ، ويقل فيه الهواء ، وأحسن منها أن يؤخذ العنقود مع الغصن الذي يكون فيه ، ثم تحفر حفرة عميقة ، ويدلى فيها العنقود والغصن ، بحيث لا تمسه الأرض من جميع جهاته ، ثم تغطى الحفرة ، ويبقى العنقود متديلاً في الهواء ، متصلاً بالشجرة التي أخذ منها ، فيمتص منها ما يعيش به إلى فصل الشتاء ، فاذا أرادوا أكله كشفوا عنه الغطاء ، وأخرجوه غريضا طريا ، ويقال للنصن مع العنقود : دَارُوخ ، ويقال : داروخ أيضاً للجفنة المستطيلة الشكل المنبسطة على الأرض الكثيرة الحمل .

وأما التين فأنواعه كثيرة في المعرة ، منه : السلطاني وهو كبير الحجم كالكرة المبسطة ، ولونه يضرب إلى الصفرة ، وهو شديد الحلاوة ، ويؤكل رطباً ويابساً .

المَعْتَق ثمره كبير الحجم على شكل الكمثرى (الانجاص)
ولونه ضارب إلى الصفرة ، وهو شديد الحلاوة ، ويؤكل
رطباً ويابساً .

الشُّوشاري لونه خمري ، فيه حمرة إلى السواد ، كبير الحجم ،
غليظ القشرة ، حلوه شديد ، ولا يتخذون منه يابساً ، وبعضهم
يسميه شنشاري .

الخَضْرَائي لونه أخضر وهو كبير الحجم ، ويبقى إلى نهاية
الخريف ، وهو قسبان : كبير الحجم ويسمى كف العرب ،
وصغير بالنسبة إلى الاول ويسمى خضراوي ، ولا يتخذون
منه يابساً .

الحِيشاوي لونه خمري ، وطعمه حلو ، ويؤكل أخضر ويابساً
ولعله منسوب إلى قرية حيش من عمل المعرة .

هَاري لونه الخارجي أصفر ، ولون داخله أحمر ، وفيه شيء
من الحموضة ، ولعله منسوب إلى الهارب ، والهرب في عرف
المعرة حديقة تسيل إليها مياه الحمام ، فتجتمع في بحيرة ، وتسقى
منها أشجار الهارب ، وقد كان في المعرة هازبان : أحدهما في

المحلة القبلية ، والثاني في المحلة الشالية ، ثم اندرس هذا وجعل مكانه طريق يصل ما بين السوق والجامع ومقام السلطان أو ليس كما ذكرناه في موضع آخر .

الكرسعاوي لونه خمري ، وحجمه صغير ، وطعمه حلو ، وينضج قبل غيره ، ويؤكل رطباً ويابساً وأظن أنه منسوب إلى كرسعة قرية من عمل المعرة .

وفي المعرة من كل جنس أنواع غير ما ذكرنا ، ولكننا اكتفينا بالمشهور ، وفي ضاحتها كذلك أنواع متعددة .

شجرة الحمض :

دلت التجارب على أن أشجار الحوامض لا تعيش في المعرة كثيراً ، لأن وطأة الشتاء فيها شديدة ، وقد يكثر الصقيع فيهلكها ، ولذلك يقل فيها شجر الليمون والكباد والبردقان وما شابهها . وكذلك شجر النخيل والموز وغيرهما لا يعيش كثيراً . وتنبت أرضها الحنطة الجيدة والشعير الجيد الكبير الحجم ، وجميع القطن التي يريدها كالعقد والجلبان ، والذرة الصفراء والبيضاء والحمص .

وفي بساينها يزرع كل ما يزرع من السقوي كالخيار والقثاء

والْكُوسَا^(١) والقَرْع واللُّؤَبِيَاء والباذِنْجَان والبندورة^(٢) والبامِيَّة
والفَاصُولِيَاء والفَائِيْقَالَة الخَضْرَاء والحَمْرَاء والخَسَّ والفُجْل والبَصَل
وَالْجَزَر واللِّفْت والشَوْنْدَر والسِّقْ والكَرْنَب والكُرَاث والبراصِيَا
والْقُول والمَلْقُوف والقُنْبِيْط والْحَرْشَف (انكي نار) ،
أرضي شوْكي^(٣) .

ويزرع في أراضيها الأَنَسُون والسِّمْسِم والقُطْن والبَطْنِخ
الأحمر الجيد والأصفر ، وأجوده المسمى قاوون .

وكثير من هذه الاشياء يزرع عذياً ، فلا يسقى بغير ماء
السماء ، ويكون جيداً غصاً ، ومنه ما هو أطيب من المسقي بالماء .
وقد تقدم ما يدل على أن القطن كان يزرع في المرة منذ
ستة قرون فأكثر ، وأنا أعرف جماعة في المرة كانوا يزرعونه
قبل هجرتي منها .

وأكثر الزُّرَّاع في الضواحي وجمهور الأغنياء من أهل المرة ،
يتخذ عمالاً لزراعته ، ومن يزرع بنفسه يشغل نفسه في زمن

(١) في معجم الألفاظ الزراعية للشهابي ص ١٩٢ : كُوسَى ، كُوسَة .

(٢) في معجم الألفاظ الزراعية ص ٦٤٥ : بَنَادُورَى .

(٣) في معجم الألفاظ الزراعية ص ١٢٤ : شَوْبِيْكي .

الحرث والزرع والحصاد والتذرية ، ثم يبقى بلا عمل بقية أوقاته .
ومما أسلفنا يتبين أن معظم الناس لا عمل لهم ، ومن له
عمل منهم ، لا يشغل عمله إلا وقتاً قليلاً من حياته ، فلا يجد
ما يصرف فيه بقية أوقاته ، إلا اجتماعه بأشباهه ، ومشاركته
إياهم في نقد زيد وسب عمرو ، والاعتراض على بكر والكيد
لهذا ، والانتقام من ذاك ، ثم ينمي الاجتماع هذه الشرور .
ويهتدون على الإنسان ضر غيره ، ويجترئه الانتقام والافتراء في
سبيل الانتقام ، فيزداد الحسد وتفاقم البغينة ، ويستفحل
الحقد ، ويستطير شر الشر ، حتى يستعذب المرء ، ويستسهل
الصعب ، ويطمع كل في القضاء على غيره ، ويطمح إلى أن
يخلفه في مركزه ، فلا يدخر وسعاً في سبيل ذلك .

ولذلك أصبحت المدينة في أخريات المدن ، كما أصبح
أهلها في أخريات الناس من حيث العمران والحضارة والعلم
والتجارة والصناعة .

ومن العجيب أنك لا تحدث واحداً من أهلها إلا وجدته
ينكر على غيره مثل ذلك ، وهو يفعل ، ويقبح هذا العمل

ويقره ، ويعترف لك بأن الفساد منتشر في المدينة وضاحيتها ،
ويتوجع من ذلك ويأسف ، ولكن مثلهم مثل الشعراء يقولون
مالا يفعلون ، وقديماً ما درج على السنة العامة والخاصة
منهم هذان البيتان وهما من شعر العامة الملحون المختل الوزن :

ان المعرة مضره فيها الفساد مؤبد
كيف اسكن المعرة وانا من أمة محمد

وأظن أن بعض العامة أخذه من قول شرف الدين ابن
البارزي ، حين ولي قضاء شيراز :

إنما شيراز نار وبها القاضي مخلد
قلت لا أمكث فيها أنا من حزب محمد^(١)

هذا مجمل الحالة التي كانت عليها المعرة وأهلها إلى سنة
١٣١٩ هـ ، وظلت عليها إلى أن جلت الأتراك عنها ، وقد أغفلنا
ذكر شيء مما يتعلق بعمرانها ، وأرجأنا شيئاً آخر إلى وصفها
في هذا العصر خشية التطويل والتكرار .

(١) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب وغاية الأرب ٢٨٠ (ج) .

طريقة العثمانيين في أخذ الخراج والضرائب :

سلك العثمانيون طرقاً مختلفة في طرح الضرائب والمكوس وجباية الأموال من الناس .

وقد ذكر المؤرخون أن اقطاع ايالة حلب وخراجها ، كان يبلغ مساحته ثمانمائة وسبعة عشر ألف آقجة ، وكل ثلاث آقجات بارة ، وكل أربعين بارة قرش ، وقد كان في هذه الايالة مائة وأربع زعامات ، وسبعماية وتسعة وتسعون اقطاعاً ، وحاميتها ألفا فارس وخمسمائة فارس .

ولما فتح محمد علي باشا المضري بلاد الشام ، كان يأخذ من الأجانب من رسوم المكوس والضرائب ، أقل مما يأخذه من أهل البلاد ، حتى اضطر بعض التجار إلى ابتياع حماية الأجانب ، ليستطيعوا أن يتجروا ، وكان فرض على كل رجل ساكن في المدينة ضريبة تسمى « الفردة » ، تختلف من خمسة عشر قرشاً إلى خمسمائة قرش ، بحسب حال الرجل ، ولما عاد الترك إلى البلاد وجدوا صعوبة في جبايتها فأبدلوها بضريبة على البيوت .

وفي سنة ١٢٧٢ هـ قسمت الدولة العثمانية بلاد الشام إلى
إيالتين: إيالة دِمَشْق ، وإيالة صِنْدَاء ، ويدخل في الأولى دمشق ،
والمَرَج ، والغُوطَة ، ووادي العَجم ، ووادي بَرْدَى ، وجبل
قَلْمُون ، وحمّاة ، وحمص ، وبنَلَبَك ، ومَعَرَة النُّعْمان ،
وعَجَلون ، والبِقاع ، وحاصبيا ، وراشيا ، وحوْزان ، وجبل
الدُّروز ، وحصن الأكراد ، والقُنَيْطَرَة ، وكان دخل هذه
الإيالة من الخراج والأعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة
« ٤١٨٠٥ » أكياس ، والكبس خمسمائة قرش ، يضاف إليها
« ٩٠٠ » كيس ، كانت تدفعها الخزينة إلى الأوقاف ، وهذا عدا
ما كان يؤخذ من حمّاة وحوْزان وحمص وجبل الدروز وحصن
الأكْراد ومَعَرَة النُّعْمان وعَجَلون عينا من الأعْشار والرسوم ،
وهو « ١٨٧٥٩ » إرْدَباً من القمح ، و « ٢٥٨٨٤ » إردباً من
الشعير و « ٩٥١ » من الذُّرّة ، و « ١٣٣٩٣ » أوقَة من
السمن ، و « ٣٢٠ » أوقَة من الحرير ، و « ١٣٠٠ » رأس
من الغنم .

فصائص المعريين :

إذا استقرى الانسان تاريخ المعريين في القديم والحديث ،
تبين أنهم يتشابهون في بعض الخصائص ، ولعدم اطلاعنا على
تاريخ المتقدمين اطلاعاً كافياً ، لمعرفة حالهم حق المعرفة ، نجد
في المتأخرين خصائص لم نقف على مثلها في أخبار السابقين .
فمن الخصائص المشتركة في غالب الأزمان ، تكنية الولد
صغيراً ، فان المتقدمين كانوا يكونون أطفالهم بمثل أبي العلاء ،
وأبي المجد ، وأبي الندى ، وأبي الحسين ، وأبي الفتح ، وأبي
المكارم ، قبل أن يولد لهم أولاد ، وربما لا يكون لهم أولاد ،
وقد ظلت هذه السنة متبعة حيناً من الزمن ، ثم تهاون بها
الناس قليلاً في أخريات العهد التركي ، وفي الزمن الأخير منه
أساء فريق من الناس استعمالها ، فقد كانوا يكونون أشخاصاً
بكنى مستهجنة كأبي خُرج ، وأبي العنب ، أو مستقبحة بذيئة
كأبي سُرم (١) ، ولكنهم في هذا العهد رجع فريق منهم إلى
التكنية كما كان في العصور السابقة .

(١) أي طرف المعى المستقيم والدبر .

ومن الخصائص المشتركة أيضاً التلقيب ، فإنك تجد كثيراً في أسماء المتقدمين مثل : نجم الدين ، وقاج الدين ، وبدر الدين ، وشمس الدين ، وشرف الدين ، وزين الدين ، وكمال الدين . وقد كان هذا قليلاً في العصور الأولى ، كثيراً في العصور الوسطى ، وأول من عرفته من أهل المعرة بمن لقب بمثل ذلك بهاء الدين ابراهيم بن شاكر أبي اليسر التنوخي المولود سنة ٥٦٥ هـ ، وابنه تقي الدين اسماعيل بن ابراهيم المولود سنة ٥٨٩ هـ ، ونجم الدين بن أسعد بن حلوان المولود سنة ٥٩٣ هـ ، وأخوه موفق الدين المتوفى سنة ٦٤٢ هـ .

وأما العصور المتأخرة فقد درج أصحابها على طريقة الترك ، فيسمون الولد محمداً أو أحمد أو غيرهما ، ثم يلصقون به لقباً ، ليفرق بينه وبين من يشاركه في اسمه ، مثل : سليم وأمين وصالح ومدحة ، وكان العامة يسمون هذا اللقب مخلصاً ، وربما كان اللقب أعجمياً أو عربياً غير فصيح ، مثل : محمد نيازي ، أحمد عزمي ، جواد حقي .

ومن هذه الخصائص المشتركة تكرار الاسم في الأسرة

الواحدة ، وتسمية الحفيد باسم الجد ، كما ترى مثل ذلك في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد ابن سليمان ، وفي مثل محمد سليم بن محمد تقي الدين بن محمد سليم ، ومنهم من يكرر الاسم في الاب والابن والحفيد كما ترى في ترجمة محمد بن محمد بن محمد . وقد رأيت في حجة شرعية من محكمة المعرة محمد بن محمد بن محمد الجندي ، والغالب أن يكون مثل هذا ، إذا كان الجد أو الاب أصاب خطأ ، أو منزلة سامية في الحياة ، فانهم يسمون باسمه ، تعظيماً لشأنه باعادة اسمه وتفاوتاً به ، ليكون الولد أو الحفيد كلاب أو الجد .

ومن خصائص المتأخرين ضعف العصية القومية والوطنية ومن آثار هذا الضعف أن الرجل منهم قد يبلغ منزلة عظيمة في العلم أو الادب ، أو الإمرة ، أو غيرها ، فيستهين به أقرباؤه ، وأبناء وطنه ، وكلما ارتفع شأنه ازدادوا استخفافاً به ، وتحقيراً لأمره ، وربما تآلبوا عليه واغروا به ، وكادوا له ، حتى يخمدوا جذوته ويخضدوا شوكته .

وإذا طرأ عليهم طارئ غريب التفوا حوله ، ورفعوا شأنه ،
وعظموا الصغير من أمره ، وخصوه باحسانهم ، وغمروه بمنحهم ،
وافترؤا له من المناقب والمكارم ما ليس فيه ، وقد يكون فيهم
من هو أكثر منه علماً وأشد ورعاً وأفضل في كل شيء ،
ولكنهم ينادونه ^(١) ، وينابزونهم ^(٢) بالألقاب المستهجنة ، وكثيراً
ما كنت أسمع من شيوخ المعرة وأنا صغير إذا رأوا مثل هذا ،
تمثلهم بقول القائل: أزهد الناس في الرجل أقرباؤه ، وبقول الشاعر:
لا عيبَ لي غيرَ أني من دياركم وزامرُ الحي لم تطرب مزامره
على أن هذا الخلق عام في السوريين جميعاً ، ومن استقرى
أحوالهم وجد الوفاً من الشواهد والأدلة على ذلك ، وقد رأيت في
دمشق غير واحد من رجال المغرب يأتي المدينة ، وهو أشعث
أغبر ، بالي الطمر ، حافي القدمين ، لا يملك من متاع الحياة
وعُدَد الارتزاق إلا بُرُتسا بالياً ، وسواك من أراك ، وسبحة
عظيمة الحب ، وصرة من بخور يضعها في عمامته ، ومكحلة

(١) أي يخالفونه ويفارقونه عن عداوة .

(٢) أي يميرونه .

ومروداً ، فإذا دخل المدينة عمد إلى مسجد من مساجدها ،
فإذا أقيمت الصلاة صلى صلاة متواضع خاشع ، فإذا فرغ
من صلاته بقي مستقبلاً القبلة ، وجهر بأوراده وأذكاره ليسمع
الناس ، ثم لوى عنقه على صدره وأغمض عينيه ، وسكن كأنه
خشبة مسندة ، لا ترى ولا تسمع منه إلا قرع سبخته
وتحرك شفته ، فإذا رآه رجل من البلد من أهل المدينة
أقبل عليه وجلس على ركبتيه وقبل يديه ، وتودد إليه كأنه
ولد فقده ثم وجدته ، أو كنز كان ينقب عنه ثم ظفر به ،
فينظر إليه نظر المعرض عنه ، ليفهمه أنه لا يريد أن ينصرف
عن ورده قبل أن يتمه ، فلا يزال يثني عليه ويتلطف به
حتى يلتفت إليه ، فيدعوه إلى منزله ، فيأبى ، فلا يزال يلح
عليه ، حتى يصحبه إلى منزله ، فيدعو جماعة من إخوانه وأشباهه
ليشتركوا معه في التبرك به ، ثم يسرد طائفة من مناقبه كأنه
يعرفه منذ جدائته ، ويفتري له من المكارم والكرامات ، ويبالغ
في مدحه بقدر ما أوتي من حول وطول في الكذب والاختلاق ،
فيتزاحم الحاضرون على دعوته إلى منازلهم ، فيتعفف ويأبى ،

فلا يزالون به حتى يحبسهم واحداً بعد آخر على كره منه ،
وكل واحد منهم يدعو في نوبته طائفة من أصحابه ليعرفهم
بالشيخ ويعرفه بهم ، فيتبارون في دعوته ، فلا يمضي قليل من
الزمن حتى يكثُر مريدوه وأشياعه وأتباعه ، وهو يقرأ عليهم
في كل مجتمع شيئاً من البردة ، أو المنفرجة ، أو الجملجولية ،
أو نحوها ، ويحدثهم بأحاديث الجن وكيف يستطيع أن يسخرهم
في أغراضه ، فيعطونه كرائم أموالهم ، ثم يهبونه من أفضل
منازلهم ، ثم يزوجهونه أكرم عقائلم ، فاذا عاش وارتاش قال :
إنه من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب ، وإنه كان يخفي
ذلك تواضعاً ، فيزداد أولئك الأتباع تعظيماً له ويزيدون في
بره وإكرامه ، فاذا تمكن من قلوبهم أوحى إلى نفر منهم أن
يسعى له بوظيفة ، أما درس في مدرسة ، أو إمامة في مسجد ،
أو نحو ذلك ، فيعمل هذا هو وأصحابه ، ويستفرغون المجهود
حتى يبلغوه مأملة ، ثم لا يلبث حتى يحجى بقریب له أو صديق
فيسعى حتى يوظفه في منصب آخر بعد أن ينزع منه من
كان فيه من أهل البلد ، ثم لا يزال هذا دأبه حتى يقصي

كثيراً من أبناء البلدة عن مرافق حياتهم ، ويستبدل بهم جماعة من أبناء جلدته ، حتى يصبحوا أولي الحل والعقد في المدينة ، ويتخيروا أشرف الأنساب وأكرم الألقاب .

وقد يكون في أبناء أشياعهم من هو أفضل من هؤلاء الطّراء الذين لا يعرف من أمرهم شيء ، وقد يكون فيهم جواسيس للحكومات الأجنبية ولصوص وعيارون ودجالون .. ولا يعد أن يكون مثل هذا في المتقدمين ، غير أن التاريخ ضن علينا به ، أو أننا لم نوفق إلى العثور عليه .

ومن تصفح شعر أبي العلاء في نقد الأخلاق والحياة الاجتماعية في عصره ، تبين له أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن أهل هذه المدينة اليوم يشبهون أهلها في ذلك العصر في كثير من الخلال السيئة والأخلاق الفاسدة ، ومن أقبح هذه الخصال أمور :

الأول الحسد ، وقد بينا أسبابه وما نجم عنه ، وفي شعر أبي العلاء وغيره كثير من ذم الحسد والحساد ، مما يدل على أن هذه العلة كانت متفشية في عصره ومصره .

الثاني الغيبة، فان الجمهور منهم يتفكه بنهش الأعراض، وانتقاص الناس ، ويعد ذلك من طُرف الحديث ، وريحان المجالس ، وأمانة على الشجاعة والجرأة .

الثالث النميمة، تنفش هذا المرض في الأيام الأخيرة حتى أنك لا تكاد تحدث أحداً بشيء الا نقله عنك لايقاع الشر والفتنة ، فان كان من المحسنين لم يتزيد في حديثه ، وان كان غير ذلك زاد بقدر ما يحتاج إليه لايقاد الفتنة .

الرابع الصلف والتعجرف ، وأظهر موطن يتجلى فيه هذا ، أصحاب النسب الكريم والحسب القديم ، فالعباسيون مثلاً يريدون الناس على أن يعظموهم اليوم ، وان كانوا صعاليك أو جهلاء ، كما كانوا يعظمون المنصور والرشيد والمأمون ، والعلويون يحملون الناس على أن يكرمّوهم ، كما كانوا يكرمّون علماً والحسن والحسين ، وان كانوا جهلاء ، فقراء ، أشقياء ، ومن كان أبوه أو جده مؤسراً يفرض على الناس أن يبجلوه كما كانوا يبجلون أباه ، وهكذا سبيل كل ذي حسب تليد إذا رأى أحداً اتنفخ كالزق ، وتنفش كأنه خرّب تنفج من حذار الأجل .

أما ذوو الشرف الجديد والحسب الطريف ، فانهم يقسرون الناس على أن يعبدوهم ، وان كانوا كالأصنام في الجود والجهل .
الخامس الاغراء والتحرش والقاء العداوة والبغضاء بين زيد وعمرو ، وهذا الخلق يلجأ إليه من كان موتوراً عاجزاً عن الانتقام ، أو من حيل بينه وبين أطعامه ، فلا يجد وسيلة يشفي بها غلته ، أو يروي غلته ، إلا تسليط هذا على ذاك ، وربما أضرم فتنة التهمت الأخضر واليابس .

السادس حب الأثرة فان الرجل منهم يريد أن تموت المدينة بأسرها ليحيا وحده ، ولذلك ترى أكثرهم في صراع دائم وجدال مستمر ، يسعى كل واحد إلى إبادة خصمه ، فيسد عليه مسالك الهواء ، ويشدد الخناق ، ولا يدخر وسعاً حتى يظفر ، أو يقبر ، وقد تمالىء الحكام أحد الفريقين ، حتى يضعف الآخر ، وربما انقلبوا على الأول ، وانما يريدون الإللال كل منها ، واستلاب ماله ، وتفريق رجاله ، فاذا تغلب أحدهما لا يلبث أن يصطدم بآخر ، فيقع بينهما ما وقع بين الأولين والرابع في كل حال رجال الحكومة ، لأن الظافر في كل

معركة لا يستطيع أن ينال من خصمه درهماً حتى يعطي الحكومة تسعة أعشاره .

السلام في المعرة بعد الحرب العامة الأولى :

في سنة ١٩١٤ ميلادية الموافق سنة ١٣٣٢ هـ أعلنت الدولة العثمانية الدخول في الحرب العامة ، وجردت الجند من البلاد الشامية وغيرها ، واستولت على أموال البلاد وغللاتها ، باسم الاعانة تارة ، والاعاشه تارة أخرى ، ونعم رجال الحكومة من عسكريين وملكيين وأشياعهم وأتباعهم ، يبؤس أهل البلاد الذين ذهب شطر كبير منهم في ساحات الحرب ، وشطر آخر ضحية الجوع والحميات والأوبئة والأمراض الفتاكة ، ولم أقف على شيء يفصل حياة المعرة في ذلك العهد ، الا أنني أعلم أنها شاركت البلدان الشامية في كل ما قاسته من ابتزاز الأموال ، وقتل الرجال ، وذل العزيز ، وعزة الذليل ، ونحو ذلك من أنواع الشقاء ، وأن جماعة من طبقات مختلفة في المعرة لم يشبعوا من خبز الشعير مدة الحرب ، وانما كانوا يعيشون مما تلبت الأرض من بقل في الربيع ، ويدخرون شيئاً آخر منه لما بعد ذلك .

ويمكن أن تلخص الحالة في زمن الحرب بأن الحكومة كانت تقتصر بالرجال والعقارات والاموال تصرفاً مطلقاً ، وأنها كانت تمتن الاهلين وتسخرهم في مصالحها العامة كما يسخرهم رجال الحكومة في مصالحهم الخاصة . واو كتب لها الظفر في هذه الحرب ، لادعى كل واحد من الاتراك ما ادعاه فرعون وقال للناس : انا ربكم الاعلى .

وأن الترك من عمال الحكومة وغيرهم كانوا يتنعمون من شقاء الامة ، ويشبعون من جوعها ، وأن صنائعهم من العرب والمستعربين كانوا كالعلق ، يمتصون دماء الامة ليشبعوا شهواتهم منها .

وفي اليوم الثاني من المحرم سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ايلول سنة ١٩١٨ م . دخل الجيش الانكليزي والعربي مدينة دمشق ، ثم سارت فصائل الجندين ، فدخلت المعرة ، ثم دخلت حلب في العشرين من المحرم ، وأصبحت منذ ذلك الحين تابعة للحكومة العربية في دمشق .

وفي ٢٥ تموز سنة ١٩٢٠ م دخلت الجيوش الفرنسية

بلاد الشام واستولت عليها ، لأنها كانت منتدبة عليها من قبل جمعية الأمم ، ودخلت دِمَشق ثم حلب ، وأصبحت سورية كلها خاضعة للنظم التي تسنها الدولة المنتدبة للبلدان عامة ، وظلت المعرة تابعة لحلب ، كما كانت ، وبقيت حكومتها على ما هي عليه ، وكان فيها مستشار فرنسي ، فكان يسيّر الحكومة على وفق هواه وإرادته ، ويسخر الناس في مقاصده ومنافعه ، فكانت تذوق من ألوان الجور والسلب والعجرفة ، وتقريب الغبارين وأهل الدعارة ، واقصاء الاشراف واهانتهم ، ما كانت تذوقه بقية البلاد السورية .

وفي سنة ١٣٤٤ هـ شبت الثورة ضد الفرنسيين واتخذ الثوار جبل الزاوية معقلاً لهم ، فكان بعض أهل المعرة يشاركون الثوار علناً ، وآخرون سراً ، فكان فريق منهم يخرج تحت ستار الظلمة فيمدون الثوار بما لديهم من عتاد وأسلحة ، ثم يعودون إلى بيوتهم ، ومنهم من كان يشترك في حرب الليل ، ويعود إلى بسايتين المعرة نهاراً ، وقد فطن الفرنسيون لذلك

فشددوا الحصار على المعريين ، وضيقوا عليهم الخناق .
ولما هجم الثوار على المدينة ، وضع الجند متارس وخواجز
من حجارة على سطح الخان والثكنة التي تقابله ، واختبؤا
وراءها يقاتلون الثوار ، حتى تهشمت جدران الخان من
الرصاص ، وذهبت نضرتها ، وبقيت آيات شاهدة وآثار دالة
على همجية الفرنسيين وأعمالهم السيئة .

ثم دهم المعرة فئة من الصهيونيين وعلى رأسهم رجل منهم
يقال له : نورس طيبي ، أو طيبة ، فاحتل دار الحكومة ،
وأخذ ما فيها من الاموال ، فاستكبر أهل المعرة ذلك ، ثم
حصروه هو وأصحابه ، وقبضوا عليه وشدوا وثاقه ، وأبقوه
حتى جاء جند الحكومة من حماة وحلب فسلموه إليهم ، ثم
قتلته الحكومة .

ثم اعتقلت الحكومة المنتدبة جماعة من أعيان المدينة منهم
المفتي ، ونقيب الاشراف

وخضدت شوكة المعريين حتى استسلموا للفرنسيين ، وظلوا
خاضعين لسطوتهم وعدوانهم وبغيهم ، حتى خضد الله شوكتهم
وأخرجهم من البلاد السورية عامة .

سورية والفرنسيون :

كان السوريون يسمعون الشيء الكثير من جور الفرنسيين وعسفهم وتعديهم على البلاد التي يستعمرونها ، ومحاولتهم القضاء على مقومات حياتهم الدينية والاجتماعية ، وأنهم لا يألون جهداً في إخراجهم عن دينهم ، ومنعهم من إقامة شعائره بطرق ظاهرة وباطنة ، وفي إخراجهم عن قوميتهم ، ومنعهم من تعلم لغتهم ، وحملهم على الطرق التي تجعلهم فرنسيين ، واستباحة أموالهم وأعراضهم واحتقارهم بصور فظيعة ، ونحو ذلك من الأعمال المنكرة الوحشية ، فكرهوا الفرنسيين بسبب ذلك كرهاً لا مزيد عليه ، وبلغ الفرنسيين ذلك عن طريق جواسيسهم .

فقم السوريون على الفرنسيين أعمالهم وظلمهم ، وخافوا من شرهم وظلمهم ، فلما انتهت الحرب سنة ١٩١٨ م ، وأراد الفرنسيون احتلال سورية تآهب أهلها لمحاربتهم على ضعفهم وقلة عددهم وعددهم ، ثم حاربوهم ، فظفر الفرنسيون ، ودخلوا البلاد عنوة ، فلما توطدت أقدامهم فيها فرضوا على الناس ضرائب مختلفة بأسماء متنوعة ، وفرضوا عليهم مقداراً من

الاسلحة ، وجمعوا أضعاف ما فرضوه من الاموال والاسلحة ولكن ليس هناك من يراقب أو يحاسب ، وعاملوا الناس بقسوة واهانة ، فوضعوا على أبواب المساكن التي تأخر أصحابها عن دفع الضريبة جنوداً من المغاربة والسودان والسنغال للارهاب ، فخاف الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، ثم بدأوا يسومون الناس سوء العذاب ، وأسكرتهم نشوة الظفر . ومن استقصى أعمال الفرنسيين في سورية ، لا يرتاب في أن حكمهم لا يدوم ، وان أمانيتهم ستعود بالخيبة والخزي ، وذلك لاسباب كثيرة ربما كان من أعظمها أو أعظمها أمران : أحدهما مصدر السياسة التي كانوا يسوسون بها البلاد ، والثاني القائمون بالاعمال السياسية وغيرها .

أما الأمر الأول فان الفرنسيين كانوا يكرهون السوريين ، لما يبلغهم عنهم من كراحتهم إياهم ، فلما دخل الفرنسيون ظافرين وهم أصحاب طيش وحمق وغرور ، وقصر نظر في سياسة الشعوب ، اتصل بهم أكثر الذين كانوا يتصلون بهم من قبل ، وأوغروا صدورهم وملأوها بكره المسلمين وحرصوهم

على الانتقام منهم ، ودلوهم على ما يجهلون من أحوالهم وأموالهم
فهب الفرنسيون إلى السلب والنهب والقتك والاذلال
والانتقام ، كأنهم وحوش ضارية ، لقيت غنماً ليس لها من
يحمي دمارها ويدود عن حياضها ، ولو استطاعوا أن يمحوا
المسلمين والعرب ، ويطمسوا معالمهم في يوم واحد لفعلوا .
وأما الأمر الثاني فإن أكثر القائمين بالاعمال السياسية
وغيرها من الفرنسيين ، ليسوا على شيء من الاخلاق الفاضلة
فقلما يجد الانسان فيهم عفيفاً ، أو نزيهاً ، أو ماهر اليد
أو الذيل ، بل كان أكثرهم أسرق من فأرة ، وأزنى من فرد
وأجوع من كلبة حومل ، وأطمع من أشعب .
وكان كثير منهم من يبيع مصاحبة دولته الغالية بثمان بخس
يرتشي به .

بما جعل نقمة السوريين تشتد على الفرنسيين ، وتغلي
مراجل الحقد في نفوسهم ، وكانوا ينتظرون فرصاً تسنح ،
ليشفوا بها غللمهم .

وقد ثاروا على الفرنسيين غير مرة ، ووقعت بين الثوار

والفرنسيين ومن معهم من المتطوعة معارك دامية ، قتل فيها خلق كثير من الفريقين .

ولما اعلنت الحرب الاخيرة سنة ١٩٣٩ م تحفز الفرنسيون للقضاء على السوريين ، وأعلنوا مصادرة الاموال والرجال ، فأخذ فريق من الشبان يفرون إلى بلاد الترك والعراق وشرقي الاردن وفلسطين وغيرها ، خوفاً من أن يجندهم الفرنسيون فأعلن الفرنسيون أنهم يريدون مصادرة العمال ليشغلوهم في مثل أعمالهم ، لا ليجندوهم ، فهدأ روع الناس قليلاً .

ولكن الفرنسيين أخذوا ينصبون الشباك ليحولوا بين الناس وبين الفرار ، كما أخذوا يمدون أيديهم للاستيلاء على مرافق الحياة والتجارة بقوانين وضعوها ، ولكن أمرهم لم يطل ، فقد هزمهم الالمان ، واستولى على معظم بلادهم ، فلانت قناتهم في سورية ، وخفت غلواؤهم .

ثم دخل الجيش الانكليزي سورية ، ووقع بينه وبين الجيش الفرنسي معارك ، كان الظفر فيها للانكليز ، لأنه أغرى كثيراً من رجال الحكم وقادة الجند الفرنسيين بابقائهم

في وظائفهم وترفع رتبهم ، فأصبحوا تابعين لقيادة الجيش الانكليزي بحسب الحقيقة .

ثم أخذ يفل شباتهم ، وينخذ شوكتهم ، ويقصيمهم واحداً بعد آخر ، ولكن أبقي لهم غرورهم وعجرفتهم وطماعيتهم في الاستفادة .

وكان الناس في سورية قبل دخول الجيش الانكليزي ، يسرون بخطى واسعة نحو الفقر والفاقة ، ويتوقعون أزمة خانقة من تصرف الفرنسيين السيء ، وبما أحدثوه من الوظائف والادارات التي قبضوا بسببها على منافذ الحياة ومرافقها ، مثل مكتب القطع النادر ودوائر الاعاشة والميرة والاستيراد والتصدير ونحو ذلك ، فكان كل شيء تحت تصرفهم لا يدخل شيء إلى البلاد ، ولا يخرج شيء منها إلا بإذن منهم ومن رجالهم الذين كانوا يعملون لمصلحة أنفسهم قبل مصلحة حكومتهم .

وكانوا يأخذون حاجة الجيش من طعام وشراب وغيرهما بما في البلاد ، ويستولون على ما يجدونه فيها من المواد الاجنبية التي يحتاجون إليها ، فوقفت الاعمال ، وقلت البضائع ،

وارتفعت الأسعار ، فمنها ما زاد ثمنه عشرة في المائة ، ومنها ما زاد مائة ضعف ومائتي ضعف وأقل وأكثر .

وبعد انكسارهم واستيلاء الالمانيين على قسم من بلادهم ، أخذوا يموتون بلادهم من سورية ، فيرسلون إليها القمح والسكر والسمن والصابون والعدس وكل شيء أمكنهم إرساله ، وكان كل واحد من جنودهم يرسل في كل برید ما يمكنه إرساله إلى أهله من ذلك .

فازداد بذلك ضيق البلاد ، واشتدت نقمة أهلها على الفرنسيين ، وكان الانكليز على عكس ذلك ، فكانوا يستقدمون إلى البلاد ما تشتد إليه حاجتها من سكر وأرز وقمح وغيرها .

وأخذوا يفتحون طرقاً ، ويحدثون أبنية للعسكر ، فقلت بذلك البطالة ، وشبع كثير مما كانوا يأخذونه من الجنود بيعاً وهبة . وكان الانكليزيون يحسنون معاملة الناس ، ويساعدون التجار على جلب الارزاق والبضائع في كثير من الاحيان ، فأحبهم الناس بقدر ما كرهوا الفرنسيين فشر الفرنسيون بأن نفوذهم أخذ

يتقلص في البلاد ، وأن كرههم قد استحکم في قلوب السوريين عامة ، وكانت أذية رجالهم وعمالهم تشتد يوماً فيوماً ، وكانت جواسيسهم وبطانتهم توغر صدورهم على الناس ، ليتمكنوا بذلك من السلب والنهب ؛ فرتبوا من حمقهم خطة أرادوا أن يثبتوا بها أقدامهم في البلاد ، ويستعيدوا سلطتهم ، فتأهبوا للشر ، ووضعوا متارس وأكياساً من الرمل في بعض الأماكن في الطرقات ، وعلى سطوح المنازل ، وعلى أبواب الأماكن العسكرية ، وفي المنعطفات وغيرها ، حتى أن من يطوف في مدينة دمشق يظن أنه في ميدان حرب .

وشعر الأهليون والحكومة الوطنية بما يكتنه الفرنسيون في صدورهم من الكيد والشر ، فوضعت الحكومة قطعاً من الدرك في بعض الأماكن ، وعلى باب دائرة الحكومة ، ومجلس النواب . فلما كان يوم ٢٩ مايس سنة ١٩٤٥ م . بدأ الفرنسيون بإطلاق النار على المارة في الشارع الممتد بين الجامعة السورية إلى سوق الأروام والمسمى بشارع النصر ، فهرب الناس إلى منازلهم واختبأوا ، وأخذ الفرنسيون يطلقون النار بصورة (٢٠)

متابعة من المدافع المثبتة في أماكن مختلفة من الثكنة الحيدية وشارع النصر والمستشفى العسكري وطريق الصالحية وشارع بغداد وغيره .

وكانت المصفحات والدبابات تطوف في المدينة ، وهي تطلق النار على المارة والجدران والنوافذ ، وألقيت قنابل كثيرة على بيوت فدمرتها ، وقتلت من فيها ، ووقع بين الدرك السوري والجيش الفرنسي معارك ثبت فيها الدرك على قلة سلاحهم ، وامتد ذلك إلى الليلة الثانية ، فاشتدت وطأة الفرنسيين ، وأحرقوا حارات بنيران القذائف ، وقد احترقت حارات مجاورة لحارتنا ، وهي حارة الشالة ، وكادت النار تلتهم منازلنا ، وكلما أخرجنا واحداً لاطفائها رماه الجند بالرصاص .

وفي هذه الليلة أصلوا الدرك نيراناً حامية ، فاضطروا إلى الفرار من أماكنه ، وقتلوا حامية المجلس النيابي ، فقطعواهم أرباباً ، وهم أحياء .

وقامت السيارات الكبيرة التابعة للفرنسيين تطوف في الأسواق ، ويفتح رجالها مخازن التجارة ، ويملأونها من البضائع

التي فيها ، ويرسلونها إلى لبنان فتباع فيه ، وكثر السلب والنهب من قبل الجيش وأعوان الفرنسيين وأنصارهم ، ولم يستطع أحد من الناس أن يخرج للمحافظة على رزقه وأمتعته خوفاً على حياته ، وكانت مثل هذه الحالة في حلب وحماة وغيرهما . ثم إن رئيس وزراء بريطانيا (ونستون تشرشل) أمر قائد الجيوش الانكليزية في سورية أن يقف القتال ويمنع الفرنسيين من عدوانهم ، وكتب إلى عميد الفرنسيين في ذلك العهد ^(١) برقية يذكر فيها اعتداء الفرنسيين على السوريين ويأمره بأن يوعز إلى الفرنسيين بأن يكفوا عن أعمال القتل والسلب والنهب ، وقال له فيها : إننا أمرنا قائد جيشنا الجنرال باجت أن يقف القتال والتعدي بالقوة .

فأرسل هذا القائد دبابات ضخمة إلى مراكز المدافع الفرنسية ، ومراكز القوى المحاربة والناهبة ، وأمرهم بأن يكفوا فوراً عن كل عمل ، فانصاع أكثرهم للأمر ، وتمرد فريق كانوا في بعض المنازل التي يسكنونها ، أو يقيم فيها فريق من الجند ، فهددهم بضرب المنازل ، فانقادوا صاغرين .

(١) لعله يريد الجنرال بينيه المفوض السامي الفرنسي .

وقويت شوكة الناس عليهم ، فكانوا ينهالون على رجالهم بالسب والشتم والاهانة ، وكان القائد أو الموظف الفرنسي لا يستطيع الخروج من مكان إلى آخر ، وكانت المصفحات والسيارات الانكليزية تنقل رجالهم من مكان إلى آخر ، وتحافظ على مراكزهم ومنازلهم ، حتى تم جلاؤهم عن المدينة . وهذه هي النتيجة المتوقعة من السياسة التي كانوا يستوحونها من خلصائهم وأعوانهم . ومن الغريب أننا كنا نسمع سب الفرنسيين ولعنهم من رجالهم الذين كانوا يعولون عليهم في سياستهم ويستوحونها منهم ، وقد كانوا يظهرون الشبهة بهم ، ويعددون من مساوئهم ما يعلمه الناس وما يجهلونه .

أما المعركة فلم يكن فيها موظفون فرنسيون ولا جنود فرنسية ، ولذلك لم يحدث فيها شيء ، وإنما حدث في حماة بين أهلها وبين الفرنسيين حروب طاحنة ، وكان فريق كبير من أهل المعركة قد خرج لمؤازرة الحمويين ، واشترك معهم في القتال ، حتى جاء القائد الانكليزي فوقفه كما فعل قائد دمشق وقائد حلب وغيرهما .

صفة المعرة

رأيت كثيراً من كتب في تاريخ هذه المدينة ، كتب ما تلقاه من أفواه العامة ومزاعمهم ، أو بما أوحاه إليه هواه وتعصبه ، أو بما حدثته به نفسه ، أو نقل عن لا يوثق بنقله فلم يصب شاكلة الصواب فيما كتب ، ومن هؤلاء صاحب (نهر الذهب) ^(١) فقد ذكر أن في المعرة غاراً يشتمل على قبر عطاء الله بن أبي رباح حامل لواء النبي (ص) ، وعطاء توفي في مكة ، ولم يُعرف أنه قدم المعرة أو مات فيها ، ولا عُرف أنه صحابي كما سيأتي .

وقد تابعه على ذلك أصحاب (مجلة العاديات) التي تصدر في حلب في العدد الأول من السنة الثانية سنة ١٣٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٢ م .

وقد ذكر أصحابها أيضاً أن قلعة المعرة من عهد الملك

(١) أي كامل الغزي .

الظاهر ، وقد بناها أن بنائها تم سنة ٦٣١ هـ ، وأن الملك المظفر هو الذي بناها .

ومنهم طه حسين فقد ذكر في (ذكرى أبي العلاء)^(١) أن قلعة المعرة متخربة من عهد الصليبيين ، وأنها تعرف بقلعة النعمان . ومنهم لويس شيخو فقد ذكر الاستاذ الميمني عنه : أنه قال : إن منارة الجامع من بناء عمر بن الخطاب . وقد بنا في هذا الكتاب الصواب في كل ما ذكر .

ونحن نصفها الآن على وفق ما رأينا ، أو نقلنا عن الثقات والمراجع الرسمية ، لنقف بالقارىء على الصواب بقدر ما استطعنا فنقول :

المعرة الآن مدينة متوسطة ، واقعة بين حماة من الجنوب ، وحلب من الشمال ، بينها وبين حماة نحو ثمانية وخمسين كيلو متراً وبينها وبين حلب نحو ثمانين كيلو متراً ، بحسب قيود وزارة النافعة السورية^(٢) سنة ١٣٥٤ هـ و سنة ١٩٣٥ م .

(١) طه حسين : ذكرى أبي العلاء ١٢٤ (ج) .

(٢) أي وزارة الأشغال العامة السورية .

طولها وعرضها :

ذكر أبو الفداء في (تقويم البلدان) ^(١) أن طولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة .

ارتفاعها عن سطح البحر :

قال صاحب (ذكرى أبي العلاء) ^(٢) : إن المعرة ترتفع عن سطح البحر نحو خمسة وستين وثلاثمائة متر ، والصواب أنها ترتفع نحو ٤٩٦ متراً على حسب قيد وزارة النافعة السورية وربما كان أكثر .

الطرق المارة بها :

كان أكثر الناس في القديم إلى انقضاء عهد الحكومة العثمانية يسرون على طريق القوافل ما بين حلب وحماة ، فكان الإنسان يخرج من حلب إلى خان طومان ، فسراقب ، فنخان السبيل ، فالمعرة ، فنخان شيخون ، فمورك ، فحماة .

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ .

(٢) طه حسين : ذكرى أبي العلاء ١٢٤ .

وكان الانسان يخرج من المعرة من جنوبيها الغربي فيمر على مكان يقال له قبة الحجى ، وهو عبارة عن تل صغير يقع على يمين الخارج من المعرة ، ثم يذهب جنوباً ، فيمر شرقي حنّاك ، إلى جهة حبش ، فخان شيخون . وسيأتي في ترجمة محمد ابن عبد الله بن محمد أخى أبى العلاء أن داره بباب حنّاك ، وتعرف بدار القبة ، فلعلها هي قبة الحجى ، وقد كان الناس في عهدنا يخرجون إلى استقبال الحجاج من هذا الطريق ، فينتظرون وصولهم إلى المعرة في هذا المكان ، وفيه آثار تدل على أن هناك كانت أبنية مرتفعة ، ثم أخنى عليها الدهر .

وفي سنة ١٢٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٥ م شرعت الحكومة بتسوية هذا الطريق وتعبيده وتزفيتة من حلب إلى تفتّناز ، ومن المعرة إلى خان شيخون ، وغيرت مخرجه من المعرة ، فأصبح يمر من شرقي المعرة إلى مرحطاط رأساً ، وهجرت المخرج الأول الذي كان يمر على قبة الحجى إلى شرقي حنّاك . وفي نحو سنة ١٣٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٩٤٧ م شرعت في تعبيد طريق يصل ما بين المعرة وأريحا ، وهذا الطريق يبتدىء

من غربي المعرة ، فيمر شرقي مقبرة بني الجندي إلى شرقي القلعة ، ويذهب إلى جهة النخيا ، فيمر من شمالي عين آسية ، ثم يذهب إلى أريحا ^(١) .

فتح شارع أبي العلاء :

كانت المعرة تقسم إلى محلتين كبيرتين : شمالية وقبلية ، وكان يفصل بينهما من الشرق الجامع الكبير ، ثم السوق ، ثم الطريق الآخذ من السوق غرباً إلى مقبرة بني الجندي وبني العظم ، وكل محلة تقسم إلى حارات متعددة تسمى كل حارة باسم خاص ، والحارة عبارة عن مساكن متعددة يجمعها اسم واحد كحارة الحبشة ، والحارة الغربية ، وحارة الكنيسة ، ولعلها هي التي ذكرها أبو العلاء في رسالة الغفران ^(٢) حيث قال : وحدثت أن أبا الطيب أيام كان إقطاعه بصف ^(٣) ، رؤي يصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له : كنيسة الاعراب ... وربما قيل لها : زقاق كذا ، مثل زقاق رازم .

(١) وقد تم تعبيد هذا الطريق وتزفيتة ، وكذلك الطريق الذي يصل المعرة بادلب .

(٢) أبو العلاء : رسالة الغفران ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٤٠١ : صف ضيعة بالمعرة كانت إقطاعاً للمتنبي من سيف الدولة ومنها هرب إلى دمشق ومنها إلى مصر .

وفي سنة ١٣٤٩ هـ سنة ١٩٣١ م فتح في المعرة شارع أبي العلاء ، ومبدؤه من طريق حلب ، شرقي المدينة ، يمر بين خان مراد وخان أسعد أو الثكنة ، ويمتد إلى غربي المدينة ، ويتصل بطريق أريحا الذي سبق ذكره .

وهذا الشارع جعل المدينة قسمين : قسم شمالي ، وقسم قبلي ، وقد انشئت فيه أبنية جديدة ، غيرت معالم المدينة ، وجعلتها شبيهة بالمدن الحديثة ، إلا أن الأبنية العظيمة قليلة فيه ، وقد بنيت في غربيه مدرسة ثانوية ، فقطعت امتداده نحو الغرب ، واضطرت الطريق إلى أن يلتوي وينحرف .

عدد نفوس المدينة وما أُلحق بها :

بلغ عدد سكان المعرة في الإحصاء الذي عملته الحكومة العثمانية سنة ١٣١٠ (٤٥٧٧) نفساً ، وعدد نفوس المدينة والقضاء (١٨٥٧٠) نفساً ، وبلغ في الإحصاء الذي عملته الحكومة السورية في سنة ١٣٤٠ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٢ م (٥٢٢١) نفساً .

وقد بلغ مجموع عدد نفوس المعرة وقراها بحسب قيود

الحكومة في سنة ١٣٥٩ هـ وسنة ١٩٤١ م (٣٦١٨٠) منه (٨٨٧٤) عدد نفوس المدينة وحدها ، وعدد الذكور منهم قريب من النصف ، وسيأتي جدول نبين فيه نفوس المدينة وكل قرية على حدة .

مكرونة المعرة ومقرها :

المعرة مركز قضاء تابع لولاية حلب في هذا العهد ^(١) ، وفيها حاكم إداري (قائم مقام) ، وقاض شرعي ، وقاض مدني ، يختلف بحسب تشكيلات الحكومة ، فتارة يسمى حاكماً منفرداً ، وتارة يسمى رئيس محكمة صلح ، وتارة وتارة . وفيها مركز للبريد والبرق من عهد الحكومة التركية ، وفيها مركز للهاتف أنشأته الحكومة السورية نحو سنة ١٩٢١ م . وفيها بلدية ولها رئيس يعين ، وأحياناً كان ينتخب . ولها ناحيتان في كل منها مدير ، إحداهما خان شيخون ،

(١) وبموجب التقسيمات الإدارية المعمول بها سنة ١٩٦٣ م ، فقد صارت مدينة المعرة مركزاً لمنطقة المعرة التابعة لمحافظة إدلب .

والثانية قلعة المضيق ، وفيها قوة قليلة من الدرك ، ومن قوى
البادية العسكرية .

مقر الحكومة فيها :

كانت الحكومة منذ القديم تقيم في دار واقعة غربي الحمام
التحتانية والسوق ، وفيها جميع دوائر الحكومة ، ثم جعلت
داراً في الساحة الكبرى في المحلة القبلية محكمة شرعية يقيم
فيها القاضي الشرعي وعمال المحكمة من كتاب وغيرهم .
وفي نحو سنة ١٩٢٦ م الموافقة لسنة ١٣٤٤ هـ أنشأت الحكومة
داراً لها في شرقي المدينة وفي شرقي الخان الشمالي مسامتة له .
وفي سنة ١٣٤٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٣١ م افتتحت شارع
أبي العلاء الممتد من شرقي المدينة إلى غريبها ، فر من جنوبي
دار الحكومة ، وأقامت في وسطه حديقة جميلة ، وجعلت أمام
دار الحكومة حديقة ، وفي الضفة التي تقابلها من الجنوب
حديقة تقاربها .

والموظفون في أعمال الحكومة الملكية عامة يعملون في
لدار المذكورة .

ماء المدينة :

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أهل المعرة يشربون من الآبار ، ويسقون بعض الزرع والأشجار في البساتين من الركايا والآبار ، وأن ليس في المعرة ولا في ضاحيتها نهر جار ، إلا ما زعمه بعضهم من أن مخاضاً اسم لنهر في المعرة ، أو بالقرب منها ، وقد بينا بطلانه .

والآبار التي يستخرج أهل المعرة ماءها للشرب والاستعمال نوعان : أحدهما يجتمع ماؤه من ماء المطر الذي ينزل على سطوح الدور وساحاتها ، وبعضهم يضم إليه ما يسيل في الأزقة ويسمونه جباً .

وهذا الماء كله عذب ، بارد في الصيف ، حار في الشتاء ، وقد يكون فيه نوع من الدود الأحمر والعلق .

وأكثر الآبار التي يجتمع فيها هذا الماء حديث العهد والبناء ، وفيها آبار قديمة . النوع الثاني من الآبار يتحلب ماؤه من أرض البئر ، وقد يضاف إليه ما يسيل من المطر ، ويسمون هذه الآبار بالركايا جمع رَكِيَّة ، وكثير من هذه الركايا ما يكون

ماؤه ملحاً ، فيستعملونه في غير الشرب ، وهذه الركايا يكون بعضها خاصاً بأصحاب المساكن التي تكون فيها ، ويكون بعضها عاماً ، فيخرج منها السقاؤون ماء يحملونه إلى البيوت في روايا لقاء أجر معلوم ، وفي وسع كل انسان أن يشتري قدر حاجته منه ، وفي المعرة عدة ركايا عذبة الماء يشرب منها الناس ، منها ركبة الحتام التحتانية ، وهي في أول باب السوق الغربي الشمالي المقابل للجامع ومنارته من الغرب ، وهذه الركبة يخرج منها للحمام المذكورة ، ويشرب منه قسم من أهل المحلة الشهابية .

ومنها ركبة العرائس ، ويقال لها : عين العرائس ، وهي شرقي المعرة ، وشمالي خان مراد ، وغربي مقام أُويس ومتصلة به ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة الشهابية ، ومنها : ركبة حمام السيد يوسف ، وهي في الزاوية الشرقية الشهابية من الساحة الكبرى في المحلة القبلية ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة القبلية . ومنها : الركبة المعروفة بالسبيل ، وهي واقعة جنوبي المدينة في شرقي زاوية بني الكيال إلى الجنوب ، وفي غربي مقام نبي الله يوشع إلى الجنوب ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة القبلية .

والسيل في عرف أهل المعرة حفرة كبيرة تشبه البئر
الواسعة ، تبنى حولها أربعة جدران ، وترتفع فوق الأرض
كأنها غرفة مسقوفة ، ويجعل لها باب ينزل إلى وسطها منه ،
يحتجمع فيها ماء المطر ، فيرده أبناء السيل فيشربون ويتوضئون
ويسقون دوابهم منه ، ويأخذون حاجتهم ، وإذا أرادوا صلوا
فوق ظهره ، والغالب أنهم كانوا يجعلونه في الطرق كطريق
حلب وحماة ، لاغاية أبناء السيل ، ولذلك يسمونه سيلاً .
والسيل أيضاً يطلق في عرفهم على مكان يصب فيه الماء ،
يختلف طوله وعرضه من ذراعين إلى أكثر ، فيشرب منه المارة
وأهل السوق ، وأكثر ما يكون هذا النوع في الأسواق ، يقف
ثمن مائه أهل الصلاح واليسار ، وقد كان في عهدنا في سوق
المعرة عدد من هذا النوع ، ويجمعونه على سُبلان .

ومنها ركية القهوة الكبيرة والقهوة عبارة عن مقهى في وسط المدينة
ظهرت فيه ركية ماء غزيرة ، ثم جعلت طاحونة ، وركب على الركية
مضخة نارية (موتور) فخرج منها ماء كثير يزيد عن حاجة الطاحونة

والمقهى ، وقد أسيل إلى بعض البيوت في أنابيب حديدية .
هذه هي أشهر الركايا العامة التي يشرب منها أهل المدينة ،
وقد قدمنا الكلام على الركايا التي في البساتين ، وعلى بعض
الركايا التي في الحمامات ، وسيأتي تمام ذلك .

ثم وجدت الحكومة أن الماء المستخرج من الركايا السابق
ذكرها غير نظيف نظافة طبية ، ولا كاف لحاجة الأهلين ،
فعمت على جلب مياه تنبع من بطن الأرض في موضع
في أخريات وادي النسيم من جنوبي المعرة إلى الشرق ، وعلى
رفعه إلى خزان بواسطة مضخة بخارية ، ثم توزيعه على المساجد
والمساكن وغيرهما ، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم
السبت السابع من شوال سنة ١٣٥٨ هـ وضع الحجر الأساسي
لخزان الماء المذكور ، الذي بني في طرف المدينة الجديدة من
الشمال الغربي ، مقابل ضريح أبي العلاء إلى الغرب ، وفي
الوقت المذكور وضع الحجر الأساسي لخزان الكهرباء الذي
أعد لتوفير المدينة .

وهي الآن تنار من قوة تتولد من موتور الطاحونة التي في

المقهى الكبير ، ولكن القوة المولدة لا تكفي حاجة المدينة كلها ،
وقد حضر وضع الأساسين مندوب من دمشق ، ومندوب
من حلب ، ومستشار الداخلية ، وهؤلاء من الفرنسيين .
وحضرت طائفة من عمال الحكومة السورية معهم ، وطائفة
من أعيان المعرة ^(١) .

(١) وتقوم بلدية معرة النعمان في عام ١٩٦٢ - ١٩٦٣ م في عهدة رئاسة
الدكتور أكرم الخاني بالأعمال الانشائية والعمرانية التالية :

١ - انشاء مجارى عامة للمدينة وقد تم انشاء الفرع الجنوبي منها وبلغت
تسكليفه ما يقارب الـ /٣٠٠٠٠/ ثلاثين ألف ليرة سورية ويباشر بإنشاء
الفرع الشمالي والفروع الداخلية قريباً وقد رصدت البلدية لهذه الأعمال
١٢٨٠٠٠ ل.س .

٢ - تعبيد وتزفيت ورصف الشوارع العامة بالمدينة
٦٥٠٠ ل.س

٣ - انشاء مسلخ في وشراء سيارة لنقل القمامات
٢٥٠٠ ل.س

٤ - تزويد المسلخ بمنفع كهربائي للفتح الذابح على
الطريقة الحديثة
١٠٠٠ ل.س

٥ - انشاء حديقة عامة ونصب لتمثال أبي العلاء فيها
المقدم هدية من وزارة الثقافة والارشاد القومي ٥٠٠٠ ل.س

المجموع ٢٧٤٠٠٠ ل.س

٢ (٢١)

المطالب والمدارس في المعرة:

كانت الحكومة التركية في عهدها لا تُعنى كثيراً بأهل هذا القضاء ، ولا يهتموا من أموره شيء ، إلا أخذ الأموال من طريق الضرائب والاعانات المختلفة ، وكان عمال الحكومة في ذلك العهد لا يهتمهم إلا سلب الأموال من طرق الرشوة والاحتيايل ، وتسليط هذا على ذاك ، واعانة كل على أخيه . وكانت جمهرة أهل المعرة ولواحقها فقراء ، يكلفون أنفسهم فوق طاقتها من الأعمال ليشبعوا نهمة العمال .

-
- ٦ - تزويد مصلحة الكهرباء بمجموعة كهربائية جديدة بقوة /٤٥٠/ حصاناً ٧.٠٠٠ ل.س.
بالإضافة إلى المجموعتين السابقتين بقوة /٢٣٠/ حصاناً و /١٢٥/ حصاناً .
- ٧ - تقديم مشروع الكهرباء وتوسيع شبكته ٢٥.٠٠٠ ل.س.
- ٨ - مشروع جر مياه الهوة الضخمة إلى مدينة المعرة التي تبعد عن المدينة /٧/ كم والذي يستفيد منه /٣٠/ ألف مواطن من المعرة وفي ثلاث قرى محيطة بالمشروع وقد بلغت نفقاته حتى الآن ٣٨١.٠٠٠ ل.س.

ولذلك لم يستطع أحد منهم إرسال ولده إلى مدينة أخرى ليتعلم فيها ، وقد كان في المعرة إلى نهاية سنة ١٣١٩ هـ مكاتب أو كتاتيب ، والمكتب ^(١) عبارة عن غرفة في مسجد أوزاوية أو بيت ، يعلم فيه أستاذ جماعة من الصبيان القراءة والكتابة ، وربما علم بعضهم في دكانه . وأنا قد تعلمت القراءة مع جماعة عند أستاذ يقال له : الشيخ أحمد من آل ادريس ، وكان حائكا في الصيف ، فقرأ في الشتاء ، وأكثر من كان يعلم الصبيان في المكاتب أو الكتاتيب من العميان ، لأنهم فقراء لا يجدون مرتزقا من غير هذا الطريق .

وقد أنشأت الحكومة التركية مكتبا رُشديا ^(٢) جعلته ثلاثة صفوف ، وقد تخرجت فيه ، وكان عدد الطلاب قليلا وعناية مديره بتعليم الطلاب أقل ، وأكثر من تعلم فيه خرج وهو

(١) المكتب بفتح الميم والتاء وسكون الكاف موضع تعليم الكتابة ويجمع على مكاتب ، وبعضهم يقول : كتاب بضم الكاف وتشديد التاء ويجمعه على كتاتيب ، وقد أنكر الأخير جماعة من اللغويين ، والتمس آخرون وجها لجوازه (ج) .

(٢) وقد كان هذا المكتب في جامع الشيخ عطا الله بمدينة المعرة .

لا يحسن غير القراءة والكتابة ، وكان مديره يقرئ الطلاب الكبار الفقه الحنفي والنحو والفلك ، وقد واطبتُ على دروسه هذه مدة طويلة ، وكان بعض علماء المدينة يقرئ الطلاب الكبار شيئاً من النحو والفقه والمنطق في غرفة في الجامع الكبير ، ومنهم من كان يقرئ في داره ، وكلا الفريقين يعلم مجاناً ، ولا يأخذ أجراً على تعليمه ، وقد قرأت في غرفة الجامع الملاصقة لمنارته من الشرق شيئاً من النحو على الشيخ حسن ابن الشيخ صالح رمضان ، و شيئاً من النحو والفقه الشافعي على والده الشيخ محمد صالح رمضان المعري ، و قرأت القرآن على الشيخ حسن ابن الشيخ احمد المطر في دكانه ، وعلى شيخه الشيخ عبدو الشُّحْنَة في الزاوية الداودية ، وأكثر طلاب العالم بل كلهم كانوا يحتذون على هذا المثال . ثم أنشأت الحكومة السورية في المعرة مكتبتين ابتدائيتين : أحدهما المذكور^(١) وفيه خمسة صفوف . والثاني للاناث وفيه صفان . ثم أنشأت مدرسة للتجهيز في الزاوية التي تقع غربي المدينة ويتصل فيها طريق أريحا بشارع أبي العلاء ، وفيها صفان

(١) وتسمى بمدرسة الغزالي وفيها الآن جناح قديم وآخر حديث وعدد طلابها في العام الدراسي (١٩٦٢ - ١٩٦٣ م) : ٤٥٨ .

وشرع في التدريس فيها نحو سنة ١٣٦٥ هـ ، ثم أنشأت صفوفاً آخر^(١) وأنشأت من قبل مدرسة في خان شيخون ، وفي كَفر نَبل وفي التمانعة ، وفي معرة حرمة^(٢) .

ولكن العناية بهذه المدارس أقل مما تستحقه ، كما تبيّن لي ذلك من احصاء وزارة المعارف .

هذه معاهد الدراسة والتعليم الحديثة في المعرة ، ولحمة من طريقتها . وأما في العهد الذي قبل سنة ١٣٠٠ هـ فلا نعلمه على التحقيق ، إلا أننا نقيسه على العهد الذي أدركناه ، وقد كان في المعرة مدرسة للشافعية ، قيل : إنها بنيت زمن الملك المنصور محمد الأول أحد ملوك الأيوبيين في حماة سنة ٥٩٥ هـ ولعله المنصور بن تقي الدين ، فإن صلاح الدين جعل المعرة وغيرها للمنصور سنة ٥٨٧ هـ كما قدمنا .

والمعروف في المعرة أنها مدرسة من بناء نور الدين الشهيد ،

(١) وتسمى الآن بثانوية أبي العلاء وعدد طلابها في العام الدراسي (١٩٦٢

— ١٩٦٣ م) : ٦٨٨ .

(٢) وسياقي الميان بالمدارس التجريبية والاعدادية والابتدائية في البحث عن منطقة المعرة .

ويسميا بعضهم المدرسة النورية ، وقد ذكرها كذلك أصحاب مجلة العاديات ، وزعموا أن علي بابا كتابة من سنة ٥٧٥ هـ مع أن نور الدين توفي سنة ٥٦٩ هـ ، واستولى صلاح الدين على البلاد الشامية سنة ٥٧٠ هـ ، وجعل المعرة إلى تقي الدين سنة ٥٨٢ هـ ، ثم جعلها إلى ابنه المنصور سنة ٥٨٧ هـ .

وهذه المدرسة الموجودة الآن في المحلة القبلية ، لها باب من الشرق ينزل منه إلى ساحة المدرسة ، وعلى يمين الداخل إليها غرفة صغيرة فيها قبر ، ولها ساحة فسيحة في وسطها بئر ماء . وفي الجهة الشمالية منها غرفتان صغيرتان يتجه بابها إلى القبلة ، يعلم فيها الصبيان رجل مكفوف البصر . وفي الجهة القبلية غرفة كبيرة سقفها قبة مزخرفة ، وعلى قنطرة بابها حجارة ضخمة مستديرة حول القنطرة على شكل جميل ، وقد اتخذها الناس مصلًى ، وإلى جانبها الشرقي مرحاض .

وقد كتب على عتبة بابها الخارجي جمل استطعنا أن نقرأ منها هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

أنشأ هذه المدرسة المباركة والبنية الميمونة من ماله ، ووقفها
على مذهب الامام الأعظم والسيد المكرم إمام الأمة أبي عبد الله
محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي المطليبي رضوان الله عليه ،
في أيام مولانا الملك المنصور ناصر الدنيا والدين عماد الاسلام
والمسلمين أبي المعالي محمد حسن^(١) شاهان شاه ابن أيوب ظهير
أمير المؤمنين أدام الله أيامه ، العبد الفقير إلى رحمة ربه
أبو الفوارس نجا بن عبد الله بن علي بن معافا رحمه الله في سنة خمس
وتسعين وخمسمائة ، وتولى عمارتها موفق رحمه الله .

وتحت هذه الكتابة مكتوب هذه الجملة : « الله صنعه ماهر بن
علي بن قانت رحمه الله » . وسيأتي أن هذا هو الذي بنى منارة
الجامع الكبير . وأخبرني رجل أن تحت قبة المدرسة فوق
المحراب مكتوب هذه الكلمات : « ماهر بن علي بن قانت
رحمه الله » .

وكان فيها مدرسة للشافعية أيضاً بناها الشيخ عمر بن الوردي

(١) قال لي بعضهم : ان المكتوب هكذا محمد بن عمر بن شاهان شاه . (ج)

في النصف الأول من المائة الثامنة ، وقد بني جامعها على مثال الجامع الأعظم في حلب .

وقد هدمتها الزلازل والإهمال ، ولم يبق منها إلا بعض جدرانها ، وكان المقامرون يجلسون فيها ، وكذلك شراب الخمر والحشاشون ، إلى أن قبض الله لها رجلاً من أهل المعرة يقال له مصطفى البلاتي ، فرمى بها نحر سنة ١٣١٥ هـ تقريباً ، وهي واقعة في الشرق الشمالي من المعرة مسامتة لمقام الشيخ حمدان تقريباً . وطول الباقي من هذه المدرسة عشرة أمتار ، وعرضها سبعة ، وليس في شرقها بناء في عهدنا هذا ، ولا في جنوبها سوى الخان ، ودار الحكومة التي بليت حديثاً . وستأتي تمة الكلام فيها في ترجمة إنيها .

الزوايا :

وفي المعرة زوايا ، والزاوية في اصطلاحهم مسجد يدفن فيه ، أو في غرفة فيه رجل من الصالحين ، وقد يزول القبر وتبقى بركته .

منها : زاوية بني الكيال ، وهي في جنوبي البلدة ، وكان

الرام^(١) أمامها ، ولم يفصل بينها بناء . ثم حدثت أبلية فصلت بينهما ، وهي غربي جامع يوشع بن نون (ص) وهذه الزاوية بُليت في ربيع الآخر سنة ١١٦٢ هـ كما هو مكتوب على عتبة بابها ، وكتب إليّ بعض المعريين أن البناء فرغ منه في شهر ربيع الآخر سنة ١١٥٧ هـ على يد الحاجّ أبي بكر بن الشحنة وهو مدفون في هذه الزاوية .

ومنها : زاوية الداودية وهي في المحلة الشمالية بالقرب من الحمام التحتانية ، ومن السراي (دار الحكومة) القديمة ، ولم أعلم شيئاً من أمر هذه الزاوية ، ولا تاريخ بنائها . وقد كانت في عهدي كُتّاباً ، وقرأت فيها القرآن على الشيخ عبده ابن الشحنة ، ثم استولى عليها شيخ رفاعي الطريقة ، وقد عثر بعض الباحثين في شرقي الجبانة المعروفة بجبانة بني الجندي الواقعة غربي المدينة

(١) الرام في عرف الممرّة وضاحتها مستنقع يجتمع فيه الماء من المطر يستقي الناس منه دوابهم ، ويستعملونه في أعمالهم ، وفي جنوبي الممرّة إلى الغرب هذا الرام وإلى جانبه الشرقي رام آخر ، الأول الرام الكبير ، والثاني الصغير ، وقد أبطلتها الحكومة ، وردمتها لما يتكون فيهما من الأقدار ، ويؤثر من الجراثيم الضارة كالملايا ونحوها (ج) .

على قبر مكتوب عليه بخط جميل : « عبد الكريم بن عبد الوهاب
الداودي المنتقاري في أواخر شوال سنة ٩٥٥ هـ » . ، فلعل هذه
الزاوية منسوبة له ، أو لأحد من أسرته .

ومنها : زاوية الشيخ العجمي ، وهذه لم أقف على شيء
من أمرها ، وهي في المحلة الشمالية أيضاً ، تشتمل على ساحة
صغيرة ، وفي غربيها مقابل الباب الذي يدخل إليها منه غرفة
صغيرة ، وفي جنوبي الساحة مسجد في شرقيه ضفة فيها
قبر يقال : إنه قبر الشيخ محمد العجمي ، ولا أعلم هل هو
عجمي حقيقة ، أم من بني العجمي ، وهم أسرة في حلب
معروفة بالصلاح ، وهذه الزاوية يصلح فيها بعض الأوقات
بجماعة ، ويقام فيها الذكر على الطريقة الرفاعية بعد الجمعة ،
وشيوخها من أبناء غمنا .

المساجد :

وفي المعرة مساجد كثيرة من أشهرها وأعظمها : المسجد الجامع
الكبير ، وهو في وسط المدينة من الشمال والجنوب ، وفي طرفها من

جهة الشرق ، وهو الفاصل بين المحلة الشمالية والقبلية من هذه الجهة ، وفي شماله أرض خالية من العمران يسمونها خيراً ، وهي وقف له ، وقد وجدت فيها رَكِيَّة ماء مقابل باب الجامع الشمالي ، وكان غريبه متصلاً بالسوق من أوله إلى آخره ، ثم هدمت البلدية في نحو سنة ١٣٥٢ هـ القسم المتصل بالمنارة من السوق ، وأضافت مكانه إلى ساحة السوق فأنكشفت المنارة من هذه الجهة . وفي جنوبيه أرض على قدره أيضاً ، وقد بني أمامها سوق يسمى سوق الجامع ، فلم يقبل عليها الناس ، فهدمت في نحو سنة ١٣٤٩ هـ ، حين فتح شارع أبي العلاء ، وهذه الأرض مسورة بجدار يصل بين حرم المسجد القبلي وبين الركبة التي يستخرج منها الماء ، ثم يسيل في ساقية على أعلى الجدار المذكور إلى مخزن في المسجد ، فيأخذ منه الناس للوضوء .

ولهذا المسجد بابان أحدهما من الجهة الشمالية ، وهو متصل بالمنارة من جهتها الشرقية ، وهذا الباب لم يكن قديماً ، وإنما يقال : إن جدي فتحه ، ولا أعلم في أية سنة فتحه ، ولكنه فتحه قبل وفاته بسنوات وكانت وفاته سنة ١٢٦٩ هـ ، وإذا صح

أن تجدي سليما هو الذي فتحه ، فيكون ذلك لسبيين ، الأول :
أن باب الجامع الأصلي من جهة السوق ، وكانت الأسواق في
ذلك العهد لها أبواب تقفل كل يوم مساء ، وتفتح صباحاً ،
ولا يستطيع أحد أن يدخل المسجد في هذا الوقت إلا بإذن
الحراس ، وفي ذلك صعوبة على المؤذن والمتهجدين والمصلين
في الغلس .

الثاني : أن جدي كان إمام هذا المسجد ، وكان لا يصل
إليه بكرة إلا بواسطة الحرس ، وهذا الباب الذي فتحه قريب
من باب داره ، لأنها أول دار تقع في شمالي الجامع ، فكان
الجامع بعد فتحه قريباً منه ، وتسنى لمن يريد أن يأتي المسجد
أن يدخله متى شاء ، من غير أن يدخل من السوق ويستأذن
الحراس . وهذا الباب ينزل إليه بخمس درجات عراض :
والباب الثاني ، وهو الباب العظيم من الجهة الغربية ، ينزل
إليه من ساحة السوق بعشر درجات ، وقد غيرت درجاته
وعرضت في نحو سنة ١٣٥٠ هـ .

وقد بني على سمنته إلى الشمال ، أي إلى جهة المنارة ، ثلاث غرف

ليس لها منفذ الا أبوابها ؛ وفتح فوقها ثلاث نوافذ للدكاكين التي فوقها ، وأبوابها من السوق ، وقد شوهت نضرة الجامع بأبواب الغرف المذكورة والنوافذ التي فوقها .

وقد قدمنا عن ناصر خُسرو ، وكان رأى المعرة نحواً من سنة ٤٤٠ هـ أن جامع المعرة مبني على أكسمة قائمة وسط المدينة ، ومن أية جهة أتيته ترتقي إليه بثلاث عشرة درجة . وفي عصرنا الحاضر يرى هذا الجامع في منخفض من الأرض من أية جهة أتته ، إلا من الشرق ، لأن أكثر ما يكون انخفاضه يظهر إذا انحدرت إليه من الشمال والجنوب والغرب ، أما الشرق فلخلوه من العمران لا يظهر انخفاضه عنه كثيراً .

والذي اعتقده أن في قول ناصر خُسرو شيئاً من الحقيقة وأن الجامع كان مرتفعاً عن المدينة ، ولكن توالي الخراب بسبب الحروب والغارات والزلازل جعل المباني ركاماً وكان الناس حين يعودون لبناء منازلهم فقراء يعجزون عن استئصال الأبنية القديمة ، ويكتفون بالبناء على أنقاض القديم ، فجاء البناء الحادث أعلى من القديم ، وبهذا السبب صار الجامع

منخفضاً ينزل إليه بدرجات بعد أن كان عالياً يصعد إليه بدرجات .

وأهل المعرة إلى هذا اليوم إذا أراد أحدهم أن يبني داراً ، أو غيرها ، وعثر على بناء قديم تحت الأرض وراه متيناً ، وضع بناءه فوقه وتوكل على الله .

ويدل على ما ذكرنا كثرة ما عثر عليه من الأبنية المختلفة ، تحت الأرض منها : أن رجلاً أراد أن يبني داراً في أرض قريبة من الجامع المذكور ، من شماليه الشرقي ، فلما كان العامل يحفر الأساس ويخرج ما يجده من الحجارة فيه ، انهار التراب في الموضع الذي كان يحفره ، فلما سكن الغبار جاء صاحب الدار وعماله ليروا سبب ذلك ، فوجدوا هوة عميقة ، فأدلوها إليها عاملاً ليتبين أمرها ، فوجد أن الهوة حدثت في سقف مخزن كبير فيه آنية من الفخار لوضع الماء شبيهة بما يسقى في بلاد الشام بالشربة ، وهي دقيقة الطرفين ، منتفخة الوسط ، ولها عنق طويل ، وهي مطلية بطلاء أبيض كالخوارى وفيها نقوش مختلفة ، كأن كل واحد منها غرز ظفر يتألف

منه عدة صور متنوعة ، وقد أخرج قسم كبير من هذه الأواني صحيحاً وبيع للناس ، وكنت اشتريت واحداً منها وأنا صغير ، وربما كان ذلك سنة ١٣١٢ هـ أو بعدها بقليل ، وفي جنوبي هذا الموضع إلى الغرب ، حفر رجل آخر أساساً فانحسر التراب والرّدم عن جزء كبير من حتمام مفروش بالبلاط الناعم ، ووجد فيه مجاري الماء إلى الحمام .

وكلا الرجلين رمم موضع الثُّغرة التي حدثت في أرضه وقواها ووضع بناءه عليها .

وسقف المخزن والحمام مساوياً لأرض الجامع المذكور تقريباً ، وربما كان فوق هذه الأبنية قصور عالية سميت المعرة من أجلها ذات القصور ، وعثر في المعرة على كثير من مثل هذه الأبنية تحت الأرض ، وفيها الآن كثير من معاصر الزيتون تحت الأرض ، وهذا وأمثاله يؤيد قول ناصر خُشرو .

ويؤيد هذا أيضاً أنهم لما فتحو شارع أبي العلاء ، أراد أصحاب الحمام المعروفة بحمام الزهور إصلاحها وتغيير شكلها فهدموها ، وكانت منخفضة عن السوق التي تجاورها ، فوجدوا

تحتها مخازن ، ووجدوا تحت المخازن دكاكين صاغة مردومة ،
وفيهما بعض الآثار الدالة على أنها كانت دكاكين صواغ .
ويكون الجامع أعلى من هذه الدكاكين ، وإن كان يتبين
لناظر أنه منخفض عن الأبنية الجاضرة . وقد حدثني بذلك
رجل من بني الشُّخنة من أهل المعرة سنة ١٣٦٦ هـ ، وهو
الذي تعهد هدم الحمام المذكورة وبناءها .

وقد يشكل على هذا أن في بعض الجهات الشمالية والغربية
والجنوبية بعض أبنية أساسها قائم على صخر تحت أديم
الأرض ، وهي أعلى من الجامع .

وعلى هذا ينبغي أن يكون الجامع قائماً على أكمة ، كما
قال ناصر خسرو ، وما حوله قسم منه منخفض عن الجامع ،
وبعد هذا قسم يختلف عن هذا ، بعضه مساوٍ له ، وبعضه
أعلى منه .

ويجوز أن تكون الأمكنة العالية هي التي بنيت فوقها القصور
وسميت المعرة بسببها ذات القصور .

كما يجوز أن تكون البلدة في الأصل قسمين : عالٍ ،
ومنخفض ، والجامع بالنسبة للقسم الثاني عالٍ يصعد إليه بدرجات .

وفي هذا الجامع أنماط مختلفة من البناء ، ولذلك زعم بعض المؤرخين أنه عُمرى ، أي بني في عهد عمر بن الخطاب وآخرون جعلوه أقدم عهداً من ذلك ، والمتأمل فيه يجد أن بناءه لم يكن في عصر واحد ، فإن في الجهة الشرقية من ساحته بناء يشبه بناء الرومانيين ، وفي صحنه قبة صغيرة ، قائمة على ستة أعمدة من حجر ، تشبه البناء في عهد عمر .

ويليها إلى الشرق قبة تحتها بركة من الماء ، يتوضأ منها الشافعية ، قائمة على عشرة أعمدة من حجر ، بناؤها يشبه الأبنية المتأخرة كثيراً عن عهد عمر .

ويليها من الجنوب الشرقي قبة يسيل منها الماء إلى القبة الأولى ، وهي أصغر حجماً منها ، مستورة الجوانب ، يتوضأ منها الحنفية ، وتسمى الحنفية ، وقد كتب على وجهها الجنوبي ما يلي :
جدد هذه الحنفية المفتقر إلى رحمة ربه كيوان بك عز نصره

في سنة ٩٧١ هـ ، ويلي الكتابة هذان البيتان :

غرض بونقشدن كم اولدى اباد دعاي خير در ايدن اولسون شاد
جونكه كرد ابن سبيل خير را دعاي كيوان بك نهجراي اهل داد

والذي يفهم بما قدمنا من كلام البَلَّاذري وغيره ، أن
أبا عبيدة صالح أهل المعرة على أن تكون كنيستهم العظمى
جامعاً ، وقد ذكرنا أن ملك الروم أحرق هذا الجامع سنة
٣٥٧ هـ ، وأن الفرنجة أحرقوه سنة ٤٩٢ هـ ، ولا أعلم إن
كان خرب مع المعرة من قبل الخوارجية وغيرهم ، أو خرب
في الزلازل التي خربت المعرة كلها ، وهذا يدلنا على أنه غير
عُمري ، وأنه ليس أقدم عهداً من عمر .

والظاهر أنه بقي منه شيء من آثار عهد عمر ، وهو القبة
المذكورة ، وشيء من آثار الكنيسة ، وهو بعض حجارة في الجهة
الشرقية ، وما عدا ذلك فهو يشهد لنفسه بأنه حدث في أوقات
مختلفة بعد ذلك ، ولعل المسلمين أضافوا إلى الكنيسة أكثر
منها ، وفي ساحة الجامع يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب نحو
(٦٠) متراً ، وعرضها من الشمال إلى الجنوب أقل من ذلك .
وفيها هذه القباب الثلاث ، وبثران أحدهما قبلي الحنفية ،
والثاني شرقيها ، وحديقة بين القبة المذكورة والجهة الشرقية
من الجامع ، وفي جنوبي الحديقة البئر الثانية .

والماء يسيل إلى البثرين من المطر الذي يصب في سطوح
المسجد وساحته ، ومن مجرى يتكون فيه المطر الذي ينزل في
الأسواق ، فينحدر في ساقية من حجارة منجوتة نحتاً بديعاً ،
وكل حجر من حجارة الساقية طرفاها ، وأرضها من قطعة
واحدة ، وعليها غطاء من حجر محكم الوضع ، وقد غيرت هذه
الساقية ، واستعوض عنها بأخرى مؤلفة كل قطعة منها من ثلاثة
أحجار ، أحدها أرض ، والآخران طرفان ، وفوقها غطاء ،
وهي أقل إحكاماً من الأولى ، وذلك حين جدد بلاط الجامع
نحو سنة ١٣٤٠ هـ .

وماء البثر الشرقية شديد البرودة لشدة عمقها ، ولا يبعد
أن يتسرب إليها شيء مما تمتصه أرض الحديقة ، التي يسال إليها
ماء البركة مرتين في كل أسبوع ، وماء الحنفية الذي لا ينقطع ،
كما لا يبعد أن يتسرب إليها شيء من مياه المراحيض المستنقعة
منذ مئات السنين ، وفي كل يوم يصب فيها مقدار كبير من
مياه المتوضئين وأبوالهم وفضلاتهم ، وهي لا تجري إلى مكان
آخر ، ولا تزيد عما هي عليه ، ويقوي هذا الظن أن البثر

المذكورة أعرق من المراحض والحديقة ، بأكثر من ثلاثين متراً وهي متصلة بالحديقة ، وليس بينها وبين المراحض أكثر من خمسة عشر متراً ، وتكثر الديدان المختلفة الألوان في هذه البئر إذا قل ماؤها ، ولعل ذلك يتولد مما يحمله الماء حين جريانه إليها من الأدران والأقذار ، وقد فطن لذلك أهل الحل والعقد ، فجعلوا المراحض تسيل إلى مجرى واحد ، وهو يسيل إلى جهة الشرق من المدينة ، من شمالي الخان .

وفي ساحة الجامع في الزاوية الغربية الجنوبية غرفتان ، قائمتان بين جدار الحرم القبلي وبين باب الجامع الغربي ، كان طلاب العلم في عهدنا يجلسون فيهما للمطالعة والمذاكرة ، وربما تغلب بعضهم على واحدة فاتخذها مقراً له ، ومجتمعاً لطلابه حين الدرس ، وقد زرت المعرة سنة ١٣٥٧ هـ فوجدت إحدى الغرفتين قد خربت ، والثانية على وشك الخراب .

وفي ساحة المسجد مصلى ، وهو صُفَّة كبيرة أمام الحرم الشمالي ، تمتد من شرقيه إلى غربيه ، في عرض نحو أربعة أمتار ، وفي وسطها من الجنوب شبه محراب متصل بها ، متقدم

عليها ، وهو مرتفع عن أرض الساحة بنحو ذراع ، ويصل بين هذا المصلى والبركة حجارة مربعة الشكل ، موضوعة فوق البلاط وضعاً ، مفصولة بين كل جبر وآخر بمقدار نصف متر ، ينتقل عليها المتوضئون من البركة إلى المصلى ، كما يصل مثل هذه الحجارة بين البركة والحرم القبلي ، وينتقل عليها المتوضئون منها إلى الحرم .

وفي الجامع موضعان للصلاة أحدهما شمالي ، والآخر قبلي ، فالقبلي وهو أعظمها ، فيه المحراب والمنبر ، وفيه تكون الخطبة والجمعة وصلاة الظهر والعصر في زمن الصيف ، لاتساعه وبرودته ويسمونه الحرم ، ولهذا الحرم ستة أبواب قديمة فتحت منذ بنائه ، عرض كل واحد منها ٢٧٥ سانتيمتراً ، وباب جديد فتح في عهدنا في نحو سنة ١٣١٥ هـ وهو آخرها من الشرق ، وأقلها طولاً وعرضاً ، وفيه منبر من خشب قديم عرضه ٨٠ سانتيمتراً .

وطول هذا الحرم من الشرق إلى الغرب ٥٨ متراً و ٤١ سانتيمتراً ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١١ متراً و ٥٦

سانيمترا ، وفيه ضفتان : احدهما من الغرب ، والثانية من الشرق ، والشرقية أعلى من الغربية ، يصعد إليها بدرجات ، وقد وضعت في ناحيتها الشمالية حنفيات للوضوء نحو سنة ١٣٨٠ هـ ، وفي شرقها غرفة صغيرة مظلمة ، وفي زاويتها الجنوبية الشرقية كوة يسيل منها الماء إلى خزان في جدار المسجد الشمالي ، بين الباب السادس والسابع الشرقي ، وفيه حنفية من الداخل ، وأخرى من الخارج يتوضأ منها ، ثم يسيل الماء من هذا الخزان إلى الحنفية التي جددتها كيوان ، ثم منها إلى البركة .

وقد رأيت جماعة من العجم يتبركون بتلك الكوة ويتمسحون بمائها ، لأن بعض الناس قال لهم : إن رأس الحسين بن علي حين ذهب به إلى الشام وضع في هذا المكان ، وبني الصالحون عليه هذا البناء ، وأسالوا الماء إليه ، ولا شك أن هذا الرجل أراد الاحتيال عليهم ، ليأخذ أموالهم باسم الزيارة ، ولكن من الناس من أثر فيه هذا الزعم ، وجعله عقيدة راسخة . وفي الجدار القبلي من هذا الحرم ، مما يلي المحراب إلى

الشرق كتابة قديمة ، أثر فيها طول العهد ، وشدة ارتفاعها ،
وقلة العناية بتنظيفها ، فلم أستطع قراءتها ، فكلفت قريبا أن
ينقلها ، فاستعصى عليه بعض الكلمات ، وأطأه بعض آخر ،
وهذه صورة ما أمكن نقله منها بالحرف :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ، الأمر بالعدل والإحسان
الناظر بعين الرحمة إلى كل إنسان ، الموفق للعمل الصالح من
نعمائه ، الذي شرف عبده محمداً ﷺ ، وبجاهه فاز ، وبعد فلما
جدد مولانا ملك الأمير المعز الباقي ، كافل المملكة الحوية ،
أعز الله أنصاره ، وجعل الأمانة تقام إلى المعرة المعمورة ،
التي أصبحت بنعمة كفاءته معمورة ، وحبه الجامع طرفاه
إلى الدين ، فطالع بأمره اللائق الشريف طالب مرضاة
العزیز الغفور

إن أوقافه يوجد منها الآن باسم النقود بالكامل ، ولم يفضل
منه ما يقوم بمصالحه ، ولم يفعل ذلك من هو بالخيرات عامل ...
المرسوم الشريف بكل فعل ، وأمر منيف ، رسمه بالأمر الشريف
العالي ، المؤلف السلطاني الملكي الأشرفي ، الناظر بولائه إلى

تلحيظه ببئته بمصالح الله ، وأمره عام ، أخذ الاغدا
ويحفظ معالم جهاتها برز معناها ، فلا . . . الناظر على الاستمرار
وعهد إلى إقامة شعائر الدين الحنيفي ، باتصال جهاتها ، بمعمور
جماعاتها بنيل الجنان . . . ان من يصرف ريع وقف الجامع
المعمور بالمعرة ، فانه يجحد به من العماره من يصرف بعمل
صالح ، لا يحتاج الذم الفاحش ، والستور عمن يصرف مغالط
الخطيب والمؤذنين والقوام ، ومن يكون في درجتهم بمن يقوم
بعمارة كاملة مهما فضل ، يعود ذلك ينصرف لأناس بالنقود
من الأيتام عن الأمراء والجند المستقرين على الوقف المذكور
باسم الشؤنة ، فليعمل المرسوم الشريف بكل وقف له غلة ،
. بعمل بحسبه ، وبمقتضاه من غير غفلة عنه ولا خروج عن
معناه ، بعد الختم الشريف إن شاء الله تعالى ، كتب في التاسع
عشر من شوال سنة ٧٧٥ هـ خمس وسبعين وسبعمائة ، فلذلك
رسم بالأمر النعماني المشار إليه على الحجر ، ليخلد إلى يوم
المحشر ، ما أذن مؤذن ، وخطب خطيب على المنبر ، والله تعالى
الموفق إلى خير الأمور . . (وبقي سطر آخر لم تمكن قراءته) .

وقد اجتمع في هذا الأثر علتان عظيمتان ، منعنا من فهمه كله أو بعضه ، الأولى حذقة المنشيء وحرصه على السجع السمج المتكلف ، والثانية استعصاء بعض الكلمات على الناقل وزادِ ضغنا على إِبالة كثرة أوصاف المدح ، واستعمال كلمات من مصطلح ذلك العصر يشق فهمها ، والاستدلال على غيرها وقد تقدم ما يفيد أن المعرة كانت في سنة ٧٤٥ هـ للملك الصالح بن اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، فلعل هذا المرسوم صدر منه ، أو من يليه في الملك ، ممن لم نقف على اسمه .

وأما الموضع الشمالي ، ويسمونه الحجازية ، وفيه تقام صلاة الجماعة في الشتاء ، لأنه أكثر دفئاً من الحرم القبلي ، وأصغر حجماً ، وقد كان يتصل به من جهة الشرق رواق عظيم في صدره غرفتان ، يقيم فيهما الفقراء من مهاجرة الغرب والهند والعجم وغيرهم ، ممن يمر بالمعرة فقيراً ، وباب هاتين الغرفتين يتجه إلى القبلة ، ويتصل بهما غرفة أخرى ، يتجه بابها إلى الغرب ، وكان يقيم فيها متولي وقف الجامع وجاياه ، ثم ضم جميع الرواق والغرفتين إلى الحجازية المذكورة ، وجعل

فيها محل للوضوء ، وفتح لها باب إلى القبلة من جهة الغرب في سنة ١٣١٢ هـ فمابعدھا إلى سنة ١٣٤٧ هـ ، وتتصل الحجازية من جهة الغرب بباب الجامع الشمالي ، ومدخله إلى ساحة المسجد ، وفي سقف هذا الباب والمدخل غرفة تصل بين المنارة والحجازية ، يصعد إليها من الدرج الذي يصعد منه إلى المنارة ، وفي هذا المدخل عن يمين الداخل غرفة صغيرة تحت المنارة من الطرف الجنوبي .

وأما المصلی الذي في ساحة المسجد فتقام فيه في الصيف فقط صلاة الصبح والعشاءين بجماعة .

وفي جنوبي الحجازية الشرقي باب صغير ، فيه غرفة كانوا يضعون فيها الدابة ، التي يخرج عليها الماء من ركية الجامع ، وتصب في خزان يسيل منه إلى المراحيض والمسجد ، وهذه الغرفة شمالي المراحيض إلى الغرب .

وأما منارة هذا المسجد فهي أجمل اثر عُمُراني أبقاه الزمن في المعرة ، وأنفس ذخيرة حفظتها الأيام ، لتكون مثالا يدل على مبلغ الفن العمراني في ذلك العهد ، وهي والحق يقال

بديعة الرؤاء ، محكمة البناء ، وليس في منارات المساجد التي رأيناها في بلاد الشام ومصر ، ما يشابهها في إحكام الصنع ، ودقة الوضع ، الا منارة الجامع الكبير في حلب ، الا أن آثار الجدة والاتقان بادية في منارة المعرة ، أكثر منها في منارة حلب .

وهذه المنارة واقعة في زاوية الجامع الغربية الشمالية ، وهي منقسمة إلى ثمانية أبراج متساوية في الطول والعرض ، ارتفاع كل واحد منها نحو ثلاثة وخمسة وثمانين سانتيمتراً وأحد الأبراج الثمانية مدفون أكثره في الأرض ، وفي كل برج أربع نوافذ من جهاته الأربع ، متساوية في الشكل والحجم ونوافذ كل برج مخالفة لنوافذ الأبراج الباقية في الشكل والحجم وفي أعلاها حلق أي درابزين من حجارة كبيرة ، يحيط بأطرافها الأربعة ، وهو بديع الشكل ، دقيق الصنعة ، مثقب على نمط متشابه بديع ، وفي الوسط غرفة صغيرة ، توضع فيها المصابيح التي توقد في شهر رمضان والأيام المباركة ، لأنهم كانوا يوقدون مصابيح بزيت الزيتون يسمونها قناديل ،

ثم صاروا يوقدون مصابيح بزييت الكاز ويسمونها فوانيس ،
يجعلونها صفاً واحداً يحيط بالمنارة من جهاتها الأربع ، وفوق
الحلق قبة قائمة على أربعة أعمدة ، وفي أطراف المنارة من
جهاتها الأربع حجارة بارزة على قدر متساوٍ ، كالخطوط
العريضة من أدناها إلى أعلاها ، ويقسم كل برج عن الآخر
بمثل هذه الحجارة .

وقد كتب على قوس النافذه (الشباك في جهتها الشرقية
هذه الجملة : (صنعها قاهر بن علي بن قانت رحمه الله) ،
وقد تقدم أن هذا الرجل بنى المدرسة الشافعية سنة ٥٧٥ هـ ،
فيكون بناء المنارة في ذلك العهد .

ويوجد مثل هذه الكتابة بعينها في البرج الثاني من جهة الغرب ،
وفي أعلى المنارة من الجهة الشمالية الغربية حجر في داخل
المنارة ، نقش عليه كلمات منها : (الحمد لله رب العالمين
أما بعد فقد وضع هذه الشبكة المعلم ابراهيم) ، وهناك سطر
آخر لم تمكن قراءته .

وفي الطرف القبلي أمام هذه الكتابة نقش هذه الكلمات
(جدد هذه الشبكة العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج خليل

ابن الحاج محمد النطار عفا الله عنه وعن المؤمنين . (ولم أعثر على تاريخ لهذه المنارة ، ولا على شيء غير ما ذكرته ، مما أمكن الوقوف عليه لمن كلفته بقراءتها . ولكنني رأيت في مجلة العاديات ما هذه خلاصته : (أما الجامع فهو قديم جداً ، لأن مثذنته هي من سنة ٤٢٧ هـ ، وعليها كتابات لم نجد سبيلاً إلى استطلاعاتها كلها ولكن عرفنا أن الأولى منها بقلم ريحاني . ، والثانية التي في البرج الثالث هذا نصها : محمد بن قانت بن قاهر ابن علي ، والثالثة على البرج السابع وما يذكره التاريخ عن هذه المثذنة أنه في عهد الصليبيين ، وعن أمرهم كان قد علق الناقوس فوقها ، وكان هذا الحكم قد أصدر في شأن مثذنة حلب أيضاً ، ثم ألغي كلا الأمرين ، ورجع الحق إلى نصابه) .

هذا ما ذكره أصحاب هذه المجلة ، والعهدة عليهم لأنني لم اتول قراءة المکتوب على المنارة بنفسي ، ولم أجد تاريخاً ذكر أنها بنيت سنة ٤٢٧ هـ ، ولا علق عليها صليب .

ولكن جماعة من الفرنسيين وغيرهم توهموا أن هذه
المنارة من بناء الصليبيين، وحجتهم في ذلك النقش المرسوم
على البرج الثاني، وقد تبين أن الكتابة التي عليه، وعلى
غيره اسلامية، عربية، وبما لا شك فيه أنا نقشت في
زمن بناء المنارة، وقد تقدم أن باني المنارة هو الذي بنى
المدرسة سنة ٥٧٥ هـ فلا مسأغ للشك، أو التوهم، فالمنارة
والجامع بوضعه الحاضر إسلاميان، عربيان، من أساسهما إلى
رأسهما، ما عدا الجدار الشرقي الذي وراءه المراحيض
فانه قديم.

ورأيت في الجزء الأول من (تاريخ خلاصة الأثر في
أعيان القرن الحادي عشر للمحيي ^(١)) في ترجمة الشيخ
أحمد بن محمد القادري الحموي الجيلاني، أنه بنى جامع
المعرة في جملة ما بناء، ولكن لم يفصل ما هو المبنى، وكانت
وفاة المذكور سنة ١٠٣٠ هـ.

أما ماء المسجد فيخرج من رَكِيَّة عميقة، يسمونها ساطورة،

(١) المحي : خلاصة الأثر ١ : ٢٩٣ (ج)

بالدلاء على دولاب شبيه بدواليب البساتين السابق ذكرها ،
ويسيل في ساقية على الجدار الذي يصل بين الجامع وبين
الركبة ، ثم يصب في خزان كبير قبلي المراحيض إلى الغرب
وهي تبلغ واحداً وعشرين مرحاضاً ، ومنه يملأ المتوضئون
الماء بأباريق من فخار بواسطة حنفيتين ، ومنه يسيل إلى
الحاصل الذي في جدار المسجد ، ثم إلى حنفية كيوان ، ثم
إلى البركة ، وإذا تغير من الوسخ أسيل إلى الحديقة كما ذكرنا .
وقد أحدث المتأخرون في الجهة الشرقية الشمالية من
الحرم القبلي ، مكاناً يتوضأ منه الناس ، بدلاً من حنفية
كانت في جداره بين البابين الأخيرين من جهة الشرق ، فوضعوا
حنفيات متعددة يسيل منها الماء للتوضؤ ، وجعلوا تحتها
ساقية على طول المحل ، ينزل عليها الماء المستعمل ، ثم يسيل
إلى المراحيض .

ولهذا الجامع أوقاف كثيرة ، يقوم بها متول ، تعيينه دائرة .
الأوقاف ، وجاب يجي غلاتها ورعيها ، ويقال : إنها كانت
كثيرة ، ثم عبثت بها أيدي الخونة كغيرها من الأوقاف ، فلم
يبق إلا هذا .

عدد	
٨٢	دكان في المعرة
٢٦	دار
١٧	كرم
٣٤	أرض
٤	أرض مغروسة زيتونا
٥٥	أحكار
٣٠٠	جفنة كرم في كفر قلا، وهي مزرعة في كَفر رُوما
١	نصف بيت في كفر روما
	ربع الجب في صفة الحاكورة
	نصف حاكورة العوسجية

مسجد الشيخ عطا:

ومن المساجد المشهورة مسجد الشيخ عطا ، وهو في الجهة الغربية من منتصف البلدة ، ولم يكن في سنة ١٣١٩ هـ شيء من الابنية ، بينه وبين جبانة بني الجندي والمقابر الواقعة غربي البلدة ، وهو في نَشْر من الأرض ، يحده من

الغرب طريق يمر من المحلة الشمالية من جنوبي العنبر « الأنبار » إلى المحلة القبليّة الغربيّة ، ومن الشمال طريق أخذ من الجبانات المذكورة إلى السوق ، ومن الشرق هذه الطريق ، وأبنيّة حدثت في هذا العهد وكان أمامه من جهة الشرق الجنوبي « حَيْر » يمتد إلى جهة مدفن أبي العلاء ، وليس فيه عمارة مطلقاً ، ثم أخذ الناس يبنون فيه دوراً بعد سنة ١٣١٠ هـ . وهذا المسجد يصعد إلى بابه من الشرق ببضع درجات ، يدخل منه إلى ساحة طويلة ، فيها بئر ماء ، بينها وبين الحرم قبر عليه شعر تركي مؤرخ سنة ١١٩٣ هـ يقال : إن فيه رجلاً باشا من الترك ويليّه قبور مئذنة ، لم نعلم أصحابها ولا تاريخها ، وعن يسار الداخل من باب الساحة منارة ، منقوش عليها من الجهة الغربيّة كلمات ، أمكننا أن نقرأ منها هذه : « لما كان بتاريخ شهر شعبان المعظم . . بناء هذه المنارة الفقير نجم الدين سنة ٧٥٥ هـ » .

ثم يلي المنارة من الجنوب والغرب غرفة فيها قبران : أحدهما للشيخ قدور الكيّال ، والثاني لأبيه ، ثم يليها الحرم في جنوبي الساحة والقبور والغرف .

ويزعم الناس أنه فيه قبر عطاء الله بن أبي رباح الصحابي
وأخذ عنهم أصحاب مجلة العاديات ، فقالوا في الكلام على
المعرة : وفيها جامع فيه غار يشتمل على قبر عطاء الله بن أبي رباح
حامل لواء النبي ...

وهذا القول باطل من وجوه كثيرة : منها أن عطاء ولد في
آخر خلافة عثمان ، وتوفي في مكة سنة ١١٥ هـ أو سنة ١١٤ هـ أو
سنة ١١٧ هـ كما ذكره النووي في تهذيب الأسماء^(١) ، فليس بصحابي
ولا حمل لواء النبي ولا دفن في المعرة ، وليس قبره في غار ، ولا في
المسجد المذكور غار أيضاً .

وأظن أن عطاء هذا هو باني المسجد ، أو رجل صالح دفن
فيه ، أو كان يقيم فيه ، ويؤيد هذا أنه مشهور بمقام الشيخ
عطاء ، وما عرف أن أحداً من المتقدمين يلقب أحداً من
الصحابة بشيخ .

ومنها مسجد يُوشع بن نُون (ص) ، وهو في جنوبي المدينة

(١) محيي الدين النووي : تهذيب الأسماء واللغات ٣٣٣ (ج) .

الشرقي ، وليس في عهدنا هذا بناء في شرقيه ولا جنوبيه إلا قليلا ، وفي كلتا الجهتين آثار أبنية في الأرض ظاهرة .

ولهذا المسجد باب من جهة الغرب يدخل منه إلى ساحة صغيرة في صدرها ، مقابل الباب صُفَّة كالا يوان ، وفي طرف الباب منارة ، وفي الجهة الشمالية من الساحة بناء يقال : إن فيه قبر يوشع ، ويليه من الجهة الغربية غرفة ، اتخذها بعض القراء البصرياء مكتبا لتعليم القرآن ، وفي الجهة الجنوبية حرم المسجد ، وبين الحرم من الجهة الشرقية والا يوان مدخل إلى المراحيض ، وأمامها ساحة تشبه الحديقة ، فيها بعض شجيرات ، والناس يعتقدون أن يوشع عليه السلام مدفون في هذا القبر ، وشايعهم بعض المؤرخين الذين يتلقفون الأخبار من العامة .

وأكثر المؤرخين على أن يوشع دفن في أرض ميراثه ، قيل : في نابلس وقيل : في ثمنة سارح في جنوبي نابلس .

قال ابن الشَّحْنَة ^(١) : وفي معرة النعمان فيما زعموا قبر يوشع بن نون عليه السلام ، في مشهد هناك ، جدد عمارته الملك الظاهر غياث الدين غازي ، ووقف عليه بالمعرة وقفا

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٩٨ .

وهو يزار ، ولما خرج الملك المعظم فخر الدين توران شاه
من حبس مصر ، اشترى له بالمعرة أرضا ، ووقفها عليه ،
وفوق باب هذا المسجد حجر مكتوب عليه أن بانيه غياث
الدين غازي سنة ٦٠٤ هـ .

وقال ابن سعيد المغربي في تاريخه : إن يوشع مدفون
في المعرة .

وقد تقدم عن صبح الأعشى أن قبر يوشع داخل المعرة ،
وقال ياقوت : وفي جانب سورها من قبل البلد " قبر يوشع
فيما قيل ، والصحيح أنه بأرض نابلس . وقد زار المعرة الشيخ
أمين الجندي الحصي ، فلما دخل مقام سيدنا يوشع (ص) قال
قصيدة يمدحه فيها مطلعها :

قلبي لشمس جمال حسنك مطلع افهل يرى فيه لغيرك موضعُ
وفيها يقول :

مالي إليك وسيلةٌ في نيل ما أملتُهُ الا نبيك يوشع
ويقول :

كف به أهل المعرة قد نجوا من هول كل معرة تُتوقع

(١) لعله قبلي البلدة لأنه واقع في طرفها القبلي كما ذكرنا (ج) .

وقد جرت عادة المعريين في تهدننا أن يجتمعوا في هذا المسجد في أوقات معينة ، منها يوم المولد النبوي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل سنة ، فانهم يجتمعون بعد صلاة الظهر من اليوم المذكور في الجامع الكبير العمري لاستماع قصة المولد ، وبعد انتهائها فيه يجتمعون في هذا المسجد لسماعها أيضاً ، وبعد انتهائها يوزع على الحاضرين صرر فيها ملابس ، ثم ينصرفون . ومنها : ليلة نصف شعبان من كل سنة ، فانهم يخرجون من الجامع الكبير بعد صلاة العشاء ، وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير في الطريق من الجامع إلى هذا المسجد ، فيزورون المقام ، ثم ينصرفون كما جاءوا إلى مقام أؤيس القرني ^(١) ، وفي يوم نصف شعبان يطبخون أرزاً ومعه طعام آخر ، ويطعمون الفقراء منه ، ويوزعون قسماً منه على الفقراء وقسماً على فريق من الأغنياء للتبرك به .

(١) هو أؤيس بن عامر ، من بني قنّان ، كان أحد العباد المقدمين من التابعين ، أصله من اليمن كان يسكن القفار والرومال ، ووفد على عمر بن الخطاب ، ثم سكن الكوفة ، وشهد وقعة صفين مع علي ابن أبي طالب ، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها (ملخصة عن الأعلام للزركلي ١ : ٢٧٥) .

ولهذا المسجد أوقاف كثيرة ، كان ينفق عليه من رعيها ،
ثم أصبحت نهباً مقسما بين المتولين والمتغلبين ، فلم يبق إلا
النَّزْر اليسير منها :

- ثلث مزرعة دير دورين .
- وربع فدان بيد أهالي كفر روما .
- وثلث مزرعة ترنله بيد أهل كَفَرُ رُومًا .
- جميع مزرعة كفر قنا في كفر روما .
- أراضي بالخمسة في كفر روما .
- ثلث مزرعة معرة بيطر في قرية حاس .
- ثلث مزرعة أبي مكى في قرية جَرَجَنَاز .
- ثلث مزرعة معران .
- فدانان في كفر يعليل ضايعة ، وهي بيد أهل جرجناز .
- ربع مزرعة كفر ناول ضايعة ، وهي بيد أهل الدير .
- جميع مزرعة جامع خرازين .
- سدس مزرعة صهيان ضايعة .
- نصف قرية تَلْ مَنْس .

- أرض في بسوقلا مع أهل تل منس .
- ثلث مزرعة تل جراد في الروج .
- ثلث مزرعة داجرة في قرية معر شورين .
- أرض سلم الرجم بقرب قرية معر شورين .
- ثلثا مزرعة بليصا .
- خمس مزرعة السقيعة قريباً من الصرمان .
- ثمانية فدادين في قرية كفرنبيل .
- أرض عجم في قرية الفطيرة .
- أرض زيتون في معر بلت .
- أرض في باب إيللا .
- أرض زيتون في قرية جبالا .
- شجر زيتون في قرية سجننا .
- أرض في قرية معر زيتا .
- زيتون في قرية معر شمشة .
- مزرعة رجم الصنف قرب قرية الغدقة .
- نصف مزرعة تل جبرين .

- أرض في سته ضايعة .
- بستان الزعكل في المعرة بيد بني العظم .
- حقل الجورة ضايعة .
- حَيْر في دار السلطان في المعرة ضايعة .
- راية العمود في المعرة ضايعة .
- أرض وادي بنا في المعرة .
- حير ابراهيم التركماني في المعرة ضائع
- أرض حقل السواد بالمعرة ضائعة .
- حائران في البرّيج .
- أرض قرب قل سريج .
- أرض في وادي البيطار .
- حصة الباسليق .
- أرض في الباسليق .
- حقل الشمس ..
- سهم الفستقة .
- أرض جريا .

حائر القبر .

حوائر حارة الشهابية .

أرض عند الشيخ حمدان .

سدس ثلاث قطع .

والظاهر أن كثيراً من الأوقاف استباحها جماعة من المتغلبين ،
فغيروا أسماءها ، فضاعت على الوقف .

وقد رأيت كتاباً من أمير الحاج إبراهيم والي الشام مؤرخاً
في ١٩ صفر سنة ١٢٠٥ هـ ، إلى متسلم المعرة عبد القادر بك ،
يذكر فيه أن لوقف سيدنا يوشع معيناً في بعض مزارع الميري ،
في كل سنة تسعة مكايك حنطة بكييل الحاصل ، ويأمره فيه
أن يدفعها إلى السيد محمد الجندي ^(١) ، وأن لا يتخلف عن
دفعها في كل سنة .

ورأيت فرماناً ^(٢) من السلطان العثماني مؤرخاً في جمادى
الآخرة سنة سبع ومائتين وألف ، يتضمن أن نصف تولية وقف

(١) هذا جد أبي (ج) .

(٢) أي أمراً ملكياً أو سلطانياً .

سيدنا يوشع والوظيفة المرتبة لها ، وهي آقجة ^(١) عدد ٢ كل يوم ، انحلت عن الشيخ ياسين ، ووجهت إلى أخيه الشيخ محمد خليفة شريكه في التولية .

مسجد أويس القرني ، أو السلطان أويس :

في شرقي المدينة على بعد نحو كيلو متر منها ، قريباً من الطريق الآخذة من حماة إلى حلب مسجد أو مقام ، وهو عبارة عن ساحة قوراء ^(٢) ، ممتدة من الغرب إلى الشرق تبلغ نحو (٢٢) متراً ، ومن الشمال إلى الجنوب نحو (١٧) متراً ، ويتصل بها من الغرب الركية المشهورة بركية العرائس ، وفي جنوبي الساحة إيوان كبير ، في غربيه غرفة كبيرة ، يزعمون أن فيها قبر أويس القرني ، وفي شرقيه غرفة ثانية ، وإلى جانبها من الشرق درج يصعد منه إلى سطح الايوان والغرفتين ، وطول هذا البناء طول الساحة ، وعرضه ستة أمتار ، والباب في جدار الساحة الشمالي مقابل الايوان ، وقد مات لبعض أمراء الترك ولد ، فدفنه في هذه الساحة ، فاقتفى الناس أثره في دفن

(١) هي قطعة من النقد التركي الصغير المتداول في ذلك العصر .

(٢) أي واسعة .

الصغار ، ثم الكبار ، حتى أصبحت الساحة مقبرة مكتظة بالقبور وقد توفيت لي ابنة صغيرة فدفنتها هناك ، وأهل المعرة يعظمون هذا المقام ، ويكثرون زيارته ، وتقريب القرابين والوفاء بالندور فيه ، لأنه في سهل فسيح يتصل به من الشرق بساتين من ورائها كروم العنب ، فيجمعون بين الطاعة والاسترواح .
وقد رأيت في تاج العروس ^(١) ما يفيد أن مقام أوتيس القرني بكفر الحمى بالقرب من زبيد .

والصحيح أن أويسا قتل في صفين مع علي بن أبي طالب ، كما ذكره ابن حجر في كتابه الإصابة ^(٢) ، وابن الأثير في (أسد الغابة) ^(٣) على أن هذا المقام ، أو المسجد كان ولا يزال مشهوراً في المعرة بأنه مقام السلطان ويس .

مسجد الشيخ محمد ، أو مقام الشيخ :

يزعم فريق من أهل المعرة أن فيه قبر الشيخ محمد الحمداني

(١) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٦١١ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ١ : ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ١ : ١٥١ ، ١٥٢ .

وهو مسجد قائم في الجهة الشرقية الشمالية من المدينة ، شمالي مسجد أَوَيْس القَرْنِي إلى الشرق ، بينها ما يقرب من كيلو متر ، وليس بينه وبين مدرسة ابن الوَزْدِي بناء في عصرنا الحاضر ، وحوله من الشمال والغرب قبور قديمة وحديثة ، وآثار أبلية قديمة ، وفي شماليه كروم ، وفيها أشجار من التين والرمان وغيرهما ، وفي جنوبيه فسحة فيها آثار قبور ينحدر منها إلى الطريق الموصلة إلى مسجد أويس ، وفي شرقيه فسحة ينحدر منها إلى طريق حلب المذكورة ، وقد كانت بعض قبور شرقي الطريق أيضاً ، فدرسها أصحاب الارضين ، وأضافوها إلى أراضيهم .

وهذا المسجد له باب صغير يتجه إلى القبلة ، يدخل منه إلى ساحة فسيحة ، في غربيها بئر ماء قديمة ، وتنتهي الساحة من الشمال إلى الشرق بدرج يصعد منه إلى القبة ، وهذه القبة فيها ضريح يقال : إن فيه الشيخ حمدان ، ولها نوافذ من جهاتها الأربع ، شباييكها من حجارة محكمة الصنع ، وأمامها من الجنوب رواق على قدر القبة .

وفي جنوبيها في آخر الساحة بما يلي الباب إيوان كبير ، له نوافذ من جهاته الثلاث ، شبائيكها من حجر أيضاً ، ويلي الايوان من الشرق درج يصعد منه إلى سطح الايوان ، والايوان متقدم كله على الباب .

وهذا المسجد يتخذة المقامرون والحشاشون وأرباب الدعارة ، مقرأ لهم في بعض الاحيان ، ويتخذة النساء متنزها لهن في الربيع والصيف والخريف يجتمعن فيه ويجمعن بين التزهر ووفاء الذنور وزيارة القبور .

ولم أقف على شيء يبين لي حقيقة الشيخ حمدان ، وهذا المسجد .

مسجد اليهودي :

في شمالي المدينة ، وآخر بناء منها في تلك الجهة .

جامع القيس :

جامع الفطرة :

جامع الشيخ محمد الرشيدي :

هو في شمالي المدينة الغربي ، وفي الشمال الشرقي من مصلى بني الجندي الواقع في شمال جباتهم ، وعند المنحدر الذي ينزل

منه إلى وادي الجنان من المدينة ، وقد كان موضعَ هذا المسجد أنقاض متراكمة مساوية للطريق ، ثم مرَّ رجل فقير بالمعرة ، وكان شديد الولوج بالتنقيب عن مقامات الصالحين ، فحفر هذا المكان ، وأزال ما كان فيه من الحجارة والتراب ، فأنكشف عن ساحة صغيرة فيها قبور ، وفي جنوبها جدار فيه محراب ، والبناء كله قديم ، محكم متقن ، وبينه وبين دور المدينة إلى الشرق نحو خمسمائة متر ، وإلى الجنوب حَيْر^(١) ينتهي ببناء قديم ، فيه قبة قديمة في دار قديمة ، يقال لها : دار الجندي ، وبابها يشبه باب الحمام أو المسجد ، ثم كشف في هذا العهد في جهة الدار الغربية عن آثار مسجد ، ووجد في غريبه قبر عبد الكريم الداودي المتقدم ذكره في الزاوية الداودية .

ولما فتحت الحكومة الطريق ما بين المعرة وأريحا ، وقع هذا المسجد شرقي الطريق الذاهب من هناك إلى جهة القلعة . وحول هذا المسجد آثار أبنية قديمة من الجنوب والشرق والشمال ، ولا يبعد أن يكون هناك سور للمدينة وباب الجنان .

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ٣١١ : الحير بالفتح شبه الحظيرة أو الحمى .

مسجد الشيخ محمود :

هو في المحلة الشمالية ، وهو اليوم عبارة عن بقعة مستطيلة مسورة بأربعة جُدر ، محاطة بالطرق الضيقة من جهاتها الأربع في وسطها قبور ، وليس لها سقف ، ولا تقام فيه صلاة .
وقد زرت المعرة سنة ١٣٦٦ هـ فوجدت هذا المسجد متهدماً ، وقد ذهب بعض حجارته ، وسيذهب الباقي منها ، لان دائرة الاوقاف هناك لا تعنى بالابنية العامرة ، فكيف بالمتهدمة .

جامع موسى بك :

هو في المحلة الشمالية أيضاً في الجهة الغربية .

جامع باكير أنفا

جامع الشيخ خليل

جامع السيد يوسف :

هو في المحلة القبلية ، وهو جامع صغير له باب من جهة القبلة ، يدخل منه إلى ساحة صغيرة ، ينزل منها بضع درجات إلى ساحة ، في شمالها إيوان ، وفي جنوبها الحرم . وهذا المسجد تقام فيه الصلوات أحياناً . وقد بناه السيد يوسف رئيس الاسرة

التي تنسب إليه في المعرة وسيأتي ذكره .
وهذا الجامع متصل بداره العظمى من الجهة الشرقية الجنوبية .

جامع زقاق رائم

جامع الشيخ محمد المصري:

هو في المحلة القبلية ، بالقرب من الشكنة ، في جنوبها من الغرب ، وفيه قبة تحتها قبر الشيخ محمد المصري ، وبجانبها غرفة فيها ضريح يقال : إن فيه عبد الله بن المغيرة ، وفيه قبور يقال : إنها لبعض الصحابة ، وهذا كله أصبح اليوم في ساحة من مسجد بناه رجل يقال له : مصطفى من بني الحصتين ، تقام الآن فيه الصلوات غير الجمعة .

جامع المعرسى

جامع الحابوسة

جامع الشيخ أبي بكر

جامع بني المنديل

جامع بني البر

جامع الشيخ ربيع

جامع بني الاصفقر

جامع نور الابصار

مسجد أبي العلاء :

وهو في المحلة القبليّة ، في غربيه طريق أخذ من الشمال الى جنوبيه ، وغربي هذا الطريق من الشمال حَيْر ينتهي بطريق يفصل بينه وبين حير آخر يسمى الحير الكبير ، وهذا ينتهي بِالْجَبَّانة الغربية .

وفي شمالي الحير الأول من الغرب مسجد الشيخ عطاء الله السابق ذكره ، وقد قدمنا أنه حدث فيه عُمران في عصرنا هذا . وفي شمالي مسجد أبي العلاء وشرقيه دور .

ولهذا المسجد باب صغير من الجهة الغربية ، يدخل منه إلى ساحة طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثمانية أمتار وسبعين سائمتراً ، وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ستة أمتار واثنين وثمانين سائمتراً ، وفي شمالي الساحة صُفّة مرتفعة نحو (٣٠) سائمتراً واصلة ما بين الجدار الغربي والمدفن الذي فيه الباب وعرضها (١٢٠) سائمتراً وفيها بعض الشجيرات .
٢٤

ويقابل هذا الباب الغرفة التي فيها قبر أبي العلاء ، ولها باب صغير يتجه الى الغرب ، وطول هذه الغرفة (٣،١٨) وعرضها (٢،٩٥) وفيها قبة ارتفاعها أربعة أمتار تقريباً .

وتحتها القبر وطوله (١،٢٥) وعرضه (٧٥) سانتيمتراً تقريباً وفوقه حجران قائمان مكتوب عليهما بالخط الكوفي وطول التي عند الرأس متر واحد .

ويتصل بالقبة من الجنوب غرفة صغيرة تزيد في طولها نحو متر عن الغرفة السابقة ، وعرضها نحو عرض الأولى ، وارتفاعها أقل بنحو متر ، وفيها شيخ بصير يقرأ الأبطال القرآن .

وفي جنوبي الساحة الأولى الخارجية مسجد طوله من الشرق الى الغرب (٦،٥٠) وعرضه من الشمال الى الجنوب (٥،٥٥) وفي جنوبي هذا المسجد من الغرب قبر طويل مكتوب عليه بالخط الكوفي ، استطعنا أن نقرأ من المكتوب عليه سورة الإخلاص .

وفي هذا المسجد محراب وليس فيه منبر ، وفي جداره الشرقي باب يخرج منه الى ساحة فسيحة ، طولها من الشمال الى الجنوب (١١،٧٥) ، وعرضها من الشرق الى الغرب

(٦٠٣٧) وفيها قبر طوله نحو مترين ، وارتفاع شاهدته نحو متر ، وقد كان فيها قبور كثيرة ، أخذ حجارتها جيرانها وكسروها ، وجعلوها في عمارتهم ، ولا يزال فيها القبر المذكور وآثار غيره . وفي الساحة المذكورة بئر ماء يتوضأ منه المصلون ، وفيها شجيرات من التين والرمان .

وأصل مسجد أبي العلاء ساحة من دور أهله عليها باب قديم صغير ، هكذا قال جمهور من المؤرخين .

وهذا الرسم الأول فيه صورة باب الغرفة ، وفي داخلها القبر مع شيء من الساحة الخارجية ، وباب الغرفة الثاني وشجرة في الساحة . والصور الرابع التي تليها صور الحجارة المكتوبة على قبر أبي العلاء وقد استعصى علينا قراءة بعضها ، فرغبنا إلى أحسن رجل بدمشق في عصرنا يحسن قراءة مثل هذه الآثار وهو مدير الآثار فيها ، فرسم لنا صورة ما استطاع قراءته منها وهي هكذا .

رقم (٢) الله لا إله إلا هو الحي القيوم .

رقم (٣) رحمة الله عليه .

رقم (٤) أبا العلاء بن عبد الله بن سليم ولعلها سليمان ،
وهذا الحجر هو الذي وضع فوق قبره الآن وحده .
رقم (٥) أبا العلاء بن سليمان رحمه الله تعالى . الثاني الخميس
ليال مضمو . . رمضان سنة . . وثلثين وخمسمائة .
هذا ما بينه لنا ويظهر في هذه الحجاره ، أن قبل لفظ الجلالة
في الرقم (٢) كلمة لم تفهم .
وفي أعلى رقم (٣) كتابة على شكل نصف دائرة ، لم تمكن
قراءتها .
وفي أعلى رقم (٤) كلمات محطمة لم تمكن قراءتها أيضاً ،
وأظن أن كلمة سليم فيها ، وهي سليمان .
وفي الرقم (٥) كلمات عسrf فهمها ، وما قيل : لفظ خمسمائة
أقرب ، إلى رسم ثمانين منه ، إلى رسم ثلثين .
وهذا التاريخ على علاته بعد وفاة أبي العلاء بكثير من الزمن
لأن أبا العلاء توفي سنة ٤٤٩ هـ .

فإما أن يكون هذا التاريخ لعمل القبر لا للوفاة ، ولكن
ذلك غير معروف ولا مألوف ، وإما أن يكون الحجر الذي

عليه تاريخ وفاة أبي العلاء قد فقد ، واستبدل بحجر عليه تاريخ
أحد أقربائه من بني عبد الله بن سليمان .

ولا يستبعد أن يكون الحجر الأصلي حطمه بعض المتورعين ،
لأن المعرة أتى عليها حين من الزمن كانت تعد فيه أبا العلاء
من الزنادقة والملحدين ، كما سيأتي في ترجمته عن ابن
الوردي وغيره .

أو أن يكون الحجر الأصلي باعه أحد الرعاع الجهلة ، أو
أخذه وحطمه ، وجعله في بناء داره .

وقد أخبرني بعض علماء حلب ، أنه زار المعرة ، ورأى
حجراً إلى جانب قبر أبي العلاء ، فادعى أنها شاهدة قبره ،
ورفع حجراً من القبر ووضع مكانه ، وبما لا شك فيه أن
ذلك الحجر الذي وضعه ليس الحجر الأصلي ، وقد فاتني أن
أسأله أي حجر هو ، ولكنني أعتقد أنه ذو الرقم (٥) لأن
خطه مخالف لخط الحجارة الباقية ، وعلى هذا يكون هذا الحجر
من قبر آخر ، والتاريخ لغير أبي العلاء .

وقد زار هذا القبر القفطي^(١) بعد الستمائة ، فرأى عليه
خُبَازَى يابسة ، وهو على غاية من الإهمال ، ورآه الذهبي^(٢)
بعد ذلك بمائة سنة ، فرآه كما رآه القفطي .

فاما أن يكون قبره كان مكشوفاً ، ثم بنيت عليه الغرفة
والقبة ، وإما أن يكون رأى الخبازى في ساحته ، لأن الغرفة
التي فيها القبر لا يعيش فيها نبات ، لأن الشمس لا تدخلها ،
وليس لها إلا باب صغير يتجه إلى الشمال ، وأرضها مفروشة
بالبلاط ، وزاره علاء الدين بن المظفر الوداعي سنة ٦٧٩ هـ

(١) هو علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي . عالم ، أديب ، مشارك في
النحو واللغة والفقه وعلم القرآن والحديث والأصول والمنطق والفلك
والهندسة وغير ذلك . ولد بمدينة قفط بمصر ، ونشأ بالقاهرة ، ورحل
إلى حلب وولي الوزارة فيها ، وتوفي بها . له تصانيف كثيرة في
عدة علوم .

(ملخصة عن معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٧ : ٢٦٣ ، ٢٦٤)

(٢) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركاني الأصل
ثم الدمشقي الذهبي . محدث ، مؤرخ . ولد بدمشق ، وسمع بحلب
وبنابلس وبمكة من جماعة ، وسمع منه خلق كثير ، وتوفي بدمشق .
له تصانيف كثيرة في الحديث والتاريخ .

(ملخصة عن معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٨ : ٢٨٩ — ٢٩١) .

فراه قد دثر ولصق بالأرض ، وهذا يؤيد أن البناء الذي فوق
القبر حادث ، وصفة البناء وأوضاعه تشهد لذلك .

وزعم صاحب (نهر الذهب) ^(١) أن هذين البيتين :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيره منه إلى الصدف
مكتوبان على قبر أبي العلاء . وهذا غير صحيح إذ ليس على
القبر شيء منها وإنما هما مكتوبان في قطعة من ورق ، كتبها
استاذنا الحاج أبو بكر صدقي الديوريكي ، حين كان معلماً
للمكتب الرشدي في المعرة في نحو سنة ١٣١٣ هـ ، وفيهما تحريف
وقد صححتهما ، وكتبتهما على قطعة صغيرة بقلم رصاص في
السنة المذكورة بخطي .

وقد ذكر صاحب (الروضتين) ^(٢) هذين البيتين :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها فردها غيره منه إلى الصدف
للأمير شبل الدولة مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري قاهلها

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ١ : ٤١٨ (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ص ٢٦ (ج) .

في الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن اسحق الطوسي المتوفى
سنة ٤٨٥ هـ .

وذكرهما في (الكامل)^(١) وروايته لؤلؤة يتيمة . عزت فلم
تعرف ورواهما له الأبشيهي^(٢) في (المستطرف) : وروايته لؤلؤة
يتيمة عزت ولم تعرف .. فردها عندما عزت إلى الصدف .

كيفية بناء ضريح أبي العلاء الجبيري :

في نحو سنة ١٣٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٥ هـ عازمت الحكومة
السورية على بناء ضريح لأبي العلاء المعري ، ثم وقفت عن
العمل بسبب نشوب الثورة السورية .

فلما استقرت الأمور أثار أحد النواب هذه القضية في
الجلس النيابي المنعقد في سنة ١٣٥٢ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٣ م ،
واقترح على الحكومة أن تطبع مجموعة من الطوابع البريدية
باسم أبي العلاء المعري في عهد أول جمهورية سورية ، وحاول
بعض النواب بمالأة للحكومة ، أرجاء البحث في هذه القضية

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ٨٥ (ج) .

(٢) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستطرف ٢ : ٣٤٠ .

وتسويقها ، ولكن النواب الآخريين اشتدوا على الحكومة ، فأقرت هذا الاقتراح ، وظهرت الطوابع في سنة ١٣٥٣ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٤ م ، ونقش عليها رسم أبي العلاء ، وبيعت في عهد قليل ثم فترت عزيمة الحكومة ، وقام فريق من الأدباء يطالبونها بإنجاز هذا العمل ، فعهدت إلى الموسيو ايكوشار المهندس المعماري الفرنسي ، ان يضع شكلاً للقبر والبناء الذي يحيط به ، يكون على طراز المدارس الاسلامية القديمة ، فاتهم ذلك في أكثر من عام ، وجعل موضعاً للمكتبة بجانب الضريح على نمط الأبنية في القرن الرابع الهجري ، بحيث يرى منها الضريح القديم . وقد أزيلت الدور التي كانت تكتنف مسجد أبي العلاء من الغرب والشمال

وقد شرع في هدم المسجد والضريح المذكورين في ٦ آب سنة ١٩٣٨ م ، وقد زرت المعرة في ذلك العهد ، ورأيت العمال يهدمون حجارة الجدران فوق القبر ، فتتحطم الحجارة من الطرفين ، فاعلمت رئيس البلدية بذلك ، فأوصاهم بأن يغمروا القبر بالتراب حتى لا تنهشم حجارته .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم السبت ، وهو اليوم السابع من شوال سنة ١٣٥٨ هـ ، والثامن عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م ، وضع الحجر الاساسي من البناء المذكور ، بحضور جماعة من الحكومة السورية ، رئيس مجلس المديرين ومدير العدلية ، ومندوب المفوض السامي الموسيو هوتكلوك ، ومستشار الداخلية الموسيو فوكنو ، ومحافظ مدينة حلب ، ومندوب المفوض فيها ، ورئيس البلدية والنافعة ومدير الشرطة فيها وبعض رجال الصحافة .

وخطب الموسيو هوتكلوك خطبة أعرب فيها عن سروره باشتراكه في هذه الحفلة ، وذكر شهرة أبي العلاء ، وأنه كان أبداع مظهر للذكاء العربي .

ثم أذاعت دائرة المطبوعات في الجمهورية السورية في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٨ هـ و ١٩ كانون الاول سنة ١٩٣٩ م بلاغاً ذكرت فيه أن قد تقرر تأسيس مكتبة في معرة النعمان خاصة بأبي العلاء ، تقام بجانب ضريحه ، وتحتوي على مؤلفاته ، وما ألف فيه في اللغة العربية وغيرها ، لتكون مصدراً يرجع

إليه من يود دراسة أدبه وفلسفته ، وأن بلدية المعرة تتقبل بالشكر كل ما يهدى إلى هذه المكتبة من كتب مطبوعة ، أو مخطوطة ، أو مجلات ، أو غيرها ، وتسجل كل كتاب باسم مهديه ، وقد أهدي لها بعض كتب من نواح مختلفة .

وقد تم بناء ضريح أبي العلاء ومسجده في سنة ، ولكن البناء جاء على شكل يمقته كل من رآه ، وينقم على مهندسه الذي رسم خططه ، والحكومة التي وافقته في البناء على شكله . ولما أكثر الناس لوم الحكومة وانتقادها من أجله ، غيرت خريطة البناء وهدمته ، ثم بنته على شكل جديد ، رآه الناس حسناً بالنسبة للبناء السابق ، ولكنها لم تقم فيه مكتبة ، ولم تجمع كتباً .

ولعل الحكمة في ذلك هي أن الله تعالى قدر على أبي العلاء أن لا يخلو من منقص في حياته وبعد موته ^(١) .

(١) أعلن الدكتور طه حسين باسم الحكومة المصرية في المهرجان الألفي لأبي العلاء الميري (سنة ١٩٤٤ م) تبرعها بالعين من الجنيحات ، فقال : ثم رأيت معر أن تكون مشاركتها في إحياء ذكرى أبي العلاء متصلة بشخصه وبلده ، وقد علمت أن سورية قد جددت

المهرجان الذي لا يفي لأبي العلاء :

وفي سنة ١٩٤٤ م الموافقة لسنة ١٣٦٣ هـ قرر المجمع العلمي العربي في دمشق ، إقامة مهرجان لمرور ألف سنة على ميلاد أبي العلاء المعري ، وخصصت حكومة دمشق لذلك أربعين

قبر الشيخ وأقامت إلى جانبه مكتبة ، فقررت أن تشارك في هذه المكتبة ، وكلفني وزير المعارف أن أعلن أن الحكومة المصرية تتبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السودانية بعض ما تحتاج إليه هذه المكتبة من الكتب .

وقد وضع هذا المبلغ باسم المرحوم الأستاذ خليل مردم الأمين العام للمجمع العلمي العربي في أحد المصارف بدمشق ، وقد كلفني الأستاذ المرحوم بأن أبتاع مجموعة كبيرة من أمهات الكتب في الأدب واللغة والتاريخ والتفسير والحديث والفقه الخ . . . ففعلت بتنفيذ ذلك ، وأرسلت الكتب إلى المعرة ، فوضعت في بناء ضريح أبي العلاء ، وانتفع بها جمهور غفير من طلاب العلم والأدب ، لما ألحق ذلك البناء بوزارة الثقافة والإرشاد القومي سنة ١٩٥٨ م ، وأطلق عليه اسم المركز الثقافي العربي .

وزرت هذا المركز في كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م ، فوجدته غاصاً بالمطالعين ، وشاهدت رئيسه السيد عبد العزيز دقّاق يبذل الجهد لازدهار هذا المركز وتقدمه .

وقام هذا المركز بنشاط طيب في خلال عام ١٩٦٢ م ، فزادت كتبه فبلغت ٣١٧٧ ، وبلغ عدد رواد المركز ١٧١٤٣ ، وعدد الندوات والمحاضرات التي أقيمت فيه ١٤ .

ألف ليرة سورية ، ودعا المجمع جماعة من أعضائه وغيرهم ،
للاشتراك بهذا الاحتفاء ، فلبى الدعوة فريق ، وتخلف فريق
آخر لمعاذر مختلفة . وقد ابتدأت الحفلة في الساعة الخامسة من
يوم الاثنين ٨ شوال سنة ١٣٦٣ هـ ٢٥ أيلول سنة ١٩٤٤ م
في الجامعة السورية في دمشق .

فافتتح الحفلة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي
بكلمة نوه فيها بذكر المعري ، ثم تصدى إلى الترحيب بالضيوف
والثناء عليهم .

ثم قال الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف في
مصر كلمة في الفصول والغايات ، وقد خصص الوقت الذي بعده
للسيد حسن حسني عبد الوهاب وزير القلم في تونس ، ولكنه
لم يحضر .

ثم قال الأستاذ مهدي الجواهري ، ممثل وزارة المعارف في
العراق قصيدة ، عدد أبياتها خمسة وثمانون بيتاً .
وتلاه المستشرق الأستاذ وليم مرسيه ممثل جامعة الجزائر ،
فقال كلمة في موقف الاسلام من العالم الحيواني .

ثم قال بدوي الجبل قصيدة جمع فيها بين مدح أبي العلاء
ومدح رئيس الجمهورية ، وعدد أياتها نحو تسعين : وهي معدة
لللقاء في مدينة اللاذقية ، ولكنها قدمت عن وقتها لما فيها من
مدح رئيس الجمهورية ، ولتغيب أحد الخطباء وهو حسن حسني ،
وقد أعيدت في اللاذقية في الزمان والمكان المخصصين بها .

وفي اليوم الثاني الثلاثاء ٢٦ ايلول سنة ١٩٤٤ م ، ابتدأت
الحفلة الثانية في الساعة الخامسة في مدرج الجامعة السورية
فالتقى السيد احمد أمين ممثل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
ومجمع فؤاد الأول كلمة عنوانها سلطان العقل في نظر المعري
وتلاه محمد اسعاف النشاشيبي من علماء القدس ، فقال كلمة
عنوانها التفاؤل والاثريّة عند المعري . ثم تليت قصيدة للسيد
محمد البزم الدمشقي . ثم قال المستشرق الأستاذ ألفريد غليوم
من جامعة او كسفورد ، كلمة عنوانها المعري في نظر المستشرقين
وقد خصص وقت للأستاذ رضا الشيباني رئيس مجلس النواب
العراقي ليقول كلمة عنوانها لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي ،
ولكنه لم يحضر من العراق .

وفي يوم الأربعاء ٢٧ ايلول سنة ١٩٤٤ م ذهبت الوفد إلى المعرة ، وقد تليت على قبر أبي العلاء في المعرة قصيدة الأستاذ معروف الرصافي العراقي ، عنوانها شاعر البشر . وقد وصل الوفد إلى المعرة في الساعة السادسة من اليوم المذكور وبعد أن استراحوا من عناء السفر ، ذهبوا إلى قبر أبي العلاء ، فابتدئت الحفلة بقراءة عشر من القرآن الكريم ، أولها « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل » ثم قال الدكتور طه حسين كلمة ابتدأها بأبيات من قصيدة أبي العلاء غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

ثم تليت قصيدة الرصافي . ثم ألقى السيد مهدي البصير كلمة عنوانها على قبر أبي العلاء . ثم ذهبوا إلى مأدبة أعدها لهم السيد حكمة الحراكي ، ثم ساروا ليلاً إلى حلب .

وفي يوم الخميس ٢٨ ايلول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة الرابعة في مدرسة التجهيز في حلب في الساعة الخامسة . وقد خصصت أول ساعة للأستاذ أحمد حسن الزيات المصري ، ليقول كلمة موضوعها فن المعري ، ولكنه لم يحضر ، فقال

ابراهيم عبد القادر المازني ممثل الصحافة المصرية ، كلمة عنوانها
بحث أدبي عن أبي العلاء المعري . .

ثم تلا الأستاذ سامي الكيالي كلمة موضوعها الاضطراب
السياسي في عصر أبي العلاء وأثره في بيئته وشعره ، ثم قال
الأستاذ طه الراوي ممثل وزارة المعارف العراقية كلمة موضوعها
سر الخلود في شعر المعري . ثم قال الأستاذ عمر أبو ريشة
قصيدة عنوانها الفيلسوف .

وفي يوم الجمعة ٢٩ ايلول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة الخامسة
في فندق كازينو في اللاذقية . فقال الأستاذ عبد الحميد العبادي
عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، كلمة عنوانها الناحية
التاريخية في أدب المعري . ثم قال الأستاذ جميل صليبا كلمة
عنوانها فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء . ثم قال الأستاذ بدوي
الجميل قصيدته السابق ذكرها . ثم قال الأستاذ محمد الشريقي
كلمة موضوعها أسلوب المعري . ثم قال الأستاذ أنيس الخوري
المقدسسي ممثل الجامعة الأميركية في بيروت كلمة موضوعها الروح
العلائية في أدبنا الحديث .

وفي يوم الأحد في ١ تشرين الأول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة السادسة في الجامعة السورية في دمشق ، وقد كان الوقت معيناً لخمس خطباء ، ولكن زيد عليهم أكثر من هذا العدد ، فقال الدكتور عبد الوهاب عزام كلمة عنوانها اللزوميات متى نظمت وكيف رتبت ، ثم قرئت كلمة كنت أعددتها لهذه الحفلة ، موضوعها دين أبي العلاء ، وقد لقيت قبولا من السامعين أكثر من كل ما قيل في هذا الاحتفاء ، لأنهم أدركوا أن أكثر الخطباء يتعمد غمز أبي العلاء ليظهر على أكتافه ، وقد ادحضت حججه وأبطلت مزاعمهم ، وبينت لهم نواحي من أبي العلاء كانوا لا يعلمونها . ثم قال الشيخ عبد القادر المغربي كلمة موجزة من خطبة موضوعها شيخ المعرة والشيخ الدرا . ثم قال الأستاذ هنري لاووست حكمة عنوانها اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء . ثم قال الأستاذ شفيق جبري قصيدة .

وختم رئيس المجمع الاحتفال بكلمة أثنى فيها على الوفود والحكومة السورية ، وانتهى الاحتفال ، وهذا الذي ذكرنا هو المقرر في برنامج الحفلة في الأصل ، ولكن القائمين بها لم يستطيعوا أن يراعوه فزادوا في كل حفلة أو نقصوا .

وقد زادوا في هذه الحفلة الاخيرة كلمة لمندوب وزارة المعارف اللبنانية ، وكلمة أخرى لجهان الموصلي ، أنكرت فيها على أبي العلاء قسوته على المرأة وارتيابه. فيها ، ثم أقامت له العذر في ذلك ، وكلمة ثالثة لعارف العارف ^(١) .

(١) وهذه المناسبة رأيت من الفائدة ادراج كلمة الدكتور جميل صليبا في وصف حفلة افتتاح مهرجان أبي العلاء فقال : لم يكد الجمع العلمي العربي يعزم على إقامة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ، حتى ابتداء الاستعداد له في كل مكان . فعهد الجمع إلى لجنته الإدارية في تنظيم المهرجان وتحديد أمكنته ومواقيته وحفلاته ، فرأت أن يدوم المهرجان اسبوعاً كاملاً من ٢٥ ايلول إلى ١ تشرين الأول ١٩٤٤ م ، وان تشمل حفلاته مدن دمشق وحمص وحماة ومعرة النعمان وحلب واللاذقية . ودعا الجمع أعضاء العاملين والمراسلين إلى الاشتراك في المهرجان ، وكلف بعضهم اعداد كلمة تلقى في الحفلات الخطابية ودعت وزارة المعارف السورية وزراء المعارف في الدول العربية . فأرسلت الدعوة إلى وزراء المعارف في مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، واليمن . ودعي أيضاً مجمع فؤاد الأول للغة العربية (اليوم مجمع اللغة العربية) ، ورؤساء الجامعات العربية ، وغيرها وبعض المستشرقين ، ونقباء الصحف في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة ، ويمثلو محطات الاذاعة في سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، فلبى كثيرون منهم دعوة المجمع .

وقد عرض لي عائق منعي من الاشتراك مع الوفد في

- ولم يكن موعد المهرجان ، حتى توافد المدعوون إلى دمشق ، وحلوا ضيوفاً على المجمع ، والتقى أدباء مصر والعراق وفلسطين وشرقي الأردن وأدباء سورية ولبنان في مكان واحد ، وكان هذا الاجتماع أعظم سوق أدبية شهدتها دمشق في تاريخها .

وكان وفد مصر مؤلفاً من السادة الدكتور طه حسين ، والأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ عبد الحميد العبادي ، والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والأستاذ أحمد الشائب . فقدموا إلى المجمع فور وصولهم هدية وزارة المعارف المصرية ، وهي « كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء » الذي طبعته مصر تخليداً لذكرى المهرجان .

وكان وفد العراق مؤلفاً من السادة الأستاذ طه الراي ، والأستاذ مهدي الجواهري ، والدكتور مهدي البصير

وحضر من فلسطين الأستاذ اسعاف النشاشيبي . ومن لبنان السادة فؤاد افرايم البستاني ، والدكتور عارف العارف ، والأستاذ أنيس النصولي ، والأستاذ أنيس الجوري المقدسي ، ورئيس جامعة القديس يوسف ، والأستاذ رثيف خوري . ومن شرق الأردن الأستاذان أديب وهبة ومحمد الشريقي . ومن إيران الأستاذ عباس اقبال . ومن المستشرقين الأستاذان ألفريد غليوم وهنري لاوست . ومن القدس السيد عزمي النشاشيبي ممثلاً للإذاعة والمطبوعات ، فضلاً عن الوفود الأخرى التي مثلت الأوساط العلمية في العاصمة والمدن السورية ، من سيأتي ذكر أكثرهم في الخطباء .

الرحلة إلى حمص ، فحماة ، فالمعرة ، ، فحلب ، فاللاذقية ،

وبعد ررب الوفود في اليوم الأول من أيام المهرجان فخامة رئيس الجمهورية ، ومجلس النواب ، ودار الحكومة . والقي الدكتور طه حسين في مجلس النواب كلمة باسم الوفد المصري ، أعرب بها عن اعتراف مصر بفضل سورية ، لاحتفائها بذكرى أبي العلاء . قال : « وكان طبيعياً أن تقوم سورية بهذا المهرجان الألفي ، فتدعو إليه سائر بلدان العالم العربي . فهي قد أعطت الأدب العربي أكبر شعرائه ولكن أعظم شاعر انساني أنتجته سورية ، وحق لها أن تفخر به على العالم كله ، هو أبو العلاء . فلا غرو إذا سبقت العالم كله إلى الاحتفاء بذكره » فرد عليه رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري بكلمة أشار بها إلى فضل مصر على العالم العربي بأدبائها المعاصرين ومفكرينها ، الذين كان لهم أعظم الأثر في احياء تراثنا الأدبي وفوجيننا الفكري .

ثم أقام المجمع مأدبة غداء في فندق اوريان بالاس أطلق عليها اسم « المائدة للعلائية » طبخ بها الطعام وعولج على شرط أبي العلاء ، لم يكن فيه لحم ولا سمن ولا بيض ولا لبن .

وكان موعد الحفلة الخطابية الأولى في الساعة الخامسة بعد الظهر في الجامعة السورية (اليوم جامعة دمشق) ، دعا إليها رئيس المجمع العلمي الأستاذ محمد كرد علي وزراء دمشق ، وعلماءها ، وأدباءها ، وأديباتها ، ووجهاءها ، وكبار موظفيها ، وأساتذتها . وأعد في بهو الجامعة للوفود وأعضاء المجمع سدة خاصة حول منبر الخطابة . وربط المنبر بمحطة الاذاعة بدمشق . واتخذت جميع الوسائل الفنية لتسجيل —

ولكنني سمعت من كثير من رجال الوفد ، ومن كان معهم في

— الخطب واذاعتها من محطة الشرق الأدنى . ونصبت علامة المهرجان في صدر البهوبين الأعلام السورية . وأعلام الدول العربية . وعرضت آثار أبي العلاء وما كتب عنه في خزائن خاصة عند مدخل البهو ، كما عرضت بعض تماثيل وصور لأبي العلاء صنعها عدد من الفنانين وكانت صدور أعضاء الوفود وأعضاء المجمع مزينة بعلامة المهرجان ، وكانت موسيقى الدرك السوري تستقبل كبار المدعوين بأنغامها . ولما كان موعد الحفلة أقبل فخامة رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) بحاشيته الرسمية ، فجلس على سدة المهرجان بين وفود البلاد العربية وأعضاء المجمع . وبدأت الحفلة بالنشيد السوري . وكان برافجها على الوجه الآتي : ١ — كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) ٢ — كلمة وزير المعارف (السيد نصوحى البخاري) ٣ — كلمة رئيس المجمع العلمي العربي (السيد محمد كرد علي) ٤ — كلمة الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف المصرية وكان عنوانها (الفصول والغايات) ٥ — قصيدة الأستاذ مهدي الجواهري يمثل وزارة المعارف العراقية وكانت بعنوان (الفيلسوف الحر) ٦ — كلمة الأستاذ أحمد الشايب مندوب جامعة فؤاد الأول (اليوم جامعة القاهرة) وكانت بعنوان أبو العلاء المعري شاعر أم فيلسوف (انتهت كلمة الدكتور صليبا المنشورة في مقدمة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري) . وأما الحفلة الثانية فكانت بدمشق وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ — سلطان العقل عند أبي العلاء للأستاذ أحمد أمين ٢ — التفاؤل والأثرية في كلام الشيخ للأستاذ محمد اسعاف اللشاشيني ٣ — أبو العلاء —

هذه الرحلة ، أن الجميع كانوا منسورين جد السرور من

- قصيدة للأستاذ محمد البزم ٤ - المعري في نظر المستشرقين للأستاذ
الفريد غليوم ٥ - المعري وآراؤه في الإصلاح الاجتماعي للأستاذ
عارف النكدي .

وأما الحلقة الثالثة فقد كانت في معرة النعمان على ضريح أبي العلاء
وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ - شاعر البشر قصيدة للأستاذ
معروف الرصافي ٢ - على قبر أبي العلاء للدكتور مهدي البصير .
وأما الحلقة الرابعة فكانت في حلب وألقيت فيها الموضوعات الآتية :
١ - أبو العلاء شاعر انساني للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٢ - سر الخلود في شعر أبي العلاء للأستاذ طه الراوي ٣ - الفيلسوف
قصيده للأستاذ عمر أبو ريشة ٤ - الاضطراب السيامي في عصر
أبي العلاء للأستاذ سامي الكيالي .

وأما الحلقة الخامسة فكانت في اللاذقية . وألقيت فيها الموضوعات
الآتية : ١ - ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء للأستاذ عبد الحميد
المبادي ٢ - فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء للدكتور جميل صليبا
٣ - الدهر ملك العبقرية قصيدة للأستاذ بدوي الجبل ٤ - أسلوب
المعري ومنهاجه للأستاذ محمد الشريقي ٥ - الروح العلائية وأثرها في
أدبنا الحديث للأستاذ أنيس المقدسي .

وأما الحلقة السادسة فكانت في دمشق وألقيت فيها الموضوعات الآتية :
١ - لزوم ما لا يلزم متى نظم وكيف نظم ورتب للدكتور
عبد الوهاب عزام ٢ - شيخ المعرة والشيخ الدرا للأستاذ عبد القادر
المغربي ٣ - دين أبي العلاء لمحمد سليم الجندي ٤ - اختلاف الآراء -

حفاوة المعريين بهم ، ومعجيين أشد الاعجاب بما رأوه من
طلاقة أوجههم وأسنتهم وأيديهم .

فقد خرج لفيف كبير من المعرة فرساناً ومشاة ، إلى استقبال
الوفد قبل المدينة ، فلما وصل في الساعة السادسة قبيل غروب

- في فلسفة أبي العلاء الأستاذ هنري لاوست ه - ذكرى أبي العلاء
قصيدة للأستاذ شفيق جبري .

وهناك كلمات وردت متأخرة فألحقت بالحفلة السادسة وهي من ضحايا
العقل للأستاذ أفرام البستاني ، من هو أبو العلاء للأستاذ أديب وهبة
المعري والمرأة للأنسة جهان الموصلي ، أبو العلاء وأقطاب الفكر
المحدثون للأستاذ عارف العارف ، كلمة الاذاعة الفلسطينية للأستاذ
عزمي النشاشيبي .

وهناك كلمات بعث بها أصحابها لتنشر في كتاب المهرجان الألفي
لأبي العلاء بعد أن تعذر حضورهم إلى دمشق في اسبوع المهرجان
وهي : لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي للأستاذ محمد رضا الشبيبي ،
أبو العلاء المعري وعلم النحو للأستاذ ابراهيم مصطفى ، بعض ملاحظات
تتعلق بحياة أبي العلاء وآثاره للأستاذ عباس اقبال ، مخطوطات
أبي العلاء المعري في مكتبة جامعة برنستون للدكتور فيليب حتي ،
والناس تخطب في علاك وتنشد قصيدة للشيخ كاظم الدجيلي ، والمعري
والموسيقى للأستاذ فخري البارودي .

الشمس ، استقبلهم الناس بالترحيب والتحية ، وسارت الجموع أمامهم ، واستفرغوا ما عندهم من الهازيج والالعب والسباق على ظهور الخيل ، حتى دخلوا المدينة ، وكان الناس على حافتي الطريق وسطوح الابنية يصفقون ويرحبون ، وكان في مقدمتهم السيد حكمة الحراكي ، وهو الذي أعد لهم هذا الاحتفال الشعبي ، وتولاه بنفسه من أوله إلى آخره ، وكان أهل المدينة يشاركونه في الترحيب وكرم الوفادة .

فلما وصل الوفد إلى المدينة استراح قليلاً في دار السيد طالب الحراكي ، ثم سار ماشياً إلى ضريح أبي العلاء ، فجلسوا على المقاعد التي أعدت لهم ، وبعد أن تليت آيات من الذكر الحكيم قال الخطباء ما قدمنا ذكره ، وبعد انتهاء الحفلة ذهبوا إلى دار حكمة الحراكي ، وقد كان أعد لهم مأدبة فاخرة ما رأوا مثلها في طيب الطعام وكثرة أنواعه وكثرة مقاديرها ، ورأوا من صاحبها من جمال اللقاء وحلاوة اللسان وكثرة السرور بهم وكرم الخلق ، ما لم يروه من انسان غيره ، وصفوة القول إن سرورهم بهذه الحفلة واعجابهم بحفاوة المعربين ، وكرم

الحراكي ملاً أعينهم وقلوبهم ، وأطلق ألسنتهم بالشكر والثناء
فما رأيت أحداً منهم إلا وهو يتعجب من كرم الوفادة ويثني
على أهل المعرة .

ثم سار الوفد ليلاً إلى مدينة حلب ، وقد ذكر ذلك مفصلاً
في الكتاب الذي وضعه المجمع العلمي وطبعه ، وسماه المهرجان
الألفي لأبي العلاء المعري ^(١) .

(١) قال الدكتور جميل صليبا في المهرجان الألفي لأبي العلاء ص ١٣٥ ،

: ١٣٦

ولما انتهت مأدبة الغداء غادر أعضاء المهرجان في الأصيل مدينة
حماة ، فوصلوا إلى معرة النعمان في الساعة السادسة قبيل غروب
الشمس . وكان نائب المعرة السيد حكمة الحراكي قد أعد لهم احتفالاً
شعبياً رائعاً . فاستراحوا قليلاً في دار السيد طالب الحراكي عند
مدخل المدينة . ثم ساروا إلى ضريح أبي العلاء مشياً على الأقدام
والجماهير تصفق لهم وتحييهم وبلغوا القبر في العشية، يحيط بهم أهل
المدينة كبارهم وصغارهم في موكب مهيب لم تشهد معرة النعمان مثله
وترمقهم أعين النساء من شرفات المنازل بنظرات ملؤها الفرح . ثم
أنهم جلسوا على المقاعد التي أعدت لهم حول الضريح ، وبدئت الحفلة
بعشر من القرآن الكريم أوله : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر
وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله
أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

الخطبات :

من الأبنية الجليلة في المعرة الخان الكبير ، ويقال له : خان
التكية^(١) ، وهو في شرقي المعرة ، متوسط بين شماليها وجنوبيها

— ثم ألقى الدكتور طه حسين كلمة بدأها بتلاوة أبيات من قصيدة
أبي العلاء الخالدة

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وأشار فيها إلى مذهب أبي العلاء في اعتزال الناس ، وابتغاء الوحدة
وحرصه عليها قال : لقد وجد أبو العلاء أن خير ما يصنعه لنفسه
في الحياة عزلة تبعده عن الناس . ولكنه لم يكذب يبدأ سيرته في
الاعتزال حتى أخذ الناس يسمعون إليه ويلتفون حوله . فشقي في
حياته بالناس . وها هو يشقى بهم بعد موته ، ويخفق في طلب
العزلة . لقد سجن نفسه في بيته حباً بالزهد واعراضاً عن المجد ،
فهل يرضيه أن يجتمع الناس حول قبره ويقيموا له هذه الإحتفالات
لا لعمرى لو ترك الأمر لأبي العلاء لما أراد شيئاً من هذه .

ولما انتهى الدكتور طه حسين من مناجاة أبي العلاء تلا السيد محمد
الشريفي قصيدة للأستاذ معروف الرصافي وعنوانها : « شاعر البشر » ...
ثم ألقى الدكتور مهدي البصير كلمة عنوانها : على قبر أبي العلاء .
ولما انتهت الحلقة الخطابية دعي أعضاء المهرجان إلى مأدبة عشاء
أعدها لهم السيد حكمة الحراكي ، فساروا في العتمة إلى بيته وشهدوا
عنده من صنوف الكرم العربي ما يمجز القلم عن وصفه . ثم ان
أعضاء المهرجان ساروا بعد ذلك إلى حلب .

(١) وهو اليوم مقر لمدرسة سعيد العاص الابتدائية .

وليس في شماليه بناء ، ولا بينه وبين طريق حلب شيء من العمران قبل سنة ١٣٤٤ هـ ، وفي هذه السنة أنشأت الحكومة داراً لها ، جعلتها في شرقي الخان ، وعمر بعض الناس شرقي دار الحكومة ، على الطريق الآخذة إلى حلب بعض دكاكين ومقهى صغيراً ، ثم لما فتح شارع أبي العلاء بنى الناس على استقامته ، من الشرق والغرب ، ومر الشارع في جنوبيه ، والخان بناء عظيم مربع الشكل ، متقن البناء ، محكم الصنع ، يحسبه الرائي من حجر واحد ، وأن بانيه فرغ منه حين يراه ، ثم لما وقعت معركة بين الثوار ، وبين الجنود الفرنسيين الذين كانوا متحصنين فيه ، خدش الرصاص بعض حجارته ، فكسرها وشوه رونقها .

وفي وسط هذا الخان ساحة كبيرة ، وفي وسط هذه الساحة مسجد واسع ، مرتفع عن الأرض ، وفيه محل للوضوء ، وإلى جانبه مصنع للماء من حجر واحد ، ويسمونه جُرّنا ، كان يسيل إليه الماء من حمام التكية الآتي ذكرها .

وحول الساحة أروقة كبيرة ، مرتفعة عن الأرض ، ووراء

الأروقة أمكنة عظيمة ، فيها صُفَفٌ عالية للمسافرين ، وفيها
رابط لدوابهم ، وتكاد هذه الأبنية يتصل بعضها ببعض ، وفي
الجهة الشرقية منه بناء جميل ، فيه غرف متعددة ، يقال : انها
كانت مقراً للحاكم وأعوانه .

وجميع ساحته وأروقه مفروش بالبلاط ، وكذلك سطحه
قد فرش سطحه بالواح من الرصاص فوق البلاط ، ثم عشت
أيدي المتولين وغيرهم ، فلم يبق منها إلا النزر ، واقتلع
الجنود الفرنسيون قسماً من بلاطه ، فجعلوه متارس كانوا
يصادون من ورائها ، وقد تداعى قسم منه في الجهة الشمالية
الغربية ، ورسم قبل سنة ١٣١٠ هـ .

وهو على حالته الحاضرة آية خالدة ، يشهد بعظم بنائه على
مخامة بانيه ، وهو وقف على أبناء السبيل ، يؤمونه متى شاؤا ،
يرقيمون فيه متى أرادوا ، من غير أن يدفعوا أجراً عنهم
أر عن دوابهم ، وخلف الباب غرفة يقيم فيها الحارس ، وله
باب شاهق عظيم ، يتجه إلى القبلة . وقد كتب فوقه
هذه الكلمات :

« قد بنى هذا لوجه الله تعالى حامى دفاتر الديوان السلطانية
مراد چلي فغني منع فقيراً أو دوابه يتشقى فعليه لعنة الله والملائكة
بطرق شتى سنة ٩٧٤ هـ » .

وإلى جانب هذا الخان من الشمال الغربي حمام يقال له :
حمام التكية ، وهي أحسن الحمامات في المعرة ، وإلى جانبها
الغربي الشمالي بناء عظيم ضخم ، يزعم أهل المعرة أنه كان
تكية يطبخ فيها الطعام للفقراء ، وإن الغريب ينزل في الخان
مجاناً ، ويأكل من التكية مجاناً ، وآثار هذا البناء تدل على
ذلك ، ولذلك يقال لهذا الخان : خان التكية إلا أن الحمام في
عهدنا هذا توجر كغيرها من الحمامات ، ويستوفى من داخلها
الأجر ، والتكية خربة يستعملها مستأجر الحمام في بعض مرافقه ،
وأما الخان فلا يزال الناس ينزلونه بغير أجر ، وله وللحمام
المذكورة أوقاف كثيرة ، وقد ذهبت الأيام بكثير منها ، وما
بقي منها ضمته الحكومة التركية إلى أوقاف الجامع الكبير ،
فهي كلها تعمر وترمم من غلة الوقف المشترك .

وماء هذه الحمام يخرج من رَكِيَّة متصلة بها ، ويسال إليه

أحياناً ماء من ركية الجامع الكبير ، على ساقية فوق جدار عال
يمتد بينها ، تحته قناطر ، ويسمى ذلك الموضع بالقناطر ، منها :
قنطرة كبرى قريبة من ركية الجامع ، يمر الناس تحتها من
الحلة الشمالية إلى القبيلة ، ويلها من الشرق قناطر أصغر منها
ثم هدمت هذه القناطر واسيل الماء بواسطة أنابيب حديدية
تحت الارض ، حين بنيت المدينة على الشكل الحديث ، أي
حين فتح شارع أبي العلاء .

الحمام الثاني ، أو التكية :

ويقابل خان التكية من الجهة الجنوبية ، خان آخر يقاربه
في الحجم ، لا في الاتقان والرواق ، وقد بناه أسعد باشا العظم
المعري ، وفوق بابه هذه الايات ، ويقال إنها من نظم الشيخ
عبد الغني التابلسي ، وهو خطأ ، لأن الشيخ توفي سنة ١١٤٣ هـ
كما ذكره الجبرتي^(١)

جزاك الله أسعد كل خير وإسعافاً مع الفضل الجزيل
لما بمعرفة شيدت خاناً. تسامى في البناء عن المثل

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢ : ٩ (ج) .

ثوابك عند رب العرش حقا أيا خدن الوزارة والقبول

بناؤك مثل طولك فيه أرخ مطل راسخ لابن السبيل

سنة ١١٦٦ ٨٩ ٨٦١ ٨٣ ١٣٣

وفي داخله حوض ماء تحت قوس حجري ، وقد تهدم
بعضه في عهد الحكومة التركية ، وقد اتخذته الحكومة العثمانية
مُكَنَّةً ، يقيم فيها الجنود من عهد بعيد ، وبنت بجواره من الشرق
مدخراً محكماً لوضع الأسلحة والمواد المتفجرة ، وبقي كذلك
إلى أن جلت عن المعرة ، فأبقتة الحكومة التي خلفتها على حاله
مُكَنَّةً ، ولا يزال كذلك إلى سنة ١٣٥٥ هـ .

وبعمل السلف والخلف ضاعت الغاية المقصودة من بنائه ،
وحرّم أبناء السبيل الانتفاع به ، وحرّم أهل المدينة ما ينجم
عن ذلك من الفوائد .

ولهذا الخان أوقاف ، يصرف على ترميمه من ريعها ،
عرفت منها :

خمس دور في المعرة ، ومقهى واحد وهي القهوة الكبيرة

وخمسة دكاكين ، وأربع أرضين ومدار واحد^(١) ، وله أرض بجوار خان العتيق ، موقوفة ليصب بريعها ماء في الحوض المذكور . وقد رأيته سنة ١٣٥٧ هـ ، وقد خرجت منه الجنود ، وصار سوقاً لبيع الدواب ، وهو على وشك التداعي والسقوط ، وقد بنى الناس حديثاً في شرقيه من الشمال والجنوب .

الخانة العتيق :

وكان في المعرة خان ثالث أقدم عهداً من هذين الخانين ، بناه صارم الدين أربك المنصوري الحموي المتوفى سنة ٧٣٧ هـ وعمل عنده مسجداً وسيلاً « منبلا » للماء ، وأظن أنه هو الذي كان الناس يسمونه الخان العتيق ، وقد أدركت منه بقية عامرة ، وهي من شرقيه ، ولكن لم أر أثراً للمسجد ، ولا للمنهل ، ولعلها تحت الردم ، وحول هذا الخان أربع ركائيا في أطرافه الأربعة ، بُعد كل واحدة عن الأخرى نحو ثلاثين متراً فأكثر ، وهو واقع في الجهة الشرقية الجنوبية من الشكنة

(١) المدار في عرف المعريين طاحونة ، تدار بواسطة الدواب ، يطحن فيها البر والشعير ، وقد كان في المعرة عدد كبير منها ، ثم بطلت لما رأى الناس الطواحين التي تدار بواسطة الكهربائي وغيرها .

على بعد ١٥٠ متراً تقريباً ، يفصل بينها مكان فسيح ، بعضه أخفض من بعض ، وفيه حفر وآثار أبنية قديمة ، والطريق الآخذ من حماة إلى حلب .

وكان الناس يجلسون على ظهر هذا الخان ينظرون إلى سباق الخيل في أيام العيد ، وهكذا تركته سنة ١٣١٩ هـ .

ثم زرت المعرة سنة ١٣٥٢ هـ فلم أر أثراً للخان ولا لأنقاضه ، والذي علمته من أهل البلدة أن بعض الأغنياء هدم البقية الباقية منه ، وجعل مكانه بستاناً ، وبني من أنقاضه بيتاً في البستان وبركة وغيرها ، وقد أخبرني بعضهم أنه بعد هدم الخان ظهرت رَكِيَّة بجواره عذبة الماء ، ولها مجار في جدار الخان الجنوبي .

نماه المنقش :

ويقال : إن في شرقي المعرة من الشمال بالقرب من مزار الشيخ القبيباتي على بعد نحو ٤٠٠ متر تقريباً ، خان يقال له : خان المنقش ، وأنه بقي إلى أواخر القرن الثالث عشر ، ثم تهدم ، وذهبت أنقاضه وانطمس أثره ، وأصبح أرضاً يزرع فيها القمح ونحوه .

الحمامات :

وفي المعرة في عهدنا أربع حمامات :

الأولى : حمام التكية ، وهي المتصلة بالخان ، وقد تقدم ذكرها .
الثانية : الحمام التحتانية ، وهي واقعة في وسط المحلة الشمالية من الجنوب ، تتصل من غربيها بدار الحكومة القديمة ، وبالسوق من شرقيها ، وبينهما (القمّيم) وبابها الى الشمال ، وماؤها يستخرج من الساطورة (الرّكيّة) المعروفة بالساطورة التحتانية ، ثم يصب في ساقية تمر من جدار القمين إلى الحمام .

وماء هذه الركية غزير ، يبيع منه مستأجر الحمام للناس بالراوية ، ويسيل بمجرى خاص إلى حوض صغير ، والرشاش الذي يتقاطر منه ربما يعود الى الركية .

وبالقرب منها مسيل للمطر الذي يجتمع من الطرق فيصب فيها ، وبقربه مجرى ماء الحمام الذي يجتمع مما يصبه المغتسلون فيها ، ولا يبعد أن يتسرب شيء منه إلى الركية .

ولذلك لا يعد ماؤها في نظر الأطباء نظيفا ، ومعظم أهل المحلة الشمالية يشربون منه .

والحمام واسع ، محكم البناء ، مشتمل على براني ووسطاني وجواني فالبراني القسم الأول الذي ينزع فيه الداخل ثيابه إذا أراد الاغتسال ، وينشف فيه جسده بعد خروجه من الجواني ، وفيه يجلس صاحب الحمام وصناعه ، والجواني القسم الداخلي الذي يغتسل فيه الناس ، وفيه المقاصير التي يجلس فيها المغتسلون ، والوسطاني القسم الذي يكون بين الجواني والبراني ، وتكون حرارته متوسطة بينها .

الثالثة : حمام الزهور . وهي واقعة في جنوبي السوق من الجهة الغربية ، وفي الشمال الشرقي من مسجد أبي العلاء . وهي مبنية تحت الأرض ، ينزل إليها من بابها الشمالي بوضع عشرة درجة ، وهي واسعة فسيحة من داخلها .

وربما كان بناؤها مساوياً لبناء غيرها في القديم ، ولكن أحاط بها الردم من كل وجه ، فظهرت كأنها مبنية تحت الأرض ، وفي إحدى مقصوراتها مقام يقال : ان فيه الشيخ عنبر ، ولم أقف له على خبر ، وماؤها يستخرج من رَكِيّة تتصل بها من الشرق . وهذه الحمام وقف لبني الحاج يوسف ، من أسرة السيد يوسف المشهورة في المعرة ، ثم سعى بعض خصومهم فهدمها

البلدية ، وأضافت قسماً منها الى الطريق المتصل بشارع أبي العلاء
ثم عمرت وجددت نحو سنة ١٣٥٨ هـ .

وقد ذكرنا في غير هذا المكان انهم حفروا تحت هذه
الحمام فوجدوا دكاكين ، ووجدوا تحت الدكاكين دكاكين صاغة .
الرابعة : حمام السيد يوسف ، وهي جزء من داره الأي ذكرها ،
وموقعها في المحلة القبلية ، وبابها الى الغرب ، وماؤها يسير بساقية
من ساطورة ^(١) السيد يوسف الواقعة في المحلة القبلية في
الزاوية الشرقية الشمالية من الساحة الكبيرة ، ومن ركية أخرى
تتصل بالحمام من الجهة الشمالية داخل القمين .

ولا يوجد غير هذه الحمامات في المعرة في عهدنا ، وسمعت
جماعة من شيوخها يقولون : ان الدار الواقعة في المحلة الشمالية شمالي
العنبر (الانبار) الى الشرق كانت حماماً في القديم ، ثم عطلت
وجعلت داراً ، وبابها يشبه أبواب الحمامات في المعرة .
وقد عثر على حمام قديم في المحلة الشمالية ، شمالي الجامع
الكبير الى الشرق ، ووجد فيها مجاري الماء وغيرها وهي متهدمة ،
فردمها صاحب الارض التي وجدت فيها وبني فوقها .

(١) والساطورة في عرف المعريين ركية يستخرج ماؤها بواسطة
دواليب تديرها دابة وأكثر ما تقال لركايا الحمامات ، ويقال : ساطورة .

وبني السيد حكمة الحراكي حماماً جنوبي المعرة ، شرقي مسجد
نبي الله يوشع (ص) الى الشمال .

المقاهي :

وفي المعرة مقاه متعددة منها ما هو أقدم منا عهداً ، ومنها
ما حدث في عهدنا ، أما الأولى فمنها المقهى التحتاني ، ويقال له :
القهوة التحتانية ، وهي في السوق غربي الجامع الكبير ، بابها مقابل
بابه ، ولها باب ثان على الساحة التي تقع في شمالها .

ومنها المقهى المعلق ، ويقال له : القهوة المعلقة ، وهي في منتصف
السوق من الشمال الغربي موازية تقريباً لباب السوق الغربي
المقابل لمسجد الشيخ عطا الله ، وإنما قيل لها المعلقة أو الفوقانية
لأنها مبنية فوق الدكاكين .

ومنها المقهى الكبير ، ويقال له : القهوة الكبيرة ، وهي في المحلة
القبلية ، لها باب شمالي إلى السوق ، وباب قبلي إلى الساحة
الكبرى التي أمامها .

وقد جعلت طاحونة يطحن فيها الدقيق على البخار ، ويستخرج
منها ماء يسيل إلى بعض البيوت بأنايب .

وأما الثانية فمنها مقهى في جانب سوق النجارين من الجنوب الغربي، وهو واقع في المحلة القبلية، شرقي حمام الزهور إلى الجنوب. ومنها مقهى آخر في رأس السوق القبلية، المتصلة بالجامع من الجهة الغربية، مقابل سوق النجارين القديمة، وكان في عهدنا مداراً، ثم جعل مقهى.

ومنها مقهى آخر، وهو واقع في الابنية الجديدة التي حدثت بعد الحرب العامة، جنوبي القناطر إلى جهة الغرب، وهو غربي الحديقة الفاصلة بين الخان والثكنة.

الأسواق والمراكب :

وفي المعرة سوق عظيمة، مبنية في أوقات مختلفة، على أشكال مختلفة، وقد كانت لسوق المعرة في القديم سبعة أبواب احدها بحذاء اندكاكين التي كانت ملاصقة لمنازة الجامع، والثاني غريبه عند ساطورة الحمام التحتانية، والثالث مقابل مسجد الشيخ عطا، والرابع بقرب حمام الزهور، والخامس يخرج منه إلى الساحة الجنوبية، والسادس يمر من أمام الباب الشاهي للقهوة الكبيرة إلى الشرق، والسابع قبلي الجامع مقابل

سوق النجارين ، وكانت لها أبواب تقفل بعد المغرب ، وتفتح بعد الفجر ، ولها حراس موظفون ، وحراس في وسط الاسواق ثم بطل ذلك بعد تغير العمران ، والظاهر أنها مجموعة أسواق ، ضم بعضها إلى بعض ، وجعلت سوقاً واحدة ، ومنها دكاكين بنيت أمامها أروقة عظيمة ، كئسوق المتصلة بالجامع الكبير من الجهة الغربية .

ومنها أسواق مسقوفة بعقد من الحجر ، كسوق الحذاءين (الأساكفة) ، ويسميه المعريون سوق السكيفية ، أو الاسكافية ، وكسوق النجارين وغيرها .

وجميع الاسواق غير المسقوفة ، كان أمهامها أروقة مساوية في الارتفاع لسطوحها ، ثم قامت حكومة القضاء ، أو بلديته كشف الله عن بصيرتها ، فهدمت معظم تلك الأروقة ، ثم ندمت على ما هدمت .

وقد حدثت في هذا العهد دكاكين في الجادة المنشأة حديثاً ، من طريق حلب الى مسجد أبي العلاء (شارع أبي العلاء) .
والعادة القديمة في المعرة لا يبنى دكان حتى يهدم عشرة ،

لأن فيها ما يزيد عن الحاجة ، ولذلك يقال : سوق المعرة ألف
بياع ، ولا شراء . ويبلغ مجموع الدكاكين التي فيها الآن نحو
٥٠٨ تقريباً هـ ، ويوجد دكاكين في المحلات التي يسكنها الناس
وهي قليلة .

الدور والمساكن :

أكثر أبنية المعرة حديث ، لأن الحروب والفتن والغارات
والزلازل ، ذهبت بأكثر مبانيها ، من معابد وأسواق ومساكن
بن هدم وإحراق ، وأكثر هذه الأماكن الماثلة في هذا العهد
مبني بناء واهياً ، يدل على فقر بانيه ، وجهله بصناعة البناء .
وقلما وجد الإنسان بناء قديماً شاهقاً ضخماً ، إلا بعض
المساجد والمعابد والخانات ، وقليلاً من الدور والمساكن .
وأعظم دار عرقتها في المعرة ، هي دار السيد يوسف كبير
الاسرة التي تنسب إليه ، وهي في المحنة القبلية .
وهي دار فخمة يحيط بها الطريق ، من أطرافها الأربعة
فيدخل إليها من باب في جنوبها ، يتجه إلى الشرق ، وعلى
يسار الداخل باب يدخل منه إلى ساحة فسيحة ، كانت تربط
فيها الخيل في ليالي الصيف وطرفي النهار .

وفي شمالي الساحة مربط للخيل. طويل عريض ، عالي السمك
قلما وجد نظيره في مرابط الأمراء والملوك .

وتحت مغارة لها باب من الساحة يتجه إلى القبلة ، وباب
آخر من الطريق العام من الجهة الغربية ، رِتاحه^(١) حجر واحد
أسود عليه كتابة ورسوم ، والناس يبالغون في طول هذه
المغارة وامتدادها .

وعلى يمين الداخل من باب الدار بعد نحو عشرة أذرع
باب يدخل منه إلى ساحة فسيحة تنتهي من جهة الشرق بمصطبة
عالية كبيرة ، وعلى يمين الداخل إلى الساحة غرفة صغيرة ، وعلى
يساره غرفتان كبيرتان على قدر الساحة والمصطبة من الشرق
إلى الغرب ، بابها إلى القبلة ، وهذا البناء اتخذ في عهدنا (قناقا)
أي مشوى للضيوف .

ثم يسير الداخل بعد هذا الباب في دُهايز فيه منعطفات
ثلاثة ، ينتهي آخرها بباب قصير ، بابه حجر أسود واحد ،
وعلى يسار الداخل شُباك أو باب مرتفع يدخل منه إلى دار

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ١٥١ : الرِّتاح بالتحريك الباب العظيم
وكذلك الرِّتاح ومنه رِتاح الكعبة ، ويقال الرِّتاح الباب المغلق وعليه
باب صغير .

فسيحة ، فيها إيوان يتجه إلى الشمال وفيه ثلاث غرف : واحدة في صدره واثنتان في طرفيه ، ولها باب حجر أسود على الطريق الغربي ، على مساواة باب المغارة المذكورة آنفاً وفي شمالها الشرقي درج يصعد منه إلى سطح الدار الكبرى وغيرها .

والباب الذي ينتهي به المنعطف السابق ذكره ، يدخل منه إلى فسحة صغيرة مسقوفة ، في صدرها غرفة كبيرة ، وعلى يسار الداخل باب دار فسيحة ، فيها غرفتان ومطبخ وعلية ، كلها أبوابها إلى الجنوب ، وفي جنوبها الشرقي باب للدرج السابق ذكره ، وفي وسط الدرج غرفة كبيرة واسعة هي سقف لباب هذه الدار ، وفي الدار مغارة ينزل إليها بنحو ثلاثين درجة .

وعن يمين الداخل دهايز ، ينتهي الداخل منه إلى الدار الكبرى ، وفيها ساحة قوواء^(١) ، في وسطها حديقة كبيرة ، في جنوبها بشر غزير ، وعن يمين الداخل إيوان عظيم يتجه إلى الشمال ، وفي طرفيه غرفتان متقابلتان باباهما فيه ، وفوق ذلك قصور شاهة ليس في المعرة ما يقاربها في علوها وسعة اشرافها ون شرق الساحة وغربها ، غرف فخمة متقابلة ، وفي شمالي

(١) اي واسعه

الدار إلى الغرب باب عن يمين الداخل فيه ، يدخل منه إلى مطبخ عظيم ، يقابل الإيوان والغرفتين المتصلتين به ، وفيه محل للحطب والفحم ، وبيت للمؤنة ، وتحتة حمية بعيدة الغور ، يبالغون في اتساعها وامتدادها .

وعن يسار الداخل حمام كبيرة ، متصلة بالحمام الكبرى الآتي ذكرها ، ويسيل إليها الماء منها ، وإلى خزان علي بابها يأخذ الساكنون حاجتهم منه ، ويقابل الداخل باب ينتهي إلى دار فيها غرف ثلاث . ، تتجه إلى القبلة ، وتتصل بها غرفة أمامها ساحة صغيرة ، في جدارها الغربي باب على الطريق العام الغربي . وفي الطرف الغربي الشمالي من الدار الكبيرة ، دار صغيرة تشتمل على غرف متعددة ، بابها إلى الطريق العام من الشمال وفي جنوبيها داران خارجية وداخلية ، يصل بينهما باب في الجدار الفاصل بينهما ، الممتد من الشرق إلى الغرب ، في الشمالية منهما غرفتان تتجهان إلى الشرق ، وفي الجنوبية غرفة إلى الشرق ، وغرفتان إلى الشمال وغرفة إلى الجنوب ، وباب الدارين يتجه إلى الشرق على الطريق العام الشرقي .

وفي منتهى الدار الكبيرة من جهة الشرق الجنوبية ، جامع مدفون فيه السيد يوسف صاحب هذه الدار وولده اسماعيل ، وفي غريبه إلى الجنوب دار أخرى تتصل من الغرب بأول غرف مر ذكرها .

وفي الجهة الغربية من الدار الكبرى حمام السيد يوسف السابق ذكرها وفوقها القمين .

وهذه الدار أعجوبة في ضخامة بنائها ، واتساع رقعتها ، واجتماع المرافق المختلفة فيها ، وقد كانت كلها داراً واحدة ، ولكن ذرية الواقف تقاسموها للسكن ، وتهاونوا في أمرها حتى تداعت القصور للانهدام ، وتهدم بعضها وتحطمت أدراجها ، ودب الوهن في بنائها من جهات مختلفة ، وأعظم ما منيت به هذه الدار تقسيمها إلى دور مختلفة ، وإقامة جدران يفصل بينها ، حتى أصبحت دوراً متعددة بعد أن كانت واحدة ، وتعطل أكثر ما فيها من المرافق كمربط الخيل والحمام وما شاكل ذلك ، وربما لا يجد الباحث داراً تشابهها في عظمتها واتساعها في كثير من المدن العظيمة .

وما عدا هذه الدار فأكثر دور المعرة بين قديم على وشك الانهدام ، وجديد صغير بني على قدر فهم صاحبه ، أو هواه أو طاقته ، وليس في شيء منها ما يتفق مع أمثاله في المدن المتحضرة ، أو يقوم على هندسة صحيحة مقبولة ، إلا النزر اليسير من الأبنية التي أنشئت بعد فتح شارع أبي العلاء .

دار النعمان :

وفي المحلة الغربية دار قديمة ، يسمونها دار النعمان ، وقد أخذت منها الأيام كل شيء حسن ، وذهبت بما فيها من عظمة ورونق ، ولم يبق إلا إصطبل عجيب الشكل ، جدرانه من الحجارة الضخمة ، وسقفه من حجارة مبسوطة ، طول الواحدة نحو ثلاثة أمتار ، في عرض متر ونصف ، وكان فوقه بناء عظيم ، ولكنه ذهب ، وأثره يدل على عظيمته ، وربما كان أصحابه في القديم كسروا حجارتها العظيمة ، ووضعوها في عمارتهم ، كما يفعله أهل المعرة الآن .

وهذه الدار الآن يملكها ورثة رجل يقال له : قشوم الهنديجة ، وأهل المعرة يزعمون أنهم من سلالة أسرة يقال لهم :

بنو التيس ، وكانوا من ذوي اليسار والثروة الكثيرة ، فسمع
أبو العلاء المعري ذات يوم رُغَاءَ الإبل وخَوَارَ البقر وتُفَاءَ
الشاة وصهيل الخيل ونهيق الحُمُر وشحيج البغال ، فسأل لمن هذه
الأنعام والدواب ؟ فقبل : لبني التيس ، فقال :

رزق التيوس يَحِيثُهَا بسهولة وذووالفصاحة رزقهم مغبون^(١)
إِنْ كَانَ حَرْمَانِي لِأَجْلِ فَصَاحَتِي فَاَمِنْ عَلَيَّ مِنَ التَّيُوسِ أَكُونُ
وَإِنَّهُ سَمِعَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْغِنَى وَالسَّعَةِ ، فَضَاقَ ذَرْعًا بِمَا
هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضَّنْكِ فَقَالَ :

يَا قَاسِمَ الرِّزْقِ قَدْ ضَاقَتْ بِي الْقِسْمُ مَا أَنْتَ مَتَّهَمٌ قُلْ لِي مِنْ أَتْهَمِ
إِنْ اللَّجِينَ قَنَاطِيرَ مَقْنَطَرَةٍ عِنْدَ التَّيُوسِ وَنَعْلِي مَالَهَا قَدَمُ
أَعْطَيْتَنِي حَكْمًا لَمْ تَعْطِنِي وَرِقًا قُلْ لِي بِلَا وَرَقٍ مَا تَنْفَعُ الْحَكْمُ
وَأَنْ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ الْوَرَعِينَ أَجَابَ أَبَا الْعَلَاءِ بِقَوْلِهِ :

لَوْ كُنْتُ ذَا حَكْمٍ لَمْ تَعْتَرِضْ حَكْمًا رَبًّا حَكِيمًا لَهُ فِي خَلْقِهِ حَكْمٌ^(٢)
وَيَنْسَبُونَ لِأَبِي الْعَلَاءِ مَوَالِيًا قَالَهُ فِي مِثْلِ هَذَا ، وَهُوَ

(١) ويروى مسجون .

(٢) أصل الرواية واحد مبيّن له في خلقه (ج) .

أهل الفصاحة ترى أيام مثل الخبر والتيس أصبح بدار و مال مثل التبر
إن كان منعي لاجل فهمي وكثر الخبر

هات اعطني مال واجعل طول قرني شبر

وله مواليا آخر على روي العين ، لم أذكر منه الا قوله :

هات اعطني مال واجعل ازل قرني باع

وهذه الرواية وان كانت بعيدة الوقوع من أبي العلاء ،
فبقدر بُعد هذا الشعر من كلامه ، فان فيها شيئاً من الطرفة ،
وهي تدل مع هذا على قدم الحسد في المعرة ، وقدم التناثر
بالألقاب المنكرة ، والتاريخ يعيد نفسه كما يقال : فان المال
في المعرة في عهدنا ، والذي سمعناه عن العهد الذي قبله ، قلما
اجتمع مع علم وفهم ، والفقراء من المعريين ينزولون ذوي
اليسار بمثل هذا اللقب ، ولكنه لا يلبث أن يزول ، وأنا أعتقد
أن هذه القصة باطلة وضعها حساد بني قُشوم ، ليلقبوهم بهذا
اللقب حسداً وحقداً ، وكذلك يفعل غيرهم بمن يحسدونه على
ما أتاه الله من فضله . وفي بعض الدور جدران ضخمة ،
عليها أقواس من حجارة عظيمة ، وفي كثير منها أبواب من

الحجر الأسود ، ونحو ذلك من آثار الأبنية القديمة ، والناس ينسبون كل أثر من بناء ضخم إلى الرومانيين ، كما قلنا .
وكثيراً ما ظهرت تحت الأرض آثار أبنية عظيمة من مساجد ومساكن ، ولكن الناس كانوا يقتلعون حجارتها ويكسرونها ، ويجعلونها في مبانيهم ، ومنهم من كان يردمها ويردها كما كانت .

المعاصر :

في المعرة جملة من معاصر الزيتون والعنب ، وأكثرها قديم ، ومنها ما هو تحت الأرض ، وقد أهمله الناس لقلة الحاجة إليه .
منها : معصرة في جنوبي المدينة ، تقع في الجهة الشرقية الشمالية من زاوية بني الكيال .

ومنها : معصرة غربي المدينة ، تقع في شرقي مقبرة بني الجندي إلى الجنوب ، وفيها كثير من معاصر العنب المتخذة خارج المدينة في الكروم وغيرها .

وقد قلت رغبة الناس في هذه المعاصر ، بعد اطلاعهم على المعاصر الحديثة ، التي تكون بواسطة آلات حديدية .

المياه التي هي خارج المدينة :

يقسم أهل المغرة مقار المياه إلى أقسام ، ويسمون كل قسم باسم يميزه من غيره ، فعندهم الجب ، وهو البئر الذي يجتمع ماؤه من ماء المطر .

والرَكِيَّة ، وهي البئر العميقة ، التي يخرج ماؤها من أرضها ، أو جدرانها ، وقد يسيل إليها شيء من ماء المطر ، وماء هذه الركايا منه ما هو عذب ، ومنه ما هو ملح كما تقدم .

وإذا كانت الركبة يخرج ماؤها بدولاب تديره دابة إلى حمام أو مسجد أو غيرهما ، يسمونها ساطورة ، وبعضهم يقول : صاطورة ، كما يسمونها ركبة .

فان كان ماء الركبة يسبح على وجه الأرض في زمن الربيع يسمونه عيناً .

والعيون كثيرة ، منها : عين قُرَيْع ، وهي في جنوبي المعرة إلى الشرق ، معقودة بحجارة ضخمة ، يظن الناس أنها من بناء الرومان ، وهي على بعد أربعين دقيقة من بناء المعرة ، وماؤها يفيض في زمن الربيع ، فيجري على وجه الأرض إلى
(٢٧) ‡

مسافة بعيدة ، وقد جعلت بستاناً في عصرنا الحاضر ، ووضع فوقها دولا ب ل ل ا خ ر ا ج الم اء والسقي ، وهي لورثة السيد عبدو اليوسفي .

ومنها : عين ب ل ا نة ، وهي في جنوبي عين ق ر ي ع إلى الغرب وهي صغيرة تجري من صخرة صغيرة ، وماؤها قليل لا يتجاوز كثيراً عن منبعها .

ومنها : عين مسدة ، وهي في الجنوب الشرقي من المعرة ، على بعد ساعة تقريباً ، وبناؤها واسع ، وماؤها يفيض في زمن الربيع .

ومنها : عين الم ر ج ، وهي في جنوبي المعرة أيضاً ، وبناؤها عظيم ، وفمها واسع ، وماؤها يفيض في الربيع ، وقد يمر به ماء عين مسدة ويسيلان معاً .

ومنها : عين م ع ر ا ث ا ، وهم يقولون : معراتا بالتاء المثناة ، وهي في جنوبي عين مسدة ، وبناؤها أضيق من عين الم ر ج ، وأوسع من عين مسدة .

ومنها : عين وادي المحروق ، وهي شمالي عين معراتا إلى

الشرق ، وهذه قد يسيل ماؤها في الربيع إلى عين مسدة ،
ويجريان معاً إلى عين المَرَج .

ومنها : عين الدَّيْر ، وهي في جنوبي المعرة الشرقي ، وبناؤها
قديم ، يسيل ماؤها في الربيع للشرق الجنوبي ، حتى يصل إلى
دير سمعان ، فيمر بالقرب من مدفن عمر بن عبد العزيز .
ومنها : عين وادي الحكيم ، وهي في جنوبي المعرة الشرقي ،
يسيل ماؤها في الربيع ، حتى يجتمع مع ماء عين قَوْنَع في
موضع يقال له : صدر الميدان .

ومنها : عين السعنة ، وهي في جنوبي المعرة .
ومنها : عين السوداء ، وهي جنوبي المعرة .
ومنها : عين الخَوَارَى ، وهي في الجنوب أيضاً .
ومنها : عين جربا ، وهي في الجنوب أيضاً .
ومنها : عين كَرِيشَان ، وهي في الجهة الشرقية من المعرة ،
قرية من وادي الضيف .
ومنها : عين التينة ، وهي شرقي المعرة ، وقد جعل حولها
بستان ، يسقى زرعه وشجره منها .

وفي زمن الربيع يجري ماء عين وادي الحكيم ، فيجتمع بماء عين قُرَيع في صدر الميدان ، ويخالطان ماء عين المَرَج ، وما يسيل إليه من ماء العيون ، ويجتمع ذلك كله في موضع يقال له : عاقول الميدان ، ثم ينضم إليه ماء عين السعنة الذي يمر من الشرق الشمالي بعين السوداء ، ويسيل الجميع إلى العاقول ، ثم يجري هذا المجموع إلى الشمال ، فيمر بشرقي المعرة ، وإذا سال ذلك يسمونه ساقية الوَحْم .

وقد تمر بالحواري القبلية ، فينضم إليها ماؤها مع ماء غيرها ، ويأتيها من الشرق ماء عين كَرِيشان ، ثم يسيل الجميع شمالا حتى يصب في الهرماس بالقرب من خراب باب إيلا . وهذه العيون ، منها ما يبلغ ارتفاع مائها السائل قدر أربع أصابع وأكثر ، وانبساطه يختلف بحسب المجرى والكثرة ، ومنه ما يبلغ نصف متر وأكثر .

ومن الناس من يزعم أن ماء عين مَسْدَة ، وعين المَرَج ، من عين مَغْرَاثا ، وماء عين بَلَاثَة من عين الدَّير ، وماء العاقول ، ووادي الحكيم ، والحواري من عين قُرَيع .

وأهل المعرة يتشاءمون من جريان ساقية الوَخم ، ويعدونها نذير بلاء ، ومؤذن غلاء ، ويزعمون أن العام الذي تسيل فيه تكثر فيه الأمراض والعلل ، وربما كان لهذا الزعم نصيب من الصحة ، لأن ساقية الوخم تجمع الأوخام التي في طريقها ، وتنقلها إلى العيون التي تمر بها ، وتبقى قسماً كبيراً منها في مجراها وفي أطرافه ، وليس هناك حكومة تعنى بمثل هذا ، فاذا جاء الصيف انتشرت الجراثيم الفتاكة من تلك الأقدار والأوخام .

ومنها : عين الهوثة ، وهي في وادي الخطيب على طرف الهرماس من الشمال .

ومنها : عين الزُرَيْنِيق ، وهي في الضفة الجنوبية للهرماس غربي الهوثة إلى الجنوب .

ومنها : عين العمياء ، وهي في وادي الخطيب .

ومنها : عين السلاقية ، أو السلاقيات ، وهي غربي المدينة في وادي الخطيب ، وغربي تل منصور باشا ، وقد يفيض ماؤها ، فيصب في الهرماس .

ومنها : عين المغيين ، وقد رأيت في بعض الحجج في وقف
الناصر ابن محمد المعروف بابن ست العيش ، انه وقف الركية
التي ببستان الجوزة ، والركية التي ببستان المغيين سنة ٩٥١ هـ .
ومنها : عين الحمراء ، وهي في أول وادي الخطيب من الشرق ،
واقعة في الجنوب الغربي من القلعة .

ومنها : عين النجار ، وهي في طرف الهرماس من جنوبي
القلعة إلى الغرب ، وهي شمالي الحمراء .

وقد ذكر الثوئري في نهاية الأرب أن الشيخ سراج الدين
عمر بن مسعود المعروف بالبحار توفي في سنة ٧١١ هـ ، وكان
شاعراً ، وهو صاحب الموشحات المشهورة ، وذكر شيئاً من
شعره ، منه قوله في مليح نجار :

قالوا المعرة قد غدت من فضلها يسعى إلى أبوابها ويزار
وجبت زيارتها علينا عندما شغف القلوب بحبها النجار
وأنا لا أستبعد أن يكون هذا الشاعر ، أراد بالنجار عين
النجار التي ذكرناها ، لأن العين المذكورة يحيط بها بستان ،

يتصل ببساتين ، كأنها قطعة من الجنة ، والناس يخرجون إلى عين النجار ، للتنزه والتمتع بمناظرها الرائعة ، وربما قالوا : بستان النجار بدلاً من عين النجار .

ومنها : عين زُرَيْق ، وهي غربي المعرة ، في حافة مجرى الهرماس ، يفيض ماؤها مع الهرماس ، فيجريان معاً في الربيع وهي في منخفض جنوبي القلعة إلى الغرب ، وأظن أنها منسوبة إلى زريق ، وهم أسرة عريقة في العلم والفضل وستأتي ترجمة جماعة منهم .

ومنها : عين آسية ، والعامّة تسميها عين الآسي ، وهي في الشمال الغربي من المعرة ، والقلعة مقابل المكان المسمى بالحينا يفصل بينها مجرى الهرماس ، وفي شمالها الجبل ، وهي تحت الأرض ينزل إليها بوضع عشرة درجّة ، وقد يفيض ماؤها في الربيع ، وفوقها بناء يصل على ظهره ، وأظن أن ماءها يتحلب من مجرى الهرماس ، ومستنقعات الماء حوله ، لأنه يقل حين يقل الهرماس ويكثر حين يكثر .

ومنها : عين سلْمُون ، وهي شمالي المعرة على بعد ربع ساعة .

ومنها : عين الواكفة ، وهي شمالي عين سلمون على بعد نصف ساعة .

ومنها : عين عبد الحافظ ، وهي شمالي المعرة على بعد ساعة تقريباً .

ومجموع هذه العيون الثلاث ، يقال له : وادي العين ، يفيض ماؤها في الربيع ، ويجري إلى الشرق حتى يختلط بالهرماس قرب باب إيلا .

وماء هذه العيون يدوم إلى شهرين تقريباً ، ثم يأخذ في القلة والنضوب ، وربما جف بعضها في السنوات التي يقل فيها المطر .

وقد أقيمت حولها بساتين تسقى منها ، وفيها أشجار كثيرة من المشمش والتفاح والخوخ والتين والجوز واللوز وغيره . وأهل المعرة يخرجون إليها للتنزه في الربيع والصيف والخريف .

الهرماس :

هو سيل يجتمع من المطر الذي يصب فوق الجبال والهضاب ، ثم ينحدر إلى أودية يضاف بعضها إلى بعض .

وأول ما يجتمع فيه الهرماس واد يقال له : وادي أيوب ،
بالقرب من قرية يقال لها : بسامس ، وأخرى يقال لها جوزف ،
ثم يسيل إلى الوادي الكبير المعروف بوادي المغار ، بالقرب
من قرية كَفَرَنْبَل ، ثم يمر بالقرب من قرية حاس ، ثم يصب
في رام ، قرية كفر روما ، ثم يتبع الأودية والمنخفضات ،
حتى يصل إلى غربي المعرة ، فيصب في وادي الجنان ، وهو
المعروف الآن بوادي الخطيب ، وهو غربي المعرة ، فيملا
ما في جانبي مجراه من الركايا والعيون ، ويسير إلى جهة الشرق
ثم يعطف إلى الشمال ، فيمر من جنوبي القلعة إلى غربيها ،
ثم ينعطف حتى يجتمع بمياه وادي الحينا ، عند عين آسية ،
ويسمى هناك هرماس أبي قشة ، أو هرماس وادي بني عُليم ،
ثم يسيل الجميع إلى وادي العين ، ثم يخرج من هناك إلى
جهة يزعم الناس أنه يسيل إلى جهة المطخ .

وقد يكون هذا السيل شديداً ، فيأخذ ما يمر به من انسان
وحوان ، وقد أخذ رفيقاً لي كان ركب فرسه ، وأراد اجتيازه
عند عين الواكفة ، ففرق هو والفرس ، وتحطما من مصادمة
الصخور في طريقه ، وذلك نحو سنة ١٣١٧ هـ .

وأهل المعرة يبتهجون لمقدمه ، ويبشر بعضهم بعضاً به ،
لأنهم لا يرون ماءً كثيراً جارياً على وجه الأرض غيره ،
فيخرجون للتنزه والاسترواح على ضفافه ، في وادي الخطيب ،
ويخرج بعض النساء فيغسلن فيه الثياب والأمتعة .

وهو لا يجري إلا في السنة التي يكثر فيها المطر ، فيملأ
الركايا والعيون القريبة منه ، وتبقى أثارة منه إلى أخريات
الربيع ، فيمرع مجراه وحافاته ، فيبتهج الناس بذلك الخصب ،
ويبتهج الحيوان بالمرعى الممرع ، وترى الناس تخرج إليه أصيل
كل يوم زرافات للتنزه ، ومنهم من يقضي سحابة نهاره ،
فيطبخون ويأكلون ويلعبون ، فالهرماس موسم ابتهاج وفرح
ومرح لأهل المعرة ، وقسم كبير من ضاحيتها .

وأهل المعرة يتيمنون بمقدمه ، ويعودونه بشير خصب ورخاء
وذلك صحيح ، لأن مياه العيون والركايا تكثر ، فيكثر الخصب
في البساتين وغيرها .

وهو سيء الأثر في الصحة العامة كساقية الوخم ، لأنه
يحمل ما في طريقه من أوساخ وأقذار وجيف وغيرها ، وقد

يبقى بعضها في مجراه ، وفي أطرافه ، فاذا نضب الماء عنه انتشرت
الروائح الكريهة والجراثيم الضارة ، وقد يشاهد في كثير من
المواطن التي يستنقع فيه الماء ، ضروب مختلفة من الدعاميص^(١)
والديدان الصغيرة والكبيرة ، والناس يتساحون في شرب الماء
من تلك المستنقعات ، ويغسلون أيديهم وثيابهم منها ، حتى
بعد انقطاع جريه . وقد ذكره الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة
المعري^(٢) في شعره ، فقال من قصيدة :

وزمان لهُو بالمعرة موق بـسِيَاثِهَا وبـجَانِي هِرْمَاسِهَا
أَيَّام قَلْتُ لَذي المودَّة اسقني من خَندريس خُناكها وحَاسِهَا
وقد كان بعض شعراء حلب في المعرة ، فجاء الهرماس ،
فرأى ابتهاج الناس بمجيئه وخروجهم إلى مشاهدته في أول
يوم من مجيئه ، وفي اليوم الثاني قل مأوه ، ففترت أحاديث
الناس عنه ، وقل خروجه إليهم ، وفي اليوم الثالث انقطع
جريانه وأسف الناس لذلك ، فقال هذا الشاعر وقد انسبت اسمه .

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ٥٠٦ : الدعوص درية تغوص في الماء

والجمع الدعاميص .

(٢) ابن أبي حصينة : الديوان ١ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

أصبحت أهل المعرة في ضجيج ثم نفرة
قلت ما هذا فقالوا قد أتى الهرماس مرة
ثاني الأيام أضجروا بوجوه مكفهرة
ثالث الأيام أمسوا كل من يفرك أيره

الأودية :

في المعرة أودية كثيرة ، مسمى كل منها باسم مختص به .
منها : وادي العين ، وقد تقدم ذكره ، وكذلك وادي
المحروق ، ووادي الحكيم .
وادي نبا .
وادي الخنازير .

ومنها : وادي الجنان ، وهو أكثرها شهرة ، وأوفرها خصباً
وماء ، وهو واقع في الجهة الغربية ، متصل بجبل عَطَّال من
الشمال والغرب ، وفيه يسيل الهرماس ، كما ذكرنا ، وفيه
بساتين كثيرة ، فيها ضروب من الشجر ، كالتفاح والخوخ
والجوز والكمثرى واللوز والمشمش ، وفي طرفه الشرقي من
الشمال بستان لابن عمي السيد عبد الرحمن الجندي ، فيه أربع

شجرات من الفستق ، ولا أعلم في المعرة من هذا الشجر غيرها ، وغير التي في دارنا إلى نهاية سنة ١٣١٩ هـ ، ثم كثر غرسه بعد ذلك .

وهذا الوادي أعظم متنزه خصب للناس في عصرنا ، وماء ركاباه عذب ، وهوأوه طلق ، وأهل المعرة ولا سيما المتقدمين منهم كثيرون التغي بهذا الوادي ولحنين إليه ، وكان يقال له : وادي الجنان ، ثم اشتهر بوادي الخطيب ، والخطيب هذا هو السيد محمد الجندي ، لقب بالخطيب لأنه كان خطيباً بجامع المعرة الكبير ، كان له ولدان : إسماعيل ، ويحيى ، فاشترى يحيى بستانا في هذا الوادي يقال له : بستان الجنان ، وهو أعظم بستان في هذا الوادي ، ثم وقف منه ستة عشر قيراطاً على نفسه ، ومن سيولد له ، ثم على زوجته أسماء بنت قريبة السيد محمد الجندي ايضاً ، ثم من بعدها على أخته عائشة وبنتها سلم خان ، وعلى بنتي أخيه إسماعيل فاطمة وخديجة ، وعلى ذريتها طبقة بعد طبقة ، للذكر مثل حظ الانثيين ، ومات ، ولم يعقب ولداً ، وهذا بموجب حجة وقف صادرة من محكمة

حنص بتاريخ محرم سنة ١٢٠٦ هـ ، موقعة من النائب عبد الرحيم
والصورة بتوقيع عبد المجيد الرفاعي ، وفاطمة بنت اسماعيل
أم الشيخ أمين الجندي الحنصلي الشاعر المشهور ، فتوارث الأعتاب
ذلك إلى يومنا هذا ، وأنا وأخوتي منهم .

واشتهر البستان منذ ذلك الحين ببستان الخطيب ، ثم توسع
الناس فقالوا : للوادي كله وادي الخطيب .

ومن العجيب أنني رأيت حجة شرعية من محكمة المعرفة في
المحرم سنة ٩٥١ هـ ، فيها أن الشريف المدعو الناصري ابن الحاج
محمد المعروف بابن ست العيش المعري ، وقف ثلاثة أرباع
البستان الخراب ، المعروف ببستان الجنان ، والأرض المعروفة
بأرض المجاهدية ، والركايا التي فيها ، ويحد البستان قبلة الهرماس
وشرقاً بيد أولاد الزعكل ، وشمالاً بيد ورثة المعلم فرج ،
وتمامه الجبل ، وغرباً أرض مزرعة يحيى ، وأرض المجاهدية
يحدّها قبلة طريق سالك ، وشرقاً بستان الزعكل ، وشمالاً
الهرماس ، وغرباً بيد ورثة محمد البرجي ، على تربة الشيخ
فارس ، وعلى نبي الله شيت الكائن ذلك بظاهر المعرفة جهة

الغرب ، وما تحتاج إليه من فرش وتوير وعمال ، وكذلك وقف البركة التي في بستان الجوزة ، والبركة التي في بستان المغيين ، وبذلك تم الوقف بموجب حجة من قاضي المعرة خليل بن عبد الله .

ورأيت حجة أخرى صادرة من قاضي المعرة عبد الرحمن ابن أبي الجود سنة ١٠٢٣ هـ ، خلاصتها : أن السيد احمد ابن جلال الدين المعري ادعى على درويش جلي بن نجم الدين بك المعري أن نصف الأرض المعروفة ببستان الجنان ، المحدودة قبلة الهرماس ، وشرقاً وغرباً وشمالاً ، كما تقدم الخ ... هي من وقف جده نجم الدين العجبل ، وشهد عبد اللطيف بن عبد المنعم وابراهيم بن عبيد ، أنها كلها ملك نجم الدين بك ، فحكم بذلك القاضي المذكور ، والمتدعيان والشاهدان من أهل المعرة .

ورأيت حجة أخرى خلاصتها أن أمين بن خالد الجندي باع بالوكالة عن أمه فاطمة بنت اسماعيل الخطيب ، حصصاً من بستان الجنان ، إلى فاطمة بنت عبد الرزاق الجندي ، وهي

بنت خديجة بنت اسماعيل الخطيب ، والحجة من محكمة حماة في ١٥ رجب سنة ١٢١٩ هـ ، والقاضي عبد الوهاب الكيلالي أما البستان المذكور في عهدنا هذا ، فنه ثمانية قراريط لبني العظم ، والباقي ثلثه لاعتقاب الشيخ أمين بن خالد الجندي الحمضي ، والثلث الآخر لاعتقاب عبد الوهاب الجندي في المعرة ، وأنا واخوتي منهم كما تقدم .

وادي الحماة

هو في شمالي المعرة ، والقلعة إلى الغرب ، يسيل فيه ماء الهمزاس كما ذكرنا ، وامام الحماة عين آسية ، وهناك ركابا اتخذها الناس لسقي البساتين الكثيرة فيه .

والحما عبارة عن ساحة فسيحة جداً ، لها باب من الشمال ، يقابل عين آسية ، وباب صغير يقابله من الجنوب ، وهذه الساحة منحدره من الجنوب إلى الشمال انحداراً كبيراً ، وعلى يمين الداخل من الباب الشمالي باب صغير ، في داخله شبه قبر مستطيل ، يزعمون أنه قبر شيث عليه السلام ، وفي قبله إيوان في صدره باب صغير ، يخرج منه إلى الساحة الكبرى ،

وأمام الإيوان رَكِيتان ، يزعم الناس أن شيئاً كان حائكا ، وكان وقت الحياكة يضع رجله في هاتين الركيتين ، وقد يفيض ماؤهما في زمن الريح فيجري على وجه الأرض . وفي جنوبي الايوان الغربي ركبة في جدار الساحة الغربي ، فوقها حجارة ضخمة ، وأمام الركبة غرفة فيها ثلاثة قبور ، فوقها توابيت من خشب ، وبابها يتجه إلى الشرق ، وأمام هذه الغرفة غرفة فيها قبر الشيخ فارس ، وقد اكتشفت في عهدنا ، وقبل ذلك كان الناس يظنون أنها خالية ، وهذه الغرفة والتي قبلها في آخر الساحة من الجهة الغربية إلى الجنوب ، وعلى يمين الداخل من الباب الجنوبي إيوان يتجه للشمال ، وفي شرقيه غرفة متصلة به وفي شرقيها ساحة قبور مندرسة ، ودرج يصعد منه إلى سطح الغرفة والايوان ، ثم يلي المقبرة من الشمال الشرقي غرفة بابها حجر واحد ، أسود قصير ، يتجه للغرب ، وفي داخلها أربعة قبور ، وبعضها له توابت من خشب كالتى . في الجهة الغربية ، والناس يزعمون أن هذه القبور السبعة أولاد يعقوب عليه السلام وفي وسط الساحة الكبرى ركبة مسدودة بحجارة عظيمة ، ويحيط

بالحيا من الشرق والغرب بساتين ، ومن الشمال مجرى الهرماس
وعين آسية ، ومن الجنوب صخورات تحيط بها بساتين أيضاً .
والحياً أحد منتزهات المعرة المشهورة ، يؤمه الناس زرافات
يقضون فيه سحابة يومهم في الأكل والشرب والمرح واللعب ،
ومنهم من يبيت فيه .

والرجال يعملون فيه (السببانة) ، وهي في عرفهم عبارة
عن خروج إلى التنزه في مكان ، يقضون فيه يوماً كاملاً ،
فيأكلون ويشربون ويلعبون كما ذكرنا .

وقد تخرج إليه النساء فيعملن فيه (الحناء) ، وهو في
عرفهم عبارة عن خروج جماعة من النساء إلى منتزه ، يقضين
فيه يومهن بين طعام وشراب وقصف ولهو وغناء وما شاكل ذلك .
وقد يكون ذلك نذرا من الرجال والنساء ، وأكثر ما يكون
الحناء في الحيا ، وفي الشيخ حمدان ومقام أوتيس .

وسياتي أن الرجال تخرج في ليلة نصف شعبان إلى الحيا ،
وهم يحجرون بالتوحيد ، حتى يصلوا إليه ، ويزوروا من فيه من
ذكرنا ، ثم يعودون كما أتوا بالتهليل والتوحيد .

فآلحيا مجمع للابتهاج والسرور ، والمرح واللهو ، والعبادة والنسك ، من الرجال والنساء ، ولا يبعد أن يكون سمي بالحميا ، لأن الناس كانوا يجتمعون فيه ليلة النصف من شعبان ، فيحيونها فيه بالعبادة والذكر والتلاوة .

وباب شيث أحد أبواب المعرة السبعة ، ولم أجد ما يدل على أن باب المعرة المنسوب إلى شيث في هذا المكان ، ولا استبعد أن يكون شيث محرفاً عن سياث المتقدم ذكرها .

ومنها : وادي الرماحية .

ومنها : وادي النسيم ، وهو في الجهة الشرقية من المعرة ، ويمتد من شمالي المعرة الشرقي إلى جنوبيها الشرقي .

ومنها : وادي الضيف .

الرام :

قدمنا ما هو المراد بالرام في عرف المعرة ، وأن فيها الرام الكبير والصغير في جنوبها ، وأن الحكومة زدمتها .

رام الزيت :

وفي غربي المعرة على بعد ثلثي ساعة تقريباً مستنقع كبير ،

يقال له : رام الزيت ، يجتمع فيه ماء المطر ، وبالقرب منه موضع يقال له : حَوَارَى الزيت ، وحولها ينابيع كثيرة ، وقد يفيض هذا الرام ، حتى يتصل بماء حواري الزيت ، وربما سالا فاجتمعا بالهرماس ، عند تل منصور باشا ، جنوبي بستان الخطيب .

المدن التي في المعرة :

منها : تل منصور باشا ، وهو غربي المدينة في أخريات وادي الخطيب من الجنوب ويحيط به الهرماس من الغرب والشمال ، وبساتين الهرماس التي في الضفة القبلية ، وهو عال ، واسع الأرجاء ، مغمور أكثره بأشجار العنب والتين والزيتون وغيرها ، والناس يزعمون أنه كان حصنا .

ومنها : تل الفُجَل ، والناس يكسرون الفاء ، وهو شمالي المعرة على بعد ثلثي ساعة تقريباً ، ويزعم بعض الناس أنه كان معقلاً صغيراً .

تل البلس ، هكذا يلفظه الناس ، وهو شمالي المعرة إلى الغرب قليلاً ، وفي شرقي القلعة من الجنوب ، وهو أصغر من

تل الفجل . وفي شرقيه مقبرة ، وفي شماليه إلى الشرق مقبرة يقال لها مقبرة الساطعية ، يزعم الناس أن فيها قبر سليمان الجاموس باني قلعة المعرة ، وقد قدمنا أن الساطع هو النعمان أحد أجداد تنوخ ، الذي زعم ياقوت أن المعرة نسبت إليه ، وإن الساطع أيضاً ابن عبد الباقي بن المحسن ، من بني أبي حصين التنوخي المعري ، وقد كان من شعراء المعرة وأعيانها ، وقد مدح الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب سنة ٦١٢ هـ ، وكانت له عنده حظوة ، فلعل هذه المقبرة منسوبة إليه ، وكذلك الأرض التي يقال لها : الساطعية ، وقد ترجمه ابن العديم في بغية الطلب وستأتي ترجمته ، والأرض المذكورة هي اليوم ملك لابن شقيقتي فضل الله بن عبد الرحمن الجندي .

ومنها : تل بَنْصَرَة ، وهو في جنوبي المعرة على بعد ساعة منها ، قريب من المكان المسمى بجدار الخضر ، وينحرف عنه قليلاً إلى الشرق .

وفي أسفله الغربي رَكِيَّة ماء يقال لها : عين السوداء ، وماؤها غير مستعذب ، وفي أسفله من الغرب أيضاً مغاور في الصخر وشكله بيضوي ، وامتداده من الغرب إلى الشرق .

وبعض الناس يزعم أنه كان قلعة أو حصناً للمعرة ، وآخر يزعم أنه كان باباً من أبواب المعرة السبعة ، يقال له : باب النصر ، وفريق يزعم أن فيه كنزاً ، وحقيقته لا توال سرّاً غامضاً لم تكشفه الأيام ، وما ذكر كله مزاعم قائمة على الظن ، وأقرب شيء منها إلى الصواب أن يكون حصناً أو معقلاً صغيراً ، ولكن ليس في آثاره الظاهرة ما يؤيد شيئاً مما ذكر . وهو الآن مكتظ بشجر التين والعنب ، المتصل بالمعرة من الجنوب والشرق .
ومنها : تل الزعتر .
ومنها : تل الزيتون .

الجبال :

لا يحيط بالمعرة جبال شاهقة ، وإنما يتصل بها من الغرب جبل يقال له : جبل عطل ، وهو في شمالي وادي الخطيب إلى الغرب ، ومعنى عطل في عرفهم أنه خال من الغرس والزرع ، ويتصل به من الشمال الغربي ، شمالي الختيا ، وعين آسية ، الجبل المتصل بجبل بني عُليم .

القباب :

اشتهر في المعرة بعض الأماكن بقبة كذا ، والظاهر أن تلك المواضع كانت فيها قباب ، ثم قوضتها الأيام ، ولم تبق إلا أسماءها :

منها قبة الحَجَّي ، وهي الآن تل صغير في جنوبي المعرة إلى الغرب على بعد كيلومتر تقريباً ، والناس يزعمون أن هذا التل كان فوقه قبة يجلس الناس فيها ، لتوديع الحجاج واستقبالهم ، وبعد خراب القبة ظل الناس يجلسون فوق التل وحوله لاستقبال الحجاج إلى عهدنا هذا أي سنة ١٣١٩ هـ ، وأثارها الضئيلة القليلة المبعثرة ، تدل على أنها كانت معقودة بالقرميد .

وهي الآن مغروسة بشجر التين ، وموقعها جيد ، مشرف على سهول فسيحة ، فيها كثير من الكروم والبساتين ، وعلى أكثر المعرة .

وقد كان الطريق الممتد بين حماة والمعرّة يمر من شرقيها ، ثم اقتطعت الحكومة طريقاً آخر شرقي هذا ، يمر شرقي المعرة ، كما قدمنا ذلك .

وسياتي في ترجمة أبي المجد محمد أخى أبي العلاء ، أنه لما عاد إلى المعرة بعد أن فتكت الفرنجة بأهلها ، دخل إلى داره بباب حُنَّاك ، وتعرب بدار القُبَّة ، وهذا الموقع يشبه أن يكون قبة الحجي ، وعلى مقربة منها .

وكان في جنوبي المعرة على بعد خمس دقائق تقريباً قبة يقال لها : قبة الشقراء ، وهي شرقي قبة الحجي على مسافة ثلاثمائة متر تقريباً ، ويزعم الناس أنها كانت بالقرب من مطبخ لبني العجمي ، ولكن الآن ليس هناك أثر للقبة ولا للمطبخ ، وفي محلها الآن شجرتان ، وقد غرس فيه من عهد قريب شجر فستق وغيره .

ومنها : قبة السيد الوردي ، والناس يقولون : قبة السلاوردي وهي مدرسة ابن الوردي ، وقد سبق ذكرها .

ومنها : قبة موسى بك ، وهي قبة كان بناها موسى بك العظم في مقبرة بني العظم ، غربي المدينة ، بالقرب من مقبرة بني الجندي ، وقد تهدمت ، وباع أنقاضها ، جل من بني العظم .

أسماء المحلات في المعرة :

تقسم المعرة إلى محلات ، ويقال لها : حارات ، وقد ألفوا تقسيمها إلى قسمين كبيرين : الأول المحلة الشمالية ، والثاني المحلة القبليّة ، وتقسم إلى أربع محلات : الشمالية ، والقبليّة ، والشرقية ، والغربية ، وقد تلحق الشرقية بالشمالية ، والغربية بالقبليّة ، وهناك في محلة حارات صغيرة ، والصريق الحديث الذي سمي شارع أبي العلاء ، يقسم المدينة إلى قسم شمالي ، وقسم جنوبي ، والمشهور من المحلات الآن في المحلة الشمالية .

المشهور من المحلات في الحارة القبليّة :

حارة الكنيسة في المحلة القبليّة الغربية ، وفيها جدار ضخّم مائل إلى الآن ، من بناء الرومانيين ، يشبه جدران الكنائس في ذلك العهد .

وقد ذكرها أبو العلاء في رسالة الغفران ^(١) ، حيث قال :
وحدث أن أبا الطيب أيام كان اقطاعه بصَف ^(٢) ، رؤي يصلي بموضع بمعرة النعمان ، يقال له : كنيسة الاعراب ، وأنه

(١) أبو العلاء : رسالة الغفران ١٣٥ (ج) .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٤٠١ : صف ضيعة بالمعرة كانت اقطاعاً للمتنبي من سيف الدولة ، ومنها هرب إلى دمشق ، ومنها إلى مصر .

صلى ركعتين ، وذلك في وقت العصر ، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر ، وإن القصر له جائز .

والذي أعتقده أنه كانت في هذه الحارة كنيسة عظيمة ، ثم خربت بسبب الزلازل أو غيرها ، فأخذ الناس حجارتها ، وجعلوها في دورهم وعماراتهم ، كما فعلوا في غيرها ، ولم يبق إلا بعض الجدار المذكور .

الاماكن المشهورة في المعرة :

بحا

التنورة

الحمامات

عش الشوحا

السبع قلود : هكذا يلفظها الناس باللال ، وأهل الصواب بالتاء جمع قَلَتْ ، وهو نقرة في الجبل ، يستنقع فيها الماء فيكون صافياً ، وهي تقع في غربي المعرة من الشمال في جبل ، حوّلها دائرة من الصخر ، وفي شمالها الغربي النواويس ، وتبعد عن المعرة نحو ثلاثة أرباع الساعة .

النواويس : والعامّة تقول : النواغيص جمع ناووس ، وهو شبه غرفة ، فيها قبر قديم أو أكثر ، وهي في جنوبي المَحْيَا ، أي غربي المعرة من الشمال ، وتبعد عنها أقل من نصف ساعة ، وقد وجد منها في شرقي المعرة أيضاً .

والناس مولعون بالبحث عن النواويس ، لأنهم يجدون في بعضها أنواعاً من الحلي الذهبي ، أو الفضي ، ويجدون رسوماً وتمائيل من حجارة أو فخار ، ونحو ذلك من العاديات ، ولكنهم لا يعلمون تاريخ شيء منها ، ولا يستطيعون قراءة شيء مما هو مكتوب عليها ، أو في المكان التي وجدت فيه ، ولذلك يبيعونها بثمان بخس ، فيشتريها علماء الآثار وتجارها في الدول الراقية بثمان بخس .

البرج التي كانت في المعرة :

برج بني الحجال : تقدم ذكره في حوادث سنة ٤٤٠ هـ .

برج وحيدة : ذكر في حوادث سنة ٤٤٠ هـ .

المحصنة التي كانت في المعرة وضواحيها :

حصن الكفير ، وهو في الجهة الشمالية من المعرة ، على بعد

ساعة تقريباً منها ، فيه أشجار كثيرة من الزيتون والتين والكرم وغيرها ، وفيه آثار أبلية عظيمة ، وقد أخبرني رجل من أهل المعرة أنه رأى الحجارين يكسرون من حجارة تلك الأبنية ، وينقلونها إلى المعرة لينبوا بها .

وقد ذكره في شعره أبو اليسر شاعر بن عبد الله في قصيدة مذكورة في ترجمته ، منها قوله :

واذا الكفير رقيته اجزاك عن ظهر البراق
والآيات تدل على أنه مكان كثير الظل والشجر والتمر ،
عذب الماء ، طيب الهواء ، وقد ذكر ابن الوردي في حوادث
سنة ٢٠٨ هـ أن عبد الله بن طاهر وزير المأمون خرب حصن
الكفر ، في جملة ما خربه من حصون المعرة ، كما تقدم .
حصن أرواح : خربه كُؤْلُو السيفي المتغلب على حلب ،
بعد أبي الفضائل سعد الدولة بن سيف الدولة سنة ٣٩٣ هـ .
حصن أسفونا : مذكور في حوادث سنة ٤٦١ و سنة ٤٩٥ هـ
حصن حنّاك : خربه عبد الله بن طاهر سنة ٢٠٩ هـ
كما سيأتي .

حصن البارة المذكور في حوادث سنة ٤٩١ و سنة ٤٩٦
و سنة ٥١٣ و سنة ٥١٤ هـ .

حصن كَفَر رُوما : خربه لؤلؤ سنة ٣٩٣ هـ كما سيأتي .
حصن عار خربه لؤلؤ السيفي مع حصن ارواح وكفر روما
سنة ٣٩٣ هـ .

وفي سنة ٦٥٨ هـ قدم التتر على المعرة ، وخرّبوا قلعتها
وأسوارها ، قال ابن الوردي^(١) : أخبرني والدي أنه رأى شحنة
التتر على قلعة المعرة ، وقد سخر العوام في تخريب سورها .
وقد ذكرنا أبياتاً لبعض المعريين ، يصرح فيها بهذه الحادثة
حيث يقول :

وفقا عليها قلعة منيعة يهدمها من هو من خربها
فغاية المفرط في سلمها كغاية المفرط في حربها
تحتنا في هدمها أعجم ونحن مكرويون من كربها
تبخل أيدينا بأرواحنا وتشتكي منا إلى ربها
فهذه الأرواح من جوّها وهذه الأجسام من تربها

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

لما رأوها أسرفت في العلى كان علاها منتهى ذنبها^(١)
وأشرنا إلى أن ما زعمه بعض المتأخرين ، من أن القلعة
كانت قبل الاسلام ، أو هي من بناء الصليبيين ، أو أنها من
بناء الملك الظاهر ، ونحو ذلك من المزاعم ، كله قائم على
الوهم والباطل .

والذي يفهم من كلام ابن الوردي^(٢) وغيره ، أن بناءها
قد تم سنة ٦٣١ هـ ، وأنها هدمت سنة ٦٥٨ هـ ، فتكون مدة
بقائها عامرة بنحو سبع وعشرين سنة .

وسمعت من كثير من شيوخ المعرة أن حجارة القلعة اخذت
منها ، وعمر بها خان أسعد باشا المقابل لخان مراد جلبي في
مدخل المعرة من الشرق ، وقد كان بناء هذا الخان سنة ١١٦٦ هـ .

قلعة المعرة :

رأيت بعض المؤرخين والأدباء والعلماء في هذا العصر والذي
قبله ، كتبوا في قلعة المعرة شيئاً كثيراً ، وأكثرهم لم يسلم من
الخطأ فيما كتب ، فأحببت أن ألخص ما عرفته من أخبار هذه

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ ، ١٦٠ .

القلعة ، وما نقلته عن الثقات والمحققين ليتبين الخطأ والصواب بما كتب فيها .

في سنة ٦٢٦ هـ صارت المعرة للملك المظفر محمود بن المنصور صاحب حماة . وقد استلم أمور حماة وتدير شؤونها من قبله سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني ، فأشار عليه ببناء قلعة المعرة ، فشرع في بنائها ، وقد تم بناؤها سنة ٦٣١ هـ وشحنها بالسلاح والرجال ، ونزلها في هذه السنة ، وكان بناؤها سبباً لخراب المعرة وخرابها معها ، لأن الحلبيين حاصروا القلعة المذكورة سنة ٦٣٥ هـ بعد وفاة الملك الكامل صاحب دمشق ، وكان مقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، ثم أخذوها ، وخربت المعرة بسببها ، وملكوها أيضاً .

وذكر المقرئزي^(١) في كتاب السلوك أن أهل حلب استنجدوا عسكرياً من الخوارجية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباز ملك الروم ، فأمدهم بخيار عسكريه ، فملكوا المعرة في السنة

(١) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول القسم الثاني ص ٢٦٩ .

المذكورة أي سنة ٦٣٥ هـ ، وفي سنة ٦٣٨ هـ نهبتها الخوارجية بعد ما خربوا حلب .

وتقع قلعة المعرة في شمالي المعرة في الشمال الشرقي ، من وادي الخطيب ، أو وادي الجنان ، أو حيث ينعطف الهرماس إلى الشمال ، فالغرب ، وفيها بقية بيوت تشبه بيوت القرى ، ولا تزال آثار الردم والهدم ظاهرة ، خلال المساكن ، وحولها يسكن فيها جماعة من الفلاحين من أهل المعرة .

وحول القلعة خندق كان باطنه مفروشاً بالبلاط ، ثم اقتلعه السكان ، وزرعوا مكانه تيناً ورمناً وعنباً وغير ذلك .

وبعد سنة ١٣٧٠ هـ كان أحد الفلاحين يحفر بقعة من الخندق ، فاصطدمت سكة الحراث بحجر ، وأراد الفلاح أن يزيلها من طريق السكة ، فما استطاع ، فحاول اقتلاعها ، فانحسرت عن فجوة ، فكشف ما حولها ، فتبين له جدار مسجد تحت القلعة ، وعليه كتابة بالحروف العربية ، وبحروف أعجمية . وقد فهم من قراءة بعض الحروف العربية على الحجر الأول الأمير عبد القادر الخديجة الجاموس السليمانى سنة ٣٥٠ هـ ،

ولم يستطع قراءة ما على الحجر الثاني والثالث ، لأن حروفها غير عربية ، وفهمت أن دار الآثار تريد تحقيق هذا البناء ، ولا شك أن البحث سوف يرشد إلى آثار لها شأن عظيم في تاريخ المعرة ، وقلعتها ، وتلاها ، ومقابرها .

لأننا ذكرنا فيما سبق أن في شمالي المعرة ، وفي شرقي القلعة من الجنوب تلاك يقال له : تل البلس ، وفي شماليه إلى الشرق مقبرة يقال لها : الساطعية ، وإن الناس يزعمون أن فيها قبر سليمان الجاموس باني قلعة المعرة ، وأهل المعرة يروي المتأخر منهم عن المتقدم أحاديث تدل على شجاعة سليمان الجاموس ، وقد كنت أظن أنه رجل لا حقيقة له ، وبعد العثور على اسمه في جدار الجامع الذي ظهر تحت القلعة تبين لي أنه رجل عظيم .

وصرت أظن أن القلعة التي بنيت ، وهدمها الحلييون والخوآرزمية ، قائمة على أنقاض جامع أو معبد قديم ، ويجوز أن يكون بني بعد خراب القلعة ، وجعل تحتها ليكون بمنزلة قلعة صغيرة .

وهذا نص الكلمات المكتوبة فوق باب المسجد الغربي :
 بناه بعد أن كان كنيسة الأمير عبد القادر الخديجة الجاموس
 السليمان سنة ٣٥٠ هجرية .
 وفوق باب حقير لفرقة تتجه نحو الجنوب مكتوب بالأحرف
 اللاتينية ثلاثة أسطر وهذه هي :

1/ ΡΟΥΦΙΝΟΣ ΚΑΙ ΕΝΕΚΙΩΙΣ Π
 ΡΙΚΚΟΣ, ΡΟΥΦΙΝΟΣ.

2/ ΠΕΝΤΑΡΩΤΟΙ ΤΗΣ ΒΙΝ
 ΔΤΟΥ ΣΛΥΕΤΟΥΣ.

3/ ΕΚΤΙΣ ΑΝΤΩΣ ΚΕΙΝΩ
 Τ ΗΕΚΩΜΗΕ.

سورة المفرة :

قال ياقوت في (معجم الأدباء) ^(١) : وفي جانب سورها
 قبل البلد ^(٢) قبر يوشع بن نون عليه السلام في برية فيما قيل ...

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٤ .

(٢) هكذا في ياقوت ، ولعله من قبلي البلد ، لأنه واقع في الجهة القبلية

من البلد (ج) .

وقد تقدم عن ابن الشحنة أن الطلسم قريب من السور .
وسياتي أن عبد الله بن طاهر هدم سور المعرة سنة ٢٠٧ .
أو سنة ٢٠٨ هـ .

وكلام صاحب الروض المعطار يدل على أن قبر يوشع
داخل المدينة ، وذكروا أن صالح بن مرزاس حاصر المعرة ،
ورماها بالمناجيق ، وخرج من باب من أبوابها أبو العلاء .
وسياتي بأن سيف الدولة مُقْلِد بن كامل الميرداسي كتب
إلى واليه أن يخرب سور المعرة ويهدمه ، وإن أمير المعرة أبا الماضي
أتم بناء السور سنة ٤٥٥ هـ في سنة واحدة ، وأن الصليبيين
قاتلوا أهل المعرة على السور ، بعد ما عملوا برجاً يوازيه ،
ثم هدموا السور والبروج .

وفي سنة ٥٢٩ هـ خرب عماد الدين زنكي سور المعرة .
وفي سنة ٦٥٨ هـ خرب التتر قلعة المعرة وأسوارها .
ولكن الأيام لم تدع لهذا السور عيناً ولا أثراً ، لنعلم منه
موقع المدينة وحدودها على وجه صحيح .

المقابر والقبائل :

إذا مر الإنسان بطرف المعرة من الشمال أو الجنوب أو الغرب هاله ما يراه فيها من كثرة القبور القديمة والحديثة ، ونذكر قول أبي العلاء : خفف الوطء ما اظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد . وتكاد هذه القبور المنتشرة في بقاع فسيحة ، تكون أكبر من المدينة نفسها ، ولعل السبب في كثرة القبور هو أن أهل المعرة لا يدفنون ميتاً على بقايا دفين آخر ، وإنما يتخذون لكل ميت قبراً يستقل به ، وذلك لأن أرض المقابر موقوفة على الغالب ، لا يدفع أهل الميت ثمنها ، ومن أراد منهم أحداث مقبرة يختص بها هو وأسرته اشترى أرضاً ، وجعلها مقبرة ، وأجر الحفر والدفن قليل بالنسبة إلى بقية الأمصار الشامية كدمشق وحلب وغيرهما .

وقد اتخذت كل أسرة مقبرة ، يستقل بالدفن فيها أبناؤها ويسمونها جبانة وتربة ، فيقال مثلاً : جبانة بني الجعدي ، جبانة بني العظم وهكذا .

وعادتهم في صنع القبور في هذا العهد ، أن يقيموا حجرين

طويلين ، أحدهما عند الرأس ، وهذا يكتبون عليه اسم الميت ونسبه وتاريخ وفاته ، وربما نقشوا عليه أياتاً من الشعر ، تشتمل على ذلك ويسمونه شاهدة ومصيبة ، والثاني عند الرجلين وأعلى كل واحد منها محفور منقوش على صورة تخالف الأخرى ، ويتميز العلماء من غيرهم ، بأن يكون في رأس الشاهدة شكل كروي تقريباً ، مخطط بخطوط منحنية ، يمثل عمامة العالم . وللمتقدمين أنماط مختلفة في القبور ، يستطيع الباحث المدقق أن يعرف القبر في أي عصر بني .

فمن المقابر ، أو الجبانات المشهورة : المقبرة الغربية ، وفيها مقابر لأسر مشهورة في المعرة ، منها : مقبرة بني الجندي ، وهي غربي المدينة من الشمال ، ينحدر من غربها إلى وادي الخطيب أو وادي الجنان ، وفي شمالها مصلى مفروش بالبلاط ، على رابية تشرف على الوادي المذكور ، يقال له : مصلى بني الجندي ، وفي شرقي هذه المقبرة دار قديمة فخمة ، يقال لها : دار بني الجندي ، ولها باب عظيم مبني بحجارة كبيرة ، شاهق يتجه إلى الشمال ، وليس في شماليه بناء قائم في عهدنا ، وفي هذه الدار قبة عظيمة مبنية كلها بحجارة عظيمة .

وقد افتتحت الحكومة في العهد الأخير ، طريقاً يذهب من
المعرة إلى أريحا ، فيمر شرقي هذه المقبرة ، وقد أخذ منها
قسم ، وضم إلى الطريق .

وبجوار هذه المقبرة إلى الجنوب مقبرة بني العظم ، وكان
فيها قبة موسى بك ، ثم تهدمت كما ذكرنا .

وفي هذه المقبرة من الجنوب قبور يقال لها : قبور بنات النعمان .
وفي جنوبيها أيضاً قبور يقال لها : قبور شطي ، وهي غربي
المعرة ، الجنوب .

المقبرة الشمالية^(١) ، وفيها أيضاً مقابر كثيرة ، منها : مقبرة
الساطعية ، شرقي بيدر الجعابصة إلى الشمال ، وفيها قبور كثيرة
اندرست ، وذهبت حجارتها ، ولم يبق إلا قبور قليلة .

المقبرة القبليّة ، وفيها أيضاً مقابر كثيرة ، منها : مقبرة بني
الشحنة ، وهي في جنوبي المعرة ، شرقي زاوية بني الكيال ، وفي
هذه المقبرة قبور لبني الحراكي .

ومنها : مقبرة بني السيد يوسف ، وهي في جنوبي المعرة

(١) فيها قبور قديمة وأخرى حديثة .

من الشرق ، ولما افتتحت الحكومة الطريق الجديد ، الذي يصل ما بين حماة وحلب ، جعلته يمر على هذه المقبرة ، فاندurst بذلك قبور كثيرة منه ، ومنعت تلك الأسرة من الدفن فيها . ومنها مقبرة بني الحراكبي ، وهي مقابل قبة الحجّي تقريباً ، ويفصل بينها الطريق القديم ، الذي كان يذهب منه إلى حماة . ويزعم الناس أن قبر النعمان بن بشير بالقرب من الحواري القبليّة ، ولعل هناك كان قبر ابن النعمان ، الذي افترسه السبع وبنيت المعرة من أجله كما تقدم ، ولما فتح الطريق الجديد الآخذ إلى حماة ، عثروا على قبور كثيرة لبني العجيل ، كلها مردومة ، ويظهر أنها كثيرة ، وأن أصحابها كانوا موسرين . ومنها : المقبرة الشرقية ، وهي في شمالي الشيخ حمدان وشرقيه ، وهي مقبرة عظيمة قديمة وحديثة ، وقد أصبح بنو الجندي يدفنون موتاهم في هذه المقبرة ، بعد ما منعتهم الحكومة من دفنهم في مقبرتهم الغربية السابق ذكرها .

المزارات :

أهل هذه المدينة أذكاء ، وأولو فطنة ونباهة ، ولكن يغلب

على العامة منهم ، وفريق من الخاصة ، سلامة الطوية ، وطهارة
الضمير ، ونقاء القلب ، وابتعادهم عن العلم الذي يثقف العقول ،
ويكشف عن البصائر ، وينير لها السبيل ، جعل حظهم من
سلامة الصدر وافرأ ، إلى حد يخيل للمدقق في أطوارهم وشؤونهم
أنهم أولو غفلة وعي .

ولذلك تجد بضاعة الشعوذة رائجة عندهم ، والاتجار
بالدين أربح بضاعة في أسواق الخاصة والعامة ، ومن استعصى
على كل قوة ، وتمرد على كل سلطان منهم ، متى ذكرت
له الدين وما يتصل بالدين ، أسلس لك القياد ، وكان
أطوع لك من ظلك ، هذا شأن من أدركناه من شيوخهم
وكهولهم وشبانهم إلى سنة ١٣١٩ هـ وقد غشت أهلها في الأزمنة
المتأخرة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، من الجهل والعسف
والإرهاق ، فأصبحوا كأنما عادت إليهم جاهليتهم الأولى ،
وفقد فيهم المرشد والهادي إلى الدين الصحيح ، وفشت فيهم
الطرق والدعوة إليها ، وصاروا يعتقدون في بعض الرجال ما لا
يعتقدون مثله في الأنبياء ، ويفترون لهم من الكرامات ما لا يسوغ

الشرع والعقل صدور مثله عن مثلهم .
ولعل هذا الداء قديم فيهم فان أبا العلاء يشير إلى مثل
ذلك بقوله :

إذا كان التقى بلها وعيا فأعيار المذلة أتقياء
وخلاصة القول : ان المعريين كثيرو الاعتقاد بالصالحين ،
وان الصالحين عندهم من المتقدمين كثيرون ، وسيأتي في العادات
والمعتقدات طريقتهم في النذور والزيارات ، ومن أعجب العجب
أن مدينة تنتج مثل أبي العلاء الذي كان يحكم العقل في كل
شيء ، فيرتضي ما ارتضاه العقل ويأبى ما أباه ، ثم يأتي من
بعده خلف ينقاد بالأحاديث الملفقة ، ويستسلم إلى الشَّعْبَذَةِ
والترُّهات .

مقامات الانبياء :

- ١ — مقام نبي الله ﷺ (ص) وقد سبق القول فيه في
الكلام على النحيا .
- ٢ — أولاد يعقوب السبعة (ص) وقد سبق القول فيه في
الكلام عن مسجده .

٣ — نبي الله يُوشع (ص) .

٤ — الخضر (ص) ، ومقامه في مكان يقال له : جدار

الخضر ، وهذا المكان يقع في جنوبي المعرة على بعد ساعة منها
وفيه آثار قديمة ، فيها بعض الرسوم ، وآبار ، ومغاور في
الصخر ، وركية مطوية بالحجارة ، عمقها نحو من عشرين متراً ،
ماؤها عذب ، وركية أخرى ماؤها ملح ، وفيه نواويس كثيرة ، كانت
طافحة بالآثار ، فاستخرجها الجاهلون بها ، وباعوها بثمان بنخس ،
وفيه مغارة لها قوس عظيم من الحجر ، تحته جدار عظيم ، فيه باب
من الحجر الأسود ، وفيه عدد كثير من مثل هذا الباب . والناس
يزعمون أن هذه المغارة مقام الخضر ، لأن فيها رسم قبر
اسلامي ، والعامّة ينذرون له البرغل المطبوخ بالدردار ، وهو
نوع من النبات عندهم ، ويسمى ذلك الطعام المغمومة ، وكذلك
كل برغل طبخ بنبات ، ومنهم من يذبح الخرفان ، وهذا النذر
يسمى الحناء أيضاً ، ولا يكون إلا في زمن الربيع ، فتخرج
النساء إليه ويقضين يومهن في القصف واللّهو ، ثم يأكلن المغمومة ،
ويعدن من حيث أتين ، فيجمعن بين القربى والنزهة ، لأن

هذا المكان محاط بشجر العنب والتين والزيتون والرمان، وهو
فسيح أفيع ، واسع الأرجاء ، عذب الماء ، طيب الهواء .

الصحابة والتابعون :

قبر عبد الله بن عثمان بن ياسر الصحابي .

قال ياقوت ^(١) في (معجم البلدان) : وبالمعرة قبر عبد الله
ابن عمار بن ياسر الصحابي ، ذكر ذلك البلاذري في فتوح
البلدان له .

وقال ابن العديم : في بغية الطلب ، وذكر صاحبنا ياقوت
ابن عبد الله في كتابه ، وقال : بمعرة النعمان قبر محمد بن
عمار بن ياسر .

ولم نقف على ما ذكره ياقوت في كتاب البلاذري ، ولا وقفنا
على ولد لعمار اسمه عبد الله ، ولا على ولد لعبد الله المذكور .
اسمه محمد ، فلعل في هذا الاسم تحريفاً ، أو حذفاً لبعض الآباء
وكذلك لم نقف على أثر لهذا القبر .

وأظن أن هذا القبر لو كان حقيقة ، لما طمست معالمه ،

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥

ولا اندرس أثره ، لأن المعريين يعنون بقبر الصالحين ، فكيف بالصحابة ، أو التابعين ، أو أحد من بينهم .
أوتيس القَرَنِي ، أو السلطان ويس : تقدم الكلام فيه في مسجد أوتيس أو مقامه .

الصالحون :

الشيخ عطاء الله : وهو في المسجد المنسوب إليه ، وهذا يخلقون على شبابه خروفاً من ثياب المريض ، وينذرون له زيتاً ليوقد عند ضريحه ، ولم أوفق لمعرفة هذا الرجل ، وبعض الناس يعتقد أنه عطاء الله ابن أبي رباح ، وقد بينا بطلان ذلك .
ومنهم الشيخ محمد الرشيدى : ويقال له ، الشيخ المعاليقي وهو في المسجد المنسوب إليه المتقدم ذكره ، وهذا ينذرون له (مِعْلَاقاً) ، يجتمع النساء عنده إذا برىء المريض أو حضر الغائب ، ويشتوين مِعْلَاقاً ويأكلنه (والمِعْلَاق هو جزء من الحيوان يشتمل على الكبد والرئة والقلب والمَرِيء ، وما عليها من شحم ، وهو يرادف السَّخَر في قول ، فقد قال بعضهم : السحر كل ما تعلق بالخلقوم من قلب وكبد ورئة) .

الشيخ دبس ، وهو واقع في الطريق الممتد ما بين مقام
الشيخ حمدان ، ومدرسة ابن الوردي ، وهو عبارة عن بقعة
صغيرة ، مسورة بجدر متهدمة ، ينذر له الناس خبزاً ودبساً
وربما كان عنده مسجد فتداعى .

الشيخ محمد الهبولى ، وهو في مسجد البولى ، ولم أقف
على ترجمته ، ولا ترجمة من قبله .

فهرس الموضوعات

<u>الصفحة</u>	<u>الصفحة</u>
٦٣ - ٦٢	كلمة المحقق
٦٥ - ٦٣	ترجمة المؤلف بقلمه
٦٧ - ٦٥	١ - ١٦ مقدمة المؤلف
٦٨ - ٦٧	١٧ - ٠٠ معرة النعمان
٠٠ - ٦٨	١٧ - ٢٤ معنى المعرة اللغوي والعرفي
٧٠ - ٦٨	٢٤ - ٣٥ النعمان الذي أضيفت اليه المعرة
٧٤ - ٧٠	٣٦ - ٠٠ إضافتها إلى حمص
٧٧ - ٧٤	٣٧ - ٠٠ إضافتها إلى حلب
٩٥ - ٧٧	٣٧ - ٣٨ تسميتها بذات القصور
	٣٨ - ٤١ المعرة من العواصم
	٤٢ - ٤٣ النسبة اليها
٠٠ - ٩٦	٤٣ - ٤٥ الخلاصة
١٠٠ - ٩٦	٤٦ - ٥٦ ذكر المعرة في شعر أبنائها وفي نثرهم
١٠١ - ١٠٠	٥٧ - ٠٠ المعرة في القديم :
١٠٤ - ١٠١	٥٨ - ٥٩ المعرة أو سورية قبل الطوفان
٢٣٨ - ١٠٤	٥٩ - ٠٠ بعد الطوفان
وما حدث فيها الى عهد جلاء	٦٠ - ٦٢ استيلاء الكنعانيين على سورية
الترك عنها	ودخولهم اليها

الصفحة	الصفحة
المعرة بعد جلاء الترك ٢٣٩ - ٠٠٠	الطرق المارة بها ٣١١ - ٣١٣
٢٣٩ - ٢٤٦ كيف ترك الترك المعرة	٣١٣ - ٣١٤ فتح شارع أبي العلاء
٢٤٧ - ٢٥٥ حالة اللغة في هذا العهد	٣١٤ - ٣١٥ عدد نفوس المدينة وما ألحق بها
٢٥٥ - ٢٥٩ الحياة الدينية	٣١٥ - ٣١٦ حكومة المعرة ومقرها
٢٥٩ - ٢٦٠ الطرق الصوفية	٣١٧ - ٣٢١ ماء المدينة
٢٦٠ - ٢٦٥ كيفية الذكر عند الرفاعيين	٣٢٢ - ٣٢٨ المكاتب والمدارس في المعرة
٢٦٥ - ٢٨٢ الحياة الاجتماعية	٣٢٨ - ٣٣٠ الزوايا
٢٨٤ - ٢٨٥ طريقة العثمانيين في أخذ	٣٣٠ - ٣٣٦ المساجد
الخراج والضرائب	٣٣٦ - ٣٧٩ كيفية بناء ضريح
٢٨٦ - ٢٩٥ خصائص المعريين	أبي العلاء الجديد
٢٩٥ - ٢٩٨ الكلام في المعرة بعد الحرب	٣٨٠ - ٣٩٣ المهرجان الألفي لأبي العلاء
العامة الأولى	٣٩٤ - ٤٠١ الخانات
٢٩٩ - ٣٠٨ سورية والفرنسيون	٤٠٢ - ٤٠٥ الحمامات
٣٠٩ - ٣١٠ صفة المعرة	٤٠٥ - ٤٠٦ المقاهي
٣١١ - ٠٠٠ طولها وعرضها	٤٠٦ - ٤٠٨ الأسواق والدكاكين
٣١١ - ٠٠٠ ارتفاعها عن سطح البحر	٤٠٨ - ٤١٣ الدور والمساكن
	٤١٦ - ٠٠٠ المعاصر

<u>الصفحة</u>	<u>الصفحة</u>
٤٤٣ - ٠٠٠ البروج التي كانت في المعرة	٤٢٨ - ٤١٧ المياه التي هي خارج المدينة
٤٤٣ - ٤٤٦ الحصون التي كانت في المعرة	٤٣٦ - ٤٢٨ الأودية
وضواحيها	٤٣٦ - ٤٣٨ التلال التي في المعرة
٤٤٦ - ٤٥٠ قلعة المعرة	٤٣٨ - ٠٠٠ الجبال
٤٥٠ - ٤٥١ سور المعرة	٤٣٩ - ٤٤٠ القباب
٤٥٢ - ٤٥٧ المقابر والجبانات	٤٤١ - ٠٠٠ أسماء المحلات في المعرة
٤٥٧ - ٤٥٩ مقامات الأنبياء	٤٤١ - ٤٤٢ المشهور من المحلات في
٤٥٩ - ٤٦٠ الصحابة والتابعون	الحارة القبلية
٤٦٠ - ٤٦١ الصالحون	٤٤٢ - ٤٤٣ الأماكن المشهورة في المعرة

